طه حسين

مع أبى العلاء فى سجنه



دار المعارف

إلى

الذين لا يعملون ويؤذى نفوسهم
أن يعمل الناس ،

أهدى هذا الكتاب

طه حسين

١

لن يكون هذا إلا نحواً من حديث النفس تعرض فيه كما تريد ذكرياتي والآراء المختلفة التي كوّنتها لنفسي في شخص ممتاز شاذ ، فنان عظيم ، قاسٍ قوى الإرادة قبل كل شيء ، له ذكاء نادر يقظ دقيق قلق ، يخفي من وراء الآراء المطلقة ، والأحكام الصارمة . لا أدري أيّ شك في نفسه ، وأي يأس من إرضائها ؛ شعور شديد المرارة عظيم الشرف ، كان يثيره في نفسه علمه الدقيق بأساتذة الفن ، وتهالكه على ما كان يزعم لهم من أسرار النبوغ ، وما كان يحضر ذهنه دائماً من ألوان تفوقهم المتناقضة . لم يكن يرى في الفن إلا نوعاً من مسائل الرياضة أدقّ وألطف من الرياضة المألوفة ، لم يستطع أحد أن يردّها إلى الوضوح ، ولا يستطيع إلا قليل جداً من الناس أن يفترضوا وجودها . كان كثيراً ما يتحدث عن الفن العالِم ، وكان يقول إنّ صورة من الصور نتيجة لطائفة من أعمال العقل .

ومع ذلك فإن أصحاب السذاجة يرون أن الأثر الفني إنما هو نتيجة لما يكون من لقاء بين ذكاء بارع وموضوع من الموضوعات .

إن فناناً متعمقاً على هذا النحو ، بل أشد تعمقاً فى أكبر الظن مما ينبغى ، يؤجل الابتهاج بالفوز ، ويخلق لنفسه المصاعب . ويشفق من سلوك أقصر الطرق .

كان ديجاس يرفض السهولة كما كان يرفض كل ما لم يكن يقصر عليه تفكيره . لم يكن يتمنى إلا أن يرضى عن نفسه . أى أن يُرضى أصعب القضاة وأصلبهم وأبعدهم عن التحيز . لم يحتقر أحداً قط كما احتقر الشهرة والمنافع والثروة ، وهذا المجد الذى يستطيع الكاتب أن يُسبغه على الفنان فى سخاء وخفة . وكان يسخر فى عنف من هؤلاء الذين يحكّمون فى فنهم الرأى العام أو السلطان المقرر أو المنافع التجارية ؛ كما أن المؤمن حقاً لا يحفل إلا بحكم ربه الذى لا يمكن الاستخفاء منه والاحتيال عليه بالتلفيق أو المفاجأة أو التصنع أو أى مظهر مهما يكن . كذلك أقام ثابتاً مستقراً لا يخضع إلا للفكرة المطلقة التى كونها لنفسه فى فنه . لم يكن يريد شيئاً إلا ما كان يجد أصعب المشقة وأثقل الجهد فى استخلاصه من نفسه .

ولعلى أعود إلى هذا كله . . . على أنى لا أدرى ما عسى أن أقول بعد حين ؛ فقد يمكن أن أستطرد من حديث ديجاس إلى حديث الرقص وإلى حديث الرسم . فلست أريد أن أترجم له على النحو المألوف ، فلست حسن الرأى فى التراجم ، وهذا لا يدل

إلا على أنى لم أخلَق لها . فليست حياة رجل من الناس آخر الأمر إلا مصادفات يتبع بعضها بعضًا ، وإلا أجوبة دقيقة أو غير دقيقة لهذه الأحداث أو تلك .

على أن ما يعنينى من حياة رجل من الناس شىء آخر غير هذه الأعراض التى تطرأ له . وليس ينفعنى مولده ولا حبه ولا شقاؤه ، ولا كل هذه الأشياء التى يمكن أن تلاحظ فى حياة الناس ؛ لأنى لا أجد فى هذا كله أيسر الوضوح المقنع الذى تستبين به قيمته الصحيحة ، والذى يميزه تمييزاً عميقًا من الناس جميعًا ومنى .

ولست أزعم أنى لا أميل فى كثير من الأحيان إلى هذه التفصيلات التى لا تعلمنا شيئاً ذا خطر ، ولكن أقول إنّ ما يمتعنى لا يهمنى دائمًا ، وهذه حال الناس جميعًا . فلنحذر مما يمتع ويسلى .

پول ڤاليرى فى أول كتابه ديجاس ورقص ورسم

على نحو من هذا القول كنت أريد أن أبدأ هذا الحديث الذى أستأنفه عن لزوميات أبى العلاء فى آخر ساعة من ساعات النهار ، وأول ساعة من ساعات الليل . وفى يوم من أيام الصيف الفرنسى على كل حال .

وكانت معان تشبه هذه المعانى تضطرب فى نفسى ، وتلحّ فى أن تجرى على لسانى وأن يثبتها قلم صاحبى فى الصحف . ولكنى

إلا على أنى لم أخلَق لها . فليست حياة رجل من الناس آخر الأمر إلا مصادفات يتبع بعضها بعضًا ، وإلا أجوبة دقيقة أو غير دقيقة لهذه الأحداث أو تلك .

على أن ما يعنينى من حياة رجل من الناس شىء آخر غير هذه الأعراض التى تطرأ له . وليس ينفعنى مولده ولا حبه ولا شقاؤه ، ولا كل هذه الأشياء التى يمكن أن تلاحظ فى حياة الناس ؛ لأنى لا أجد فى هذا كله أيسر الوضوح المقنع الذى تستبين به قيمته الصحيحة ، والذى يميزه تمييزاً عميقًا من الناس جميعًا ومنى .

ولست أزعم أنى لا أميل فى كثير من الأحيان إلى هذه التفصيلات التى لا تعلمنا شيئاً ذا خطر ، ولكن أقول إنّ ما يمتعنى لا يهمنى دائمًا ، وهذه حال الناس جميعًا . فلنحذر مما يمتع ويسلى .

پول ڤاليرى فى أول كتابه ديجاس ورقص ورسم

على نحو من هذا القول كنت أريد أن أبدأ هذا الحديث الذى أستأنفه عن لزوميات أبى العلاء فى آخر ساعة من ساعات النهار ، وأول ساعة من ساعات الليل . وفى يوم من أيام الصيف الفرنسى على كل حال .

وكانت معان تشبه هذه المعانى تضطرب فى نفسى ، وتلحّ فى أن تجرى على لسانى وأن يثبتها قلم صاحبى فى الصحف . ولكنى

كنت أمانعها أشد الممانعة وآبى عليها أشد الإباء ، وأرفض أعنف الرفض أن أطلب إلى صاحبي إعداد القرطاس والقلم وأن يستعد للكتابة على حين أستعد أنا للإملاء .

وكنت أوثر على ذلك المضى فى قراءة اللزوميات هذه التى أخذت فى قراءتها منذ أيام . ولكن هذه الخواطر كانت أقوى منى وأشدّ بأسًا . فقد جعلت تدور فى رأسى ، وتحاول أن تحرك لسانى وأن تطلق صورتى ، حتى ألهتنى عما كان صاحبي يقرأ لى من شعر أبي العلاء. فطلبت إليه أن يكفّ عن القراءة . وصبرت لهذه الخواطر ريثما أحرقت سيجارة أو سيجارتين لا أدرى ، أريد أن أصرفها عن نفسى . فلما رأيتها لا تريد أن تنصرف بالحسنى أردت أن أصرفها بالعنف .

وكان صاحبي قد أهدى إلىّ هذا الكتاب من كتب پول ڤاليرى منذ أسابيع ، فطلبت إليه أن يأخذ فى قراءته لى ، مستيقنًا بأن حديث هذا الكتاب الفرنسى العظيم عن هذا المصور الفرنسى العظيم ، وعما أراد أن يستطرد إليه من الرقص والرسم سيشغلنى عن أبي العلاء ولزومياته فضلا عن الحديث فى أبي العلاء ولزومياته . ولكن اعجبْ للمصادفات ، واعجَبْ لقول ڤاليرى نفسه إن حياة رجل من الناس ليست إلا سلسلة من المصادفات ؛ واعجَبْ لقول أبي العلاء نفسه فى أول اللزوميات ، إنه إنما قال ما قال بقضاء لا يشعر كيف هو .

فلم أكد أسمع لمقدمة پول ڤاليرى حتى رأيت خواطرى مصوّرة ومعانىّ ممثلة ، وحتى خيّل إلىّ أن هذه المعانى والخواطر قد قامت أمامى ضاحكةً منى هازئة بى تقول : لقد حاولت أن تكظمنا وتكتمنا فلم تفلح ولم توفق ، وحاولت أن تفرّ منا إلى هذا الكتاب فإذا نحن نطالعك ، وإذا أنت تطالعنا فى أوله ، فأذعنْ للقضاء وخذ فى الإملاء .

هنالك لم أر بدّاً من أن أترجم هذه الصفحة من صفحات پول ڤاليرى ، ومن أن أستعيرها بدءاً لهذا الحديث . والغريب الذى لم أكن أتوقعه ولا أفترضه أن كثيراً من صفات هذا المصور الفرنسى ، الذى كنت أسمع إسمه وأجهل من أمره كل شىء ، تشبه ما ألفت وأحببت من صفات أبى العلاء . فشدة الرجل على نفسه إلى أقصى غايات الشدة ، وشك الرجل فى مقدرته إلى أبعد آماد الشك ، وارتياب الرجل بأحكام الناس فى أمور الفن ، وزهد الرجل فى الشهرة وبعد الصيت ، وفى الثراء وسعة ذات اليد ، وانصرافه عن الحمد الكاذب والثناء الرخيص ، وتأجيله لذة الظفر بالفوز ، وخلْقه المصاعب لنفسه ، وبغضه للطرق القصار والأبواب الواسعة ، وإيثاره الطرق الطوال والأبواب الضيقة . كل هذه الخصال التى يحدثنا بها پول ڤاليرى عن صديقه وأثيره ديجاس قد حدثتنا بها القرون والأجيال عن أبى العلاء ، إلا أنّ الأول كان مصوراً رساماً والآخر كان شاعراً حكيماً .

وما قضيت العجب ، وما أظننى سأقضيه من توافق هذه المصادفات وتوارد هذه الخواطر ؛ ولولا أنى قد شهدت ذلك بنفسى وخضعت له وتأثرت به لما صدقته ولا اطمأنت نفسى إليه . وإنى لأعذر قارئًا إن شك فى صدق هذا الحديث وظن ، فيما بينه وبين نفسه أو فيما بينه وبين الناس، أنى قد قدّرت له ذلك تقديراً ، وموّهته عليه تمويهًا .

وما دمت أملى على كره منى . وعلى غير علم بما سأقول بعد حين وما سأدع ، فلا أقل من أن أستقصى أمر هذه المصادفة ما وسعنى استقصاؤه . فلم اصطحبت اللزوميات إلى فرنسا هذا العام ؟ ولم أهملتها شهراً لا أنظر فيها ولا أسمع لها ثم أقبلت عليها لا أنصرف عنها ولا أعدل بها شعراً ولا نثراً ؟

أما اصطحابى اللزوميات فمصدره يسير جدًّا . فقد ظهر فى هذا العام جزء من كتاب الفصول والغايات لأبى العلاء ، وقرئت علىّ منه صحف ، فخيل إلىّ أن من الجائز أن يكون بين هذا الكتاب وبين اللزوميات سبب قوى أو ضعيف فى الألفاظ أو فى المعانى . وكان صديقى الأستاذ ماسينيون قد افترض منذ ثلاثة أعوام أن بين أبى العلاء وبين الإسماعيلية صلة فى المذهب واشتراكًا فى الرأى . وكنت قد أكبرت ذلك وأنكرته ، واشتد فيه الحوار بين الأستاذ الصديق وبينى ، فوعدته أن أعود إلى قراءة اللزوميات من أولها إلى

آخرها لأعلم علم هذا الأمر. ولا مطمع بالطبع فى قراءة دقيقة متصلة لديوان ضخم كاللزوميات ومجلد ضخم كهذا الجزء الذى ظهر من الفصول والغايات فى أثناء العام الجامعى . فقلت لصاحبى حين أزمعت الرحلة : احمل لنا هذين الكتابين فلعل الله أن يتيح لنا من الوقت بعض ما يحتاج إليه تحقيق ما نريد تحقيقه .

وليس هذا كل شىء . فلم أكد أبلغ مدينة نابولى وأنفق فيها يوماً وبعض يوم حتى خرجت للتروض مع أسرتى على سواحل هذه المدينة . وبينما كانت زوجتى وابناى وصاحبى ينظرون إلى البحر والسماء وإلى الجزر والربى ، وإلى هذه المناظر الكثيرة المختلفة التى كانت تحدث لهم متعة وتطلق ألسنتهم بالإعجاب ، وتبهر نفوسهم وتسحر قلوبهم ، كنت أحس هذه الطبيعة التى لم أكن أراها ولا أتصورها ولا أعرف لها كنهاً تدنو منى قليلا قليلا ، ثم تنفذ إلى نفسى ، ثم تملأ قلبى رضاً وأملا وحباً للحياة . وبينما كانوا يتحدثون عما كانوا يرون ، ويتواصفون ما كانوا يشهدون ، كنت أنا أدير فى نفسى حواراً بينى وبين أبى العلاء موضوعه الرضا عن الحياة والسخط عليها والابتسام لها والضيق بها . وكنت أحدث أبا العلاء بأن تشاؤمه لا مصدر له فى حقيقة الأمر إلا العجز عن ذوق الحياة ، والقصور عن الشعور بما يمكن أن يكون فيها من جمال وبهجة ، ومن نعيم ولذة . وكان أبو العلاء يقول لى : فإنك

ترضى عما لا تعرف ، وتعجب بما لا ترى . وكنت أقول له : إن لم أعرف كل شىء فقد عرفت بعض الأشياء ، وإن لم أر الطبيعة فقد أحسستها . وكان أبو العلاء يقول لى : تبيَّنْ إن استطعت حقيقة ما تعرف ، فسترى معرفتك مشوهة ، ولائِمْ إن استطعت بين ما تحس من الطبيعة وما يرى الناس منها فلن تجد إلى هذه الملاءمة سبيلا ، واذكر ما أمليته على صاحبك منذ سبعة أعوام فى ذلك الدفتر الصغير الذى أهملته إهمالا ، وأبيت أن تسِرّ إليه بذات نفسك . اذكُر ما أمليته على صاحبك من أنك تعلم حق العلم أن لو ظهر المبصرون على ما تحصل نفسك من حقائق الأشياء ومظاهر الطبيعة لضحك منك الضاحكون ، وأشفق عليك المشفقون . فما ابتهاجك بصور لا تصور شيئًا ، وما رضاك عن خيالات ليس بينها وبين مظاهر الأشياء ، فضلا عن حقائقها ، سبب قريب أو بعيد ؟ وكنت أسأل أبا العلاء أيهما خير : أن تلمّ بنا أسباب النعمة قويةً أو ضعيفة ، صحيحة أو كاذبة ، فنتشبث بها ونشدّ بها أيدينا وأنفسنا ، ونأخذ ما تحمل إلينا من ألوان الرّاحة وضروب الأنس ، أم أن تَعْرِض لنا فنعرض عنها ، وتقبل علينا فنمتنع عليها ، ولا نحصّل من الحياة إلا ما حصّلتَ من خيبة الأمل وكذب الرجاء وظلمة اليأس وحرقة القنوط ؟ وكان أبو العلاء يجيبنى ببيته المشهور :

ولم أعرِضْ عن اللذّات إلا
لأنّ خيارَها عنى خنَسْنَه

وكنت أتهمه بالإسراف على نفسه وعلى الحياة ، وأصِمه بالكبرياء والغلو فيها ، وأدعوه إلى شيء من التواضع والاعتدال فى الرأى والسيرة جميعًا . وأزعم له أنه يصور لنفسه أمر الحياة على غير وجهه ، ويظن بلذات الحياة أكثر وأكبر مما ينبغى أن يظن بها ، وأنّ المبصرين الذين يرون ما لا نرى ، ويشهدون ما لا نشهد ، ويستمتعون من جمال الدنيا بما لا نستمتع به ، إنما يأخذون من أسباب هذا كله بأوهنها وأضعفها ، وأنهم لو حققوا ما يرون — وأنّى لهم ذلك ! — لما وجدوا بين ما يرتسم فى نفوسهم من الصور وبين الحقائق الواقعة إلا أيسر الأسباب وأبعدها من المتانة والقوة ، وعن الصدق والمطابقة . فحقائق الأشياء وجمال الطبيعة أبعد منالا مما يظن المبصرون وغير المبصرين . وما ينبغى للرجل الزاهد أن يستشعر الحسد ، وأن يضيق بما يجد الناس من نعمة ، وأن يسخط على الحياة لأنه لا يبلغ أعماقها ولا يصل إلى حقائقها ، وأن يسخط على الأحياء لأنه لا يشاركهم فى كل ما يستمتعون به وإنما يشاركهم فى قليل منه ويستأثرون من دونه بالكثير .

وكان الجو من حولى صافيًا مشرقًا عطراً ، ولم تكن الطبيعة تتحدث إلىّ بلسان واحد أو لغة واحدة ، وإنما كانت تتحدث

إلىّ بألسن مختلفة ولغات متباينة . كانت تتحدث إلىّ بعبيرها الذى كان يملأ الأرجاء ، وبطيرها التى كانت تستقبل الليل بأعذب النغم وأشجاه ، وبهذا الهدوء الشاحب الحزين الذى يلم بالحياة والأحياء إذا آذنت الشمس بالمغيب ؛ وبابتهاج الناس لما يجدون من جمال ، وبابتئاس الناس لما يشعرون به من حزن ، وبما يعلن الناس به ابتهاجهم وابتئاسهم من الأصوات والحركات ؛ ثم بكل هذه الحياة العاملة المنصرفة إلى تحقيق المنافع وإرضاء الحاجات غيرَ حافلة بجمال الطبيعة وما يثير فى النفوس من بهجة وغبطة ، وما يفيض عليها من حزن وأسى .

وكنت أسمع هذه الأحاديث كلها فأشتدّ على أبى العلاء فى اللوم وأعنف عليه فى العذل ، وأقول له : إن أيسر هذا خليق أن يرضيك مهما يبلغك مشوهـًا ممسوخـًا ، وإن شيئـًا خير من لا شىء ، وإنّ من الإثم أن تسمى الدنيا « أم دَفْر » وهى التى تهدى إليك هذا العبير ، وأن تصفها بالقسوة والغلظة وهى التى تمنحك هذه الرحمة وهذا اللين .

ويشتد علىّ هذا الحوار بينى وبين أبى العلاء حتى أبرم به وأفرّ منه ، وأطلب إلى من حولى أن يدعونى إليهم وأن يستنقذونى من هذه الحياة التى كنت أحياها فى القرن الرابع للهجرة أو العاشر للمسيح .

ثم أصبح فأزور مع أسرتى جزيرة كابرى ، وأشهد ما كان

يملؤهم من هذا الإعجاب الذى كان يخرجهم عن أطوارهم ، وأقنع أنا مما يجدون بما يبلغنى من رقة الهواء ونقاء الجو وصفائه ، وبما يحمله إلىّ النسيم من العرف ، وبما يلقى فى نفسى من أوصاف لا تحقق لها شيئاً ولكنها تثير فيها كثيراً من الخواطر والمعانى وضروب الخيال . وإذا الحوار يستأنف بين أبى العلاء وبينى متصلا عنيفاً مختلفةً ألوانه .

ثم أقضى على هذا النحو الأيام التى أنفقتها فى نابولى . فإذا تركت هذه المدينة شغلت عن الطبيعة وعن أبى العلاء بالسفر الطويل الشاق ، ولكنى لا أكاد أبلغ مدينة ستريزا وأستقر فيها ساعات حتى تبلغنى أحاديث الطبيعة حلوةً عذبة بين جبال شاهقة ، وأشجار باسقة ، وأرجاء عطرة ، ورقعة من الماء قد بسطت فى هذه البحيرة تريد أن تستقر وتثبت لولا أن النسيم يداعبها فيضطرب سطحها لهذه المداعبة اضطراباً خفيفاً يصدر عنه خرير فاتر خفيف ، ولولا أن الريح تعنف بها فتضطرب لهذا العنف من جميع أقطارها ، ويصدر عن هذا الاضطراب هدير صاخب عنيف .

وألـِمّ بهذه الجزر الناتئة فى هذه الرقعة من الماء فإذا أنا بين رجلين يدعونى أحدهما إلى زهد شاحب مظلم لأنى أشهد لذات الحياة ولا أكاد أحصّلها ، ويدعونى أحدهما الآخر إلى حياة كلها حس ومتعة ؛ لأن جمال الطبيعة ينفذ إلى نفسى من كل وجه . فأما

الأول فهو أبو العلاء وأما الثانى فهو أندريه جيد ؛ وإذا الحوار يتصل بينى وبين هذا الرجل أو ذاك ، أخلو مرة إلى ذاك فتضيق نفسى بكل شىء ، وأخلو مرة أخرى إلى هذا فتتسع نفسى لكل شىء ، وينقذنى من الرجلين جميعاً بين حين وحين حديث زوجى أو حديث ابنى أو حديث بعض الأصدقاء .

ثم أترك إيطاليا وفى نفسى من أبى العلاء شىء. فى نفسى أن أفرغ له ، وأن أطيل التحدث إليه والاستماع منه لأتبين أين يكون الحق : أفى سخطه وتشاؤمه أم فى رضاى وتفاؤلى ؟ ولكنى لم أكن أحدث نفسى بأن هذا الحوار سيخرج إلى كلام ينطلق به اللسان ويجرى به القلم وتمكسه الصحف .

على أنى لم أكد أبلغ فرنسا وأستقر فى قرية من قراها حتى أنسيت الحياة ولذاتها ، والطبيعة وجمالها ، وأبا العلاء وتشاؤمه ، وأندريه جيد وتفاؤله ، وشُغلت عن هذا كله بما لم يكن بدّ من الفراغ له من القراءة والإملاء . وأنفق فى ذلك شهراً ونحو شهر وإذا أنا أحس جهداً ثقيلا وألمًا ممضًّا وحاجة إلى الراحة والتسلية عن العمل العقلى . وما أكثر ما بين يدىّ من الكتب المختلفة ! وما أكثر ما يدعونى منها إلى اللذة والراحة وإلى السلو والنسيان ! منها كتب فى الأدب العربى المشرق الممتع ، ومنها كتب فى الأدب الفرنسى ، ومنها كتب فى الأدب الإنجليزى . والطبيعة من حولى

رائعة بارعة وجميلة مشرقة ، وكل ذلك يدعونى ويلح فى الدعاء ، وكل ذلك يغرينى ويلحف فى الإغراء ، ولكنى لا أسمع لشىء من ذلك ولا ألتفت إليه ولا أقف عنده ، وإنما أطلب إلى صاحبى أن يقرأ لى فى اللزوميات ، وأن يقرأ لى فيها من أولها . وصاحبي يفعل وأنا أستمع ، وإذا أنا بعد ساعات كأبى العلاء رهين سجون ثلاثة لا سجنين . أليس أبو العلاء يقول :

أرانى فى الثلاثة من سجونى
فلا تسألْ عن الخبر النبيث
لِفقْدِى ناظرِى ولزُومِ بيتى
وكوْن النفس فى الجسم الخبيث

وإذا تلك المعانى التى عرضتها عليك فى أول هذا الحديث تخطر لى وتلح علىّ وتخادعنى ، وتضطرنى آخر الأمر إلى ما أخذت فيه من إملاء .

أترانى أخذت فى هذا الحديث عن رضًا ؟ أترانى أخذت فيه عن كره ؟ لا أدرى ! ولكنى أعلم أن الليل قد تقدم ، وأن كل شىء من حولى هادئٌ مستقر حتى ما يبلغنى صوت ، ولا يصل إلىّ شىء من هذا الضجيج العنيف الذى يمتلئُ به أسفل الفندق . فقد سمعت حين انصرفت عن مائدة العشاء أن الشباب سيحيون بالرقص أول الليل . أعلم هذا ، وأعلّم أن نفسى قد ضاقت بالإملاء

وانصرفت عنه ، وأنى سأدع هذا الحديث الآن . ولن أهبط إلى غرفتى قبل أن أسمع قصيدة ، أو قصائد من اللزوميات . ومن يدرى أأستأنف هذا الحديث إذا كان الغد ، أم أصرف عنه لعمل آخر ، أم أطلب إلى صاحبى أن يصنع به ما يشاء ؟

٢

وما أريد أن أظلم أبا العلاء ، فأترجم له مرة أخرى ، فقد ترجمت له منذ ربع قرن ، وما أرانى أستطيع أن أعرض جديداً من أمره إن استأنفت درس حياته وعرضها على الناس . فقد ظهرت للرجل رسائل وكتب لم تكن بين أيدينا حين أمليت « تجديد ذكرى أبى العلاء » ، ولكن الغريب أنها لا تضيف إلى ما نعلم من حياته شيئاً ، ولعلها لا تضيف إلى ما نعلم من آرائه شيئاً . فأى خير إذن فى أن أعيد فى هذا الحديث ما بدأته فى ذكرى أبى العلاء ؟ وما يمنع الراغب فى درس حياته ، أو فى درس ما يعرف من حياته أن يلتمس هذا فى ذلك الكتاب القديم ، أو فيما نشر بعده من الكتب والرسائل ، ومن المقالات والفصول ؟

ولست أرى رأى پول ڤاليرى فى التراجم . ولست أهمل ما للتفصيلات التى تمس حياة الشعراء والأدباء والفلاسفة من خطر . ولعل صناعتى هى التى تقف بى عند هذا الطور ، وتكرهنى على أن أقدر التاريخ الأدبى بما فيه من تفصيل وإجمال ، كما أقدر التاريخ السياسى بما فيه من تفصيل وإجمال أيضاً . ولعل صناعة پول ڤاليرى هى التى ترفعه عن الاحتفال بالتاريخ مهما يكن

موضوعه . فپول ڤاليرى شاعر أديب بارع فى الشعر والأدب ، يتكلف التعليم منذ أنشئ له كرسى فى الكوليج دى فرانس ، فلا غرابة فى أن يرفعه فنه عن تفصيلات الحياة الإنسانية . وأنا معلم يتكلف الأدب الخالص حين يستريح من التعليم ، وحين يخلى بينه وبين الحياة ، فلا يجد ما يعمل إلا أن يشعر ويتأثر ، ويحاول أن يصور ما يجد من حس أو شعور . فلا غرابة فى أن تهبط بى صناعة التعليم إلى دقائق الحياة الإنسانية وتفصيلها .. ولكنى على ذلك أعترف بأن التاريخ الأدبى كالتاريخ السياسى يغلب فيه الظن ، ويكثر فيه الرجحان ، ويقل فيه اليقين . وما أدرى أمن إنصاف الناس أن نقول فيهم بالظن ، ونأخذ فى أمرهم بما نرجحه الآن ، وقد نشك فيه غداً ، أو بما نرجحه نحن وقد يجحده غيرنا أشد الجحد ، وينكره أشد الإنكار ؟ وماذا تريد أن أقول لك ، ونحن نقرأ أحيانًا ما يقول الناس فينا ، وما يظن الناس بنا فنضيق به أشد الضيق ، ونسخط عليه أعظم السخط ، لأننا لا نراه ملائمًا لما نعرفه من حقائق أنفسنا ، أو لأننا نراه ملائمًا لهذه الحقائق ، ولكننا نكره أن يُعرف ، وأن يقال ، وأن يذاع فى الناس .

وما أشك فى أن أبا العلاء قد كان مثلنا ، يجب أن يعرف الناس من أمره شيئًا ، ويكره أن يعرفوا من أمره أشياء أخرى . وقد احتاط الرجل لذلك ألوانًا من الاحتياط ، واتقاه بضروب من

التقية . فألغز وغلا فى الإلغاز ، واصطنع الاستعارة والمجاز ، ودار حول كثير من المعانى دورانًا ، ولم يرد أن يتعمقها فى شعره أو نثره مخافة أن يظهر الناس على رأيه ، وأن يعرفوا من أمره ما كان يحب أن يجهلوا ، ويطلعوا من سره على ما كان يؤثر أن يظلّ عليهم مستغلقًا ، ودونهم مكتوماً .

وأنا أعرف أن العلم يكلف أصحابه أهوالا ثقالا ، ويحملهم من بعض الأمر على ما لا يحبون أن يُحْمَلوا عليه ؛ فيضطرهم أحيانًا إلى هتك الأستار وفضح الأسرار ، وإظهار الناس من أمر بعضهم على ما لا ينبغى أن يظهروا عليه . تلك تضحيات يتكلفها العلماء فى سبيل الوصول إلى الحق ، لا يشبهها إلا ما يتكلفه أصحاب العلوم التجريبية من تعذيب الحيوان فى سبيل ما يبتغون من العلم الخالص ، أو من العلم الذى ينفع الناس فى حمايتهم من العلل والآفات .

أنا أعرف هذا ، وقد أقدمت على كثير منه حين درست من درسته من الشعراء والأدباء فى غير هذا الحديث . ولكن ما رأيك فى أنى أحب أبا العلاء وأريد أن أسير معه فى هذا الحديث سيرة الصديق الوفى الأمين فلا أسوؤه فى نفسه ولا فى رأيه ، ولا أذهب فيما سأعرض له من البحث مذهب أصحاب العلم الذين يضحجون بموضوع بحثهم فيخضعونه لألوان من التمحيص وضروب

من التحليل ، يحمّلونه من ذلك ما يطيق وما لا يطيق ، ويعرضونه من ذلك لما يحب وما لا يحب . أفلو كان أبوالعلاء حيًّا معاصراً وكنت له صديقًا معاشراً أتراني كنت أظهر من أمره ما يقتضي العلم إظهاره ، وأجهر من سره بما يفرض العلم على العلماء أن يجهروا به ، مضحيًا في سبيل ذلك بما يمكن أن يكلّف ذلك أبا العلاء من الحزن والألم ومن الخوف والفزع ومن الإشفاق والضيق ؟ أم تراني كنت أوثر ودّه وأرعى حقه فأحفظ عليه غيبه ولا أوذيه فيما لا يحب الناس أن يؤذوا فيه من خاصة أمورهم ؟ لأمر ما منع الناس أنفسهم من أن يتناولوا الأحياء من الأدباء بالبحث العلمي الدقيق والتحليل الذي لا يرهب شيئًا ولا يرجو لشيء وقاراً . منهم من يمنعه من ذلك خوف القانون الذي يحمي الأحياء من الأحياء ويكفّ شر الناس عن الناس ؛ ومنهم من يمنعه من ذلك قلب رقيق وحس دقيق وإيثار للعافية وإشفاق أن يصنع الناس به صنيعه بهم وأن يخضعوه لما يخضعهم له من التمحيص والتحليل ؛ ومنهم من يمنعه من ذلك مجرد الحب والرفق ، وهذا الشعور الممتاز الذي يرتفع بصاحبه عن إيذاء الناس فيما يكرهون أن يؤذوا فيه .

الناس يصطنعون هذا التحفظ مع الأحياء ولكنهم لا يصطنعونه مع الموتى ، وإنما يهدرون من أمر الموتى في سبيل البحث ما لا يستطيعون أن يهدروه من أمر الأحياء ؛ تبيح لهم القوانين ذلك ،

وتدعوهم طبيعة العلم وحرية البحث إليه . وليس عليهم بأس أن يخطئوا فيضطرهم الخطأ إلى الظلم ، لأن كل الناس يخطئ ويصيب ، ولأن الوصول إلى الصواب قلما يتأتى إلا بعد التورط فى الخطأ .

كل ذلك أعرفه ويعرفه الناس ، وقد اصطنعته حين درست أبا العلاء منذ ربع قرن . ولكنى مع ذلك أريد أن أعرض عنه فى هذا الحديث لأنى كما قدمت أحب أبا العلاء وأريد أن أتحدث عنه حديث الصديق . وأودّ لو استطعت أن أصدر فيما أملى عن القلب الذى يحب ويعطف ويرحم لا عن العقل الذى يمحص ويحلل ويقسو فى التمحيص والتحليل .

قد كنت أريد ذلك منذ اضطررت إلى الأخذ فى إملاء هذا الحديث ، ثم ثبّتنى على ما أريد بيت من شعر أبى العلاء وقفت عنده فأطلت الوقوف ، وفكرت فيه فأطلت التفكير ، وتأثرت به فكان تأثرى به قويًّا عميقًا ، وكان انتهائى إلى هذا البيت أثناء تفكيرى فى هذا الرفق مصادفة من المصادفات كما يقول پول ڤاليرى ، وقضاء من سالف الأقضية كما يقول أبو العلاء . وماذا تريد أن أصنع وعمل المصادفات فى هذا الحديث لا يريد أن ينقضى ؟ وهذا البيت هو قول رهين المحبسين :

لا تَظْلِمُوا الموتى وإنْ طالَ المدَى
إنى أخافُ عليكمُ أن تَلْتَقُوا

لست أدرى أتشعر كما أشعر وتجد من قراءة هذا البيت مثل ما أجد ؟ ولكن قلبى يمتلئ لإنشاده رحمة وبرًّا وحنانـًا وإشفاقـًا . أترى أبا العلاء فكر فى نفسه وفيما سيقول الناس فيه بعد موته ؟ أتراه أشفق من ظلم الناس له بعد موته كما ظلموه أثناء حياته ، ومن تجنى الناس عليه بعد ارتحاله عنهم كما تجنوا عليه حين كان مقيمـًا بين أظهرهم ؟ أم تراه لم يفكر فى نفسه ولم يحفل بما سيقول الناس فيه ، وإنما فكر فى غيره من الموتى وفيما كان الناس يقولون فيهم ويحملون عليهم ؟ أم تراه لم يفكر فى نفسه ولا فى غيره وإنما عرض له المعنى فسجله وصوّره فى هذا اللفظ الحلو الرقيق الذى لا يبلغ قلبـًا رحيمـًا رقيقـًا إلا أثر فيه لأنه صدر من قلب رحيم رقيق ؟

إذا قرأت اللزوميات فما أكثر ما ستجد فيها من ازدراء أبى العلاء لما سيقال عنه بعد الموت . وإذا قرأت اللزوميات فما أكثر ما ستجد فيها من قسوة أبى العلاء على الأحياء والأموات جميعـًا ! وإذن فهل تراه فكر فى نفسه أو هل تراه فكر فى غيره حين قال هذا البيت ؟ أو هل تراه فى لحظة من لحظاته قد أشفق على الموتى من حيث هم موتى ؟ تصور عجزهم عن أن يدفعوا عن أنفسهم ، وقصورهم عن أن يردّوا ما يصبّ عليهم من الظلم فرحمهم وأشفق عليهم لأنه كان رحيمـًا شفيقـًا . ولماذا يخاف أبو العلاء على الأحياء الذين يظلمون الموتى أن يلقوهم ؟ ماذا يخاف على الأحياء وماذا

يخاف من الأموات ؟ أتراه ينذر ويهدد ويخوف من الانتقام والبطش ، أم تراه ينبّه عاطفة الحياء ويشفق على الظالم أن يلقى المظلوم فيستحيي منه ؟ أم تراه لا ينذر ولا يخوف ولا ينبه عاطفة الحياء وإنما يشير إلى أن من الجائز ألا يكون الموت خاتمة للإنسان ، وأن يكون للنفس حظ من خلود ومن شعور بهذا الخلود ، وأن يكون من نتائج ذلك أن يلتقى الموتى فى عالم آخر كما كان الأحياء يلتقون فى هذه الدنيا ؟ وكما أن الناس فى هذه الدنيا يخوّفون من أن يظلم بعضهم بعضاً بالانتقام مرة وبتنبيه عاطفة الحياة فى أعماق الضمير مرة أخرى ، فليخوّف الموتى هذا الخوف المشترك بين الانتقام والحياء أيضاً ؛ فمن الناس من ينتصف إذا ظلم فيبطش بظالمه ، ومن الناس من يعجزه هذا الانتصاف فيستعدى الله على ظالمه والله شديد الانتقام . ومن الناس من يحلم فلا يبطش بظالمه ولا يستنزل عليه غضب الله وإنما يعفو ويكون من عفوه أقسى عقوبة للظالم وأعظم تنكيل به ، لأنه يؤذى منه عاطفة الحياء وهى أرق العواطف وأدقها حسّاً .

مهما يكن من شيء فإنى قد أطلت الوقوف عند هذا البيت ، وتصورت أنى لقيت أبا العلاء فى هذه الحياة أو فى حياة أخرى فآلمنى أن ألقاه ظالماً له متجنياً عليه ولو كان ذلك فى سبيل العلم واستكشاف الحق من أمره . وما تصورت أبا العلاء باطشاً بى

أو مُوعداً لى ، وإنما تصورته معرضًا عنى مشفقًا علىّ من ظلمى له وتجنّىّ عليه ، وتصورت نفسى معتذراً إليه ومستعطفًا له ؛ فكرهت أشد الكره أن أقف منه هذا الموقف وأن أكون منه بهذا المكان . والغريب أنى قد وعيت هذا البيت وفقهته كما ترى ، وتأثرت به أشد التأثر ، وقبلت وعظ أبى العلاء بالقياس إلى أبى العلاء نفسه ؛ ولكنى لم أقبله ، وما أرى أنى سأقبله ، بالقياس إلى غيره من الشعراء والكتّاب الذين عرضت لهم أو سأعرض لهم بالدرس والبحث فى يوم من الأيام ؛ إنى أتصور من شئت من الشعراء والكتّاب الذين ارتحلوا عن هذه الدار فى العصور القديمة أو فى هذا العصر الحديث ، وأتصور أنى أعرض لهم بالنقد، وأعرض لحياتهم الخاصة بالدرس ، وأقول فيهم ما لم يكونوا يحبون أن يقال فيهم ، وأظهر من أمرهم ما لم يكونوا يريدون أن يظهر من أمرهم ، ثم ألقاهم بعد ذلك فى هذه الدار أو فى دار أخرى فأجد منهم سخطًا على ما قلت فيهم ، وضيقًا بما أظهرت من أمرهم ؛ وقد يعرض لى بعضهم بالأذى ، وقد يكتفى بعضهم بالعتاب ، وقد ينالنى بعضهم بالعفو والإغضاء ، ولكن شيئًا من ذلك لا يهمنى ولا يخيفنى ولا يصرفنى عما يجب أن أقبل عليه من البحث ما دمت مطمئنًا إلى أنى لم أتعمد ظلمًا ولا تجنيًا ، ولم أقل إلا ما اعتقدت ، مصيبًا أو مخطئًا ، أنه الحق .

أتراني أشفق من لقاء المتنبي مثلا وقد قلت فيه ما قلت ، وأظهرت من أمره ما أظهرت ؟ أتراني أشفق أن ينالني الأذى من يده أو لسانه لأني لم أصدّقه فيما زعم لنفسه من هذه المفاخر أو تلك ، ولأني لم أرض من أخلاقه عن هذه الخصال أو تلك ، ولأني وقفت من نسبه موقف التردد والشك ؟ كلا ! لأني لم أصدر فيما قلت عن المتنبي إلا عن رأى رأيته بعد روية وتفكير ، وبعد تمهل وترجيح . فأنا لم أرد به شرًّا ، ولم أقترف فى ذاته ظلمًا . لم أرد أن أرضيه ، ولم أرد أن أسخطه ، وما يعنيني أن أرضيه أو أسخطه ، وإنما يعنيني أن أظهر وأظهر الناس من أمره على ما أرجح أنه الحق .

ولو قد كان المتنبي حيًّا لما حفلت من أمره إلا بما تفرض القوانين والمجاملة أن أحفل به . وقد سرت هذه السيرة نفسها مع بعض الشعراء الذين عاصرونا ثم انتقلوا عن هذه الدار إلى رحمة الله ورضوانه . واجهتهم بالنقد أحيانًا ولم أغير فيهم رأيي بعد أن قضوا . وما أدرى لعلى أن أكون لهم ظالمًا من حيث لا أريد الظلم ، وعليهم متجنيًا من حيث لا أريد التجنى ! وقد أوازن بين أبي تمام والبحترى فأرضى حتى أبلغ أقصى غايات الرضا ، وأسخط حتى أبلغ أقصى غايات السخط ، وأثنى وأعيب كما رضيت وكما سخطت ، وما يعنيني وما يخيفني أن يغضب الطائيان أو يرضيا ، وما يعنيني وما يخيفني أن يلقياني بالرضا والغضب فى هذه الحياة

أو فى تلك . ولا كذلك أمرى مع أبى العلاء ، فإنى أكره أن أقسو عليه ، راضياً أو كارهاً ، مخافة أن ألقاه فإذا هو متأذ بهذه القسوة لأنى أحبه كما قلت ، ولأنى أجد فيه من الرفق والرحمة ، ومن الحنان والإشفاق ، ومن البر والعطف بالناس وبالحيوان ما لا أجده عند غيره من الشعراء والفلاسفة إلا قليلا . وكيف تتصور القسوة على رجل كان يرحم النحل ويلحّ فى أن لا يشتار ما تجمع لنفسها! وكان يرحم الدجاج ويفزع إذا قدّمت إليه ويردّ الناس أشنع الرد عن إيذائها ؟ وكان يحاور الديك هذا الحوار الحلو الذى قد أقف عنده فى وقت من الأوقات ؛ وكان يترجم عن الضأن للناس فينبئهم بأنها تعذر عدوان الذئب عليها لأنه يقوم على العدوان من غير بصيرة وعقل ، ولا تعذر عدوانهم هم عليها لأنهم يُقْدِمون عن روية وتفكير ، وعن تعمد للقسوة وإصرار عليها ؟ وكيف تتصور القسوة على رجل ما أظن أحداً فهم عن ذوات الأطواق مثل ما فهم عنها ، وما أظن أحداً رحمها من عدوان الناس ، وعدوان سباع الطير ، وعدوان حوادث الأيام كما رحمها !

أبَنَاتِ الهديلِ أسْعِدْنَ أو عِدْ — نَ كثيرَ الهمومِ بالإسْعادِ

إيهِ للهِ درّكُنّ فأنْتُنّ — اللواتى يُحْسِنّ حِفْظَ الوِدادِ

وستقول : فإنك إن مضيت على هذا النحو لم تقدم إلينا كتاباً في البحث العلمي ولا في النقد الأدبي ، وإنما تتحدث إلينا عن صديق ؛ وهذا حق ، فإني لا أقدم إليك كتاباً في البحث العلمي ، عن أبي العلاء ، ولا في النقد الأدبي لأبي العلاء ، ولعلي قدّمت إليك من ذلك ما فيه مقنع ، وإنما أتحدث إليك عن صديق لا يُرْجَى نفعه ولا يُتّقَى شره ، ولا يصدر المتحدث عنه إلا عن الحب المبرّأ من الرّغب والرّهب ومن الطمع والإشفاق . أفتراك تكره مثل هذا الحديث ؟ ألم تسأم هذه الأحاديث الكثيرة التي تمتلئ بالبحث العلمي والنقد الأدبي والتي تكتب ابتغاء لرضا الأصدقاء واتقاءً لسخطهم ؟ ألم يجهدك هذا السفر المتصل في هذه الطريق الطويلة الملتوية طريق البحث العلمي والنقد الأدبي ؟ ألست في حاجة إلى أن تعرّج على هذه الواحة الخضراء لتستريح لحظة في ظل الحب النقي الكريم ؟

٣

وأنا شديد الإشفاق على أبي العلاء من نفسه قبل كل شيء وقبل كل إنسان . فلم يظلمه أحد قط كما ظلم نفسه ، ولم يكلفه أحد قط من الجهد والعناء ومن المشقة والمكروه مثل ما كلّف نفسه نحو خمسين عامـًا . ولم يفتنّ أبو العلاء في شيء كما افتن في ظلم نفسه وتحميلها ما تطيق وما لا تطيق وأخذها بالمكروه في حياتها العملية والعقلية أيضًا .

وأول ما ألاحظه من ظلم أبي العلاء نفسه اقتناعه بأنه سجين ، وامتناعه عن أن يرى لنفسه سجنـًا واحداً ، بل عن أن يرى لنفسه سجنين ، وإباؤه إلا أن تكون لها سجون ثلاثة يذكرها في البيتين اللذين رويتهما آنفـًا :

أراني في الثَّلاثَةِ مِنْ سُجُونى
فلا تسألْ عن الخبَرِ النَّبِيثِ
لِفَقْدِي نَاظِرِي ولزُوم بيتى
وكونِ النَّفْسِ في الجسْمِ الخبيثِ

فأنت ترى أن أبا العلاء لم يكتف بالسجن الذى فرضته الطبيعة عليه فرضًا حين أفقدته ناظره كما يقول ، وإنما فرض على

نفسه سجنين آخرين . أحدهما ظاهر محسّ يراه الناس جميعًا ويشهدون ما يمكن أن يأتى سجينه من الحزن اللاذع والألم الممض ، وهو هذا البيت الذى أقام فيه أبو العلاء لا يريمه ، وفرض على نفسه لزومه مهما تكن الظروف وطلب إلى أهل المعرة ألا يخرجوه منه حتّى حين يغير الروم على المدينة . والآخر سجن فلسفىّ تخيله كما يتخيل الشعراء ، واشتقه من حقائق الأشياء كما يفعل الفلاسفة . وما أكثر ما يلتقى الشعراء والفلاسفة فى موقف واحد يتفق فيه العقل والخيال جميعًا !

هذا السجن الخيالى الفلسفى هو الجسم الذى أكرهت النفس ، كما كان يتصور أبو العلاء ، وكما تصور الفلاسفة من قبله ومن بعده ، على أن تستقر فيه لا تتجاوزه ولا تتعدى حدوده إلا حين يقضى عليها الموت . وهى حينئذ تظفر بحرية لا تعرف كيف تقدرها ، ولا كيف تستمتع بلذاتها أثناء هذه الحياة ، لأن هذه الحرية مجهولة المدى ، مجهولة الموضوع ، يثير انتظارها فى النفس ألوانًا من الشك وضروبًا من الخوف وفنونًا من الهلع أحيانًا . فما مصير النفس بعد أن تفتح لها أبواب هذا السجن ، وتحط عنها قيوده وأغلاله ، ويخلّى بينها وبين الانطلاق ؟

لقد استراح المؤمنون الذين اطمأنوا إلى البعث ، بعث الأرواح وحدها أو بعثها مع الأجسام . اطمأنوا إلى أن حياتهم بعد الموت متصلة بحياتهم قبل الموت ، ومتأثرة بها ، ومؤدية لثمنها ، ومحتملة

لتبعاتها . اطمأنوا إلى أنهم مسؤولون بعد الموت عما قدّموا بين أيديهم قبله ، فهو يعلمهم نحواً من العلم إلى أين هم ذاهبون ، وإلى أى حال هم صائرون . ويثير هذا العلم فى نفوسهم كثيراً من الأمل وكثيراً من اليأس ، كثيراً من الأمن وكثيراً من الخوف ، ولكنهم على كل حال مطمئنون إلى شىء أساسى وهو أن خروج أنفسهم من هذا السجن لن يدفعها إلى المجهول المطلق الذى لا تعرف له أملا ولا حدّا ولا موضوعاً .

فأما الرجل الذى لم يطمئن إلى هذا الإيمان ، ولم يمتلىء به قلبه ، ولم تسكن إليه نفسه ، ولم يسترح إليه عقله ، وإنما هو مضطرب فى أمره أشد الاضطراب ، يؤمن مرة فيرجو أو يخاف ، وينكر مرة فيدركه اليأس والجزع ، ويضطرب بين الإيمان والإنكار فى كثير من الأحيان فإذا هو قلق لا يستقر على حال ؛ هذا الرجل معذب دائماً أشد العذاب ، إلا أن يفطر على التهاون والإعراض ، والاشتغال بعاجل الأمر عن آجله ، والانصراف إلى يومه عن غده ، وإلى التفكير فى حياته الدنيا ، والاستمتاع بها ، والاحتياط لها ، عن التفكير فى حياته الآخرة والإشفاق منها .

ولم يكن أبو العلاء من هذا التهاون فى شىء ، وإنما رفض حياته الدنيا رفضاً ، وصدّ عنها صدوداً ، ومنعها أن تحول بينه وبين التفكير ، وأن تحول بينه وبين ما يستتبعه التفكير من النتائج .

وأشق من ذلك أن هذا الرجل الذى كان قوى الخيال بعيد آماده ، كان فى الوقت نفسه قوى العقل عميقه ، قوى الإرادة عنيفها ، فلم يستطع الخيال قط أن يسيطر عليه أو يستأثر به ، وإنما وجد من العقل دائماً ما يحده ويردّه إلى التواضع والاعتدال . وما أكثر ما تأثر أبو العلاء بما كان يقرأ من الديانات فمالت نفسه إلى الإيمان بالبعث ! وما أكثر ما تأثر أبو العلاء بما كان يقرأ من كتب بعض الفلاسفة ، فمال إلى التصديق بخلود النفس ! ولكن ما كان أكثر ما يعرض العقل لهذا الميل فيمحوه محواً ، أو يضعفه إضعافاً شديداً ! . وأكبر الظن أنه حين كان يطمئن إلى خلود النفس لم يكن يطمئن إلى ما يزعمه الفلاسفة من تفصيل ما ستلقاه النفس الخالدة من سعادة أو شقاء ، كما أنه حين كان يطمئن إلى البعث ، لم يكن يطمئن إلى ما سيلقاه الناس بعد البعث من نعيم أو جحيم . فكان اطمئنانه إلى خلود النفس لا يزيده إلا شقاء ، لأنه يشرف به على هوة لا يعرف لها قراراً ، ولا علم له بما يضطرب فيها من خير وشر .

ولم يكن أبو العلاء يحرص على شىء كما كان يحرص على أن ينشر ميت من الموتى فينبئه وينبئ الناس بما وراء الموت . ومن قبله طُلب هذا إلى الأنبياء فلم يظفر طالبوه بشىء ، ولم يظفر أبو العلاء بما لم يظفر به غيره ، فظل فى حيرة كما كان الذين جحدوا البعث من قبله فى حيرة أيضاً . نستغفر الله ! بل إن أكثر الذين

جحدوا البعث من قبله ، لم يكن لهم عقله وذكاؤه ونفوذ بصيرته ، فلم يفكروا فى عاقبة ، ولم يشفقوا من مغبة ؛ وإنما قالوا هى حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . وما كان شىء أحبّ إلى أبى العلاء من أن يقول كما قالوا ؛ ولكنه لم يستطع أن يقوله لأن عقله كان يمنعه من ذلك ، ولأنه لم يكن قادراً على أن يتصور أن الناس خلقوا عبثًا ، أو تركوا سدًى . فلم يكن له بدّ إذن من أن يسأل نفسه ، ومن أن يسأل الناس ، ومن أن يسأل حيوان الأرض ، وجمادها ، وكواكب السماء ونجومها ، عما عسى أن يلقى الناس بعد أن تطلق نفوسهم من هذه السجون .

والذى كان يغيظ أبا العلاء إلى أقصى حدود الغيظ أنه كان يفكر ويستقصى ، فيرى أن نفسه سجينة فى جسمه بأدق معانى هذه الكلمة وأقساها ، قد أدخلت السجن مكرهةً ، وأخرجت منه مكرهةً ، لم تُسأل أتريد هذا الدخول أم ترفضه ، ولم تُستشر أترغب فى هذا الخروج أم تزهد فيه . بل هى لا تذكر أنها جنت قبل دخول هذا السجن من الإثم ما يضطرها إلى دخوله ولقاء العذاب فيه إن كان شرًّا . ولا تذكر أنها أتت من الصالحات بما يثيبها بدخوله والاستمتاع باللذات فيه إن كان خيراً . لا تعلم شيئًا عن ماضيها . فلم أدخلت هذا الجسم وأقرّت فيه ؟ ألتلقَى فيه عقابًا أو ثوابًا ؟ وفيم العقاب والثواب وهى لا تعرف أنها جنت شرًّا أو

أنت خيراً ؟ ثم هي مخرجة منه على كره منها ولا تعرف ما سيلقاها بعد هذا الخروج .

كل هذه الخواطر كانت تنغص على أبي العلاء حياته إذا خلا إلى نفسه وفكر في أمره . على أن هناك منغصات أخرى لم تكن أقل من هذه الخواطر إيذاءً لهذا الشاعر الحائر وهذا الفيلسوف البائس ، وهي منغصات الحياة نفسها . هي هذه الآلام التي يلقاها في السجن والتي يحسها ويشهدها ويستطيع أن يصورها تصوير عالم بها خاضع لها . هي هذا التناقض الهائل بين أمل النفس وطاقتها ، بين ما تريد وما تستطيع . يفكر أبو العلاء فلا يرى لتفكيره حداً ولا غاية . فإذا أراد العمل وجد نفسه مقيداً مغلولا ، ووجد قدرته على العمل ضئيلة لا قيمة لها . إن عقله يفكر في النجوم والكواكب ، ويتصور من أمرها الخطأ والصواب ، والممكن والمحال . ولكنه يريد أن يعرف من أمر هذه النجوم والكواكب أكثر مما عرف ، وأن يبلو حقائقها بلاء الملمّ بها ، المداخل لها القريب منها . فما له لا يبلغ القمر ، وما له لا يلمُّ بالمريخ ، وما له لا يبلو بنفسه أخبار المشترى ؟ وما هذا التناقض بين قوة العقل وتضاؤل القدرة ؟ بل في الأمر ما هو أعظم من هذا إيلاماً وأشدّ منه إيذاءً ، فقد تتواضع النفس وهي مضطرة إلى هذا التواضع ، فلا تطمع في أن تبلغ النجوم ولا تطمح إلى أن تزور الكواكب ،

ولكنها تطمع فى أن تحقق ما ترى أنه الخير ، وتجتنب ما ترى أنه الشر . ما ترى أنه الخير أو الشر فى حياتها القريبة جداً ، فى حياتها اليومية التى تحياها من لحظة إلى لحظة وتباشرها من آن إلى آن . وما لها لا تبلغ من ذلك شيئاً ، وما لها لا تقدر من ذلك على شىء ؟ وما بال هذه القوى التى لا تحصى قد تظاهرت وتناصرت على منعها من تحقيق ما تريد ، بل من محاولة ما تريد ؟ ما هذه الحرية المطلقة التى يستمتع العقل بها إذا فكر ، وما هذا العجز المطلق الذى يضطر العقل إليه إذا أراد أن يعمل أو يدفع إلى العمل ؟ ما هذه القوى الطبيعية التى تقوم دونه فتمنعه من أن ينزه الجسم عما تقتضيه غرائزه من هذه الأشياء الكريهة البغيضة التى لا يقدم عليها إلا كارهاً لها متبرماً بها ، مزدرياً نفسه لأنه مضطر إلى الإقدام عليها ؟ ما هذه القوى الاجتماعية التى تقوم دونه فتحد من حريته فى العمل وتحد من حريته فى القول ، وتضطره إلى العجز المطلق عن الصلاح والإصلاح ؟ جهل بما كان قبل دخول السجن ، وجهل بما هو كائن بعد الخروج من السجن ، وعجز عن إصلاح أمره وتدبيره كما يحب أثناء الإقامة فى السجن . وشر من هذا كله أنه قد يحب هذا السجن وقد يحرص على الإقامة فيه ، وقد يستمتع أثناء هذه الإقامة ببعض اللذات المادية أو المعنوية ، فلم لا يخلى بينه وبين هذا السجن يقيم فيه ماشاء ويخرج منه متى

أراد ؟ أو على أقل تقدير لم لا ينبأ بموعد مضروب وأجل محدود لهذا الخروج ؟ ولكنه يدخل على غير علم ولا إرادة ويخرج على غير علم ولا إرادة ، فهو فى خوف متصل وقلق دائم ، لا يدرى متى يفتح السادن عليه بابه ويقذفه من هذا السجن الذى ألفه إلى هذا الفضاء المجهول الذى لا يعلم من أمره شيئاً .

بل هناك ما هو شر من هذا وأشد إيلاماً . فلماذا منح السجين هذه القوة المفكرة المقدرة المريدة التى تأمل وتعجز عن تحقيق الأمل ، تريد وتقصر عن إنفاذ الإرادة ، وترى الخير ولكنها لا تجد إليه سبيلا ، وترى الشر ولكنها لا تجد منه مخرجاً ؟

فلو أنك اتخذت اللذة والألم مقياساً للسعادة ، وسلكت فى ذلك طريقاً مشبهة لطريق الفلاسفة ولكنها معاكسة لها معاكسة ظاهرة صريحة لانتهيت إلى نتيجة تملأ النفس يأساً وسخطاً . هؤلاء الفلاسفة يفاوتون بين الكائنات بمقدار حظها من الحس والشعور ، ومن اللذة والألم ، ومن التفكير والتقدير . وهم يجعلون الإنسان أرقى هذه الكائنات لأنه يشاركها فى الوجود ثم يشارك بعضها فى أنه جسم ، ثم يشارك بعضها فى أنه حى ؛ أى حسّاس شاعر ، ثم ينفرد منها جميعاً لأنه مفكر ناطق . وخذ طريقاً معاكسة لهذه الطريق ، فسترى الإنسان أشقى هذه الكائنات لأنه مفكر ، ولأن تفكيره يضطره إلى ألوان من الآلام وضروب من اليأس والقنوط لا يجدها كائن غيره . فهو

يضطره إلى الشك ، ويلبس الأمر عليه فيورطه فى الحيرة وآلامها ، وهو قد يبين له الخير ولكنه يبين له فى الوقت نفسه عجزه عن بلوغه ، وهو قد يبين له الشر ولكنه يبين له فى الوقت نفسه إغراقه فيه وعجزه عن الخلاص منه ، وهو قد يبين له السعادة ولكنه يبين له فى الوقت نفسه قصوره عن أن يبلغها كاملة وقصوره عن أن يحتفظ بأيسر ما يبلغه منها ، وهو قد يبين له الشقاء ، ولكنه يبين له فى الوقت نفسه اضطراره إليه ولزومه له وإخفاقه المحتوم كلما حاول أن يخلص من أقله وأيسره ، وهو قد يبين له اللذة المادية ، ولكنه يبين له فى الوقت نفسه أنه عاجز عن أن يبلغ خيرها وأكملها ، كما يبين له أن ما يحصّله من أيسرها وأهونها لا يكاد ينقضى حتى يعقبه من الآلام والحسرات ما يعدل أضعاف ما أصاب من نعيم ومتعة ، وهو قد يبين له الألم ، ولكنه يبين له فى الوقت نفسه أن أنواع هذا الألم لا تعد ، وأن ضروبها لا تحصى ، وأنه لا يخلص من بعضها إلا لتهجم به غرائزه الخاصة أو الأقدار التى لا يملك تصريفها ولا دفعها على ما هو شر منها وأمض وأسوأ عاقبة وأبلغ أثراً . فإذا تركت الإنسان إلى ما يرى الفلاسفة أنه دونه من الكائنات فسترى هذه الكائنات أحسن حظّاً من الإنسان لأنها قد سلبت هذا العقل ، وحرمت هذا التفكير . فالحيوان يألم ويشقى ، وهو يلذ ويسعد ، ولكنه لا يقدر الألم والشقاء واللذة والسعادة كما يقدرها الإنسان . والحيوان تتفاوت

أنواعه فيما بينها بمقدار ما أتيح لها من الحس والشعور وبمقدار ما أتيح لها من قوة الغرائز وضعفها . فكلما قوى حظ الحيوان من الحس والشعور والغرائز قوى حسه للألم وشعوره به وإشفاقه منه ، وقوى حرصه على اللذة وتتبعه لها وتوقعه إياها وألمه للعجز عن بلوغها والقصور عن تحصيلها . فإذا تجاوزت الحيوان إلى النبات فقد بلغت جنساً من الكائنات له حظ من حياة ولكنه ضئيل بالقياس إلى حظ الحيوان . وإذن فحظه من الألم لا يكاد يذكر ولعله لا يكون موجوداً . فإذا تركت النبات إلى ما هو أدنى منه رتبة وأحطّ منه طبقة عند الفلاسفة ، إلى الجماد الذى لا حظّ له من حياة ولا حظ له من حس ولا حظ له من إرادة ولا حظ له من تفكير ، فهناك السعادة العظمى التى لا ينغصها شقاء ، وهناك الراحة الكبرى التى لا يشوبها ألم . وإذن فلم مُنح هذا السجين حياته هذه القوية العنيفة التى تستتبع الحس والحركة والإرادة والتفكير ، وتستتبع بحكم ذلك الألم والبؤس والشقاء والحرمان الذى هو أصل الشقاء كله .

ومن هنا يتمنى أبو العلاء حين لا ينفع التمنى ، ويود حين لا ينفع الود ، ويبكى حين لا يجدى البكاء ، ويكون تمنيه ووده وبكاؤه مصدر شقاء وحسرات تضاف إلى ما هو فيه من شقاء وحسرات . فهو يغبط الحيوان لأنه لا يعرف الخير والشر ، ولا

يفكر فيما كان وما يكون ، ولا يرجو ولا يخاف . وهو مع ذلك يرثى له من الألم الذى يجده ، والشقاء الذى يشعر به ، والمكروه الذى يتعرض له . ولكنه يغبط الجماد إلى أبعد حد ممكن ، ويرسل أصواتًا تمتلىءُ بالحسرة واللوعة لأنه لم يظل جماداً كما كان فهو قد كان جماداً فى سالف الدهر :

والذى حارت البرية فيه
حيوانٌ مستحدثٌ من جماد

وهو صائرٌ إلى الجماد فى مستقبل الدهر :

خفف الوطء ما أظن أديم الا
أرض إلا من هذه الأجساد

فلم استُخرج من الجماد ليردّ إليه ؟ ولم هذه المحنة التى يمتحن بها فى هذا الطور من أطوار وجوده ؟ والذى يزيد الأمر إشكالا أى يجعله مصدراً من مصادر الألم العقلى الذى هو شر من الألم المادىّ ، أنه لا يدرى أصائر كله إلى الجماد بعد الموت ؟ وإذن فالمحنة موقوتة ، وهى من أجل ذلك محتملة هينة الأمر مهما تمتلىءُ بالمصائب والنوائب وبالكوارث والآلام . أم صائر بعضه وهو الجسم إلى الجماد كما كان ، وإذن فما مصير بعضه الآخر ؟ أين كان قبل أن تلمّ به هذه المحنة ، وإلى أين يمضى بعد أن تنجاب عنه هذه المحنة ؟ بل أهى منجابة عنه يومًا من الأيام ؟ أراجع هو

إلى حيث كان قبل المحنة فجاهل نفسه كما كان يجهلها من قبل ؟ وإذن فلم تكن المحنة إلا حلماً ، ولكنه حلم معاكس لما ألفه الناس من معنى الحلم . فالحلم عند الناس يقظة تخيّل إلى النائم فإذا استيقظ لم يجدها شيئاً . ولكن هذا الحلم العلائى يقظة تخيّل إلى المعدوم فإذا أفاق منها لم يشعر بها ، بل لم يذكرها ولم يجد لها تعبيراً ، بل لم يشعر بنفسه فضلا عن أن يشعر بما ألمّ بها من الأحداث . أم ماض هو فى هذه المحنة فشاعر بنفسه شعوراً متصلا خالداً ، وإذن فالمحنة باقية لم تنقض ؟ ! وما عسى أن يكون نوع هذه المحنة بعد الموت ؟ أهو من نوعها قبل الموت ؟ وإذن ففيم الموت وآلامه ؟ وفيم هذه الحسرات التى تمتلئ بها النفس لأنها تتوقع الموت وآلامه ؟ أم هو من نوع جديد لم نعرفه ولم نذقه أثناء هذه الحياة ؟ وإذن فما عسى أن يكون هذا النوع الجديد ؟ أهو خير مما ألفنا ، أم هو شر مما ألفنا ؟

وكذلك أنفق أبو العلاء نصف قرن من حياته يواجه هذه الخواطر إذا أصبح ، ويواجهها إذا أمسى ، ويواجهها فى أثناء الليل إن أبطأ عليه النوم ، ولعله يواجهها فى أثناء النوم إن صورتها له الأحلام . وقد وجد أجوبة مختلفة عن هذه الأسئلة . وجد أجوبة الديانات ، ووجد أجوبة الفلسفة . وكان خليقاً أن يطمئن إلى هذه الأجوبة أو تلك فيريح ويستريح ، ولكن هذا الاطمئنان

لم يقدّر له . فهو يستريح إلى ما جاءت به الأديان ، ويهيئ نفسه للبعث ، ويجتهد ما استطاع فى تحصيل الخير وتحقيق العمل الصالح . ولكن عقله لا يلبث أن يصور له الأمور مناقضةً لما اطمأن إليه . فما بال الإنسان يخصّ بالبعث وما يستتبعه البعث من ألم أو لذة ومن جحيم أو نعيم ؟ ألأنه عاقل وهو من أجل ذلك مكلف ؟ ولكن ما بال الإنسان خص بالعقل وما باله خص بالتكليف ؟ وإذن فقد ذهبت عن المسكين طمأنينته وخاب كل ما كان قد عقد بها من أمل .

وتارة يطمئن إلى بعض مذاهب الفلاسفة فيرى خلود النفس ، ولكنه يريد أن يعرف ما عسى أن تصنع النفس ، وما عسى أن تلقى أثناء هذا الخلود فلا يجد جوابًا . فيعود إلى الحيرة والشك وما يستتبعان من الألم والشقاء . وقد يتحدث إليه بعض الأجيال بالتناسخ وما تلقى النفس فيه من فنون الرضا والسخط وألوان الرفعة والضعة ، ولكنه لا يحفل بذلك ولا يقف عنده . يراه سخفًا وعبثًا ، ويسخر من الذين يجدون فيه غناء ومقنعًا . والذى يزيد الأمر مشقة وجهداً ، ويجعله حريًا بإثارة اليأس والدفع إلى القنوط هو أن أبا العلاء قد هداه عقله إلى أن لهذا العالم خالقًا ، وإلى أن هذا الخالق حكيم . لا يشك[1] فى ذلك ، أو على الأقل لا يظهر فيه شكًا ، وإنما

(١) أثبت لى خالقاً حكيماً ولست من معشر نفاة

تمتلئ به اللزوميات ولا تكاد تخلو منه قصيدة من قصائدها أو مقطوعة من مقطوعاتها . وهو إذا تحدّث عن هذا الخالق الحكيم تحدث عنه فى لهجة صادقة يظهر فيها الإخلاص واضحاً جلياً . ولكنه عاجز عن فهم هذه الحكمة التى يمتاز بها هذا الخالق الحكيم . وعجزه عن فهم هذه الحكمة هو الذى يُضنيه ويعنّيه ويعذبه فى نفسه أشدّ العذاب . خالق حكيم ، خلق هذا العالم ورتبه على هذا النحو الذى رتبه عليه . ولكن لماذا وما بال هذا الخالق الحكيم الذى منحنا هذا العقل وهدانا إلى التفكير لم يكشف لنا القناع كله أو بعضه عن وجه هذه الحكمة التى لا نشك فيها ولا نرتاب ؟ لقد قالت الديانات[1] لأبى العلاء أشياء كثيرة ولكنها فيما بينها مختلفة أشدّ الاختلاف متناقضة أشدّ التناقض . فلأيها يسمع وبأيها يؤمن ؟ حيرة جديدة أهون من تلك الحيرة التى صورناها آنفاً . وهى تثير فى نفس أبى العلاء كثيراً من السخرية التى تظهر هنا وهناك صريحة مرة[2]

---

(١) دين و كفر وأنباء تقص وفر ... قان ينص وتوراة وإنجيل
فى كل جيل أباطيل يدان بها ... فهل تفرد يوماً بالهدى جيل؟
ومن أتاه سجل السعد عن قدر ... عال فليس له بالخلد تسجيل

(٢) يخبرونك عن رب العلا كذباً ... وما درى بشؤون الله إنسان
و بالقضاء لآساد الشرى لجم ... وللوحوش بإذن الله أرسان
فألسنونى أبين مشكلاتكم ... أم ليس فيكم لأهل الحق إلسان
هل تسمعون فإنى فارس أربى ... من الفراسة إذ للحرب فرسان
ما كان فى هذه الدنيا أخو رشد ... ولايكون ولا فى الدهر إحسان

وخفية مرة[١] أخرى ، ولكنها على كل حال لا تخلو من الألم ومن الألم اللاذع الممض أحيانـًا .

ومصدر الشقاء المتصل الذى ألحّ على أبي العلاء نحو خمسين سنة من عمره هو أن الله لم يهده إلى الإيمان بالنبوات[٢] . لم يؤمن بها ولكنه فى الوقت نفسه لم يقطع برفضها كلها . وإنما كان يسأل نفسه بين حين وحين : من يدرى ؟ لعل بعض هذه النبوات حق ، ولعل بعض ما جاءت به أن يكون صحيحـًا . وإذن فويل لى إن صحّ ما جاءت به[٣] ولم ألائم بينه وبين سيرته العملية . ولكن أى سيرة عملية ، وكيف تكون الملاءمة بين سيرتى وبين هذه النبوات المختلفة ؟ أأسير سيرة اليهود ؟ فإنى أعيب عليهم كثيراً من أعمالهم

(١) أدين برب واحد وتجنب ... قبيح المساعى حين يظلم دائن
لعمرى لقد خادعت نفسى برهة ... وصدقت فى أشياء من هو مائن
وخانتنى الدنيا مراراً وإنما ... يجهز بالذم الغوانى الخوائن
أعلل بالآمال قلباً مضللا ... كأنى لم أشعر بأنى حائن
يحدثنا عما يكون منجم ... ولم يدر إلا الله ماهو كائن

(٢) إن الشرائع ألقت بيننا إحنـاً ... وأودعتنا أفانين العداوات
وهل أبيحت نساء الروم عن عرض ... للعرب إلا بأحكام النبوات ؟

(٣) قال المنجم والطبيب كلاهما ... لاتحشر الأجساد قلت : إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولى فالخسار عليكما
طهرت ثوبى للصلاة وقبله ... طهر فأين الطهر من جسديكما ؟
وذكرت ربى فى الضمائر مؤنساً ... خلدى بذاك فأوحشا خلديكما

وأقوالهم . أأسير سيرة النصارى ؟ فإنى أعيب عليهم كثيراً من أقوالهم وأعمالهم ، أأسير سيرة المسلمين ؟ فإنى أعيب عليهم كثيراً من أقوالهم وأعمالهم أيضاً . أم أسير سيرة أهل الهند ؟ أم أسير سيرة الفرس — فما أكثر ما أعيب على أولئك وهؤلاء[١] من الأقوال والأعمال . ومع ذلك فماذا أصنع إن صح ما تنبئنا به هذه الديانة أو تلك ؟

أرأيت إلى هذه الحيرة المتصلة[٢] التى لا يهتدى فيها عقل ولا تستطيع أن تستقر فيها نفس ، والتى لا يعرف لها مدى تنتهى إليه من أى ناحية من نواحيها ؟ ثم أرأيت إلى هذا الرجل النحيل الضئيل العاجز الضعيف قد دفع إليها دفعاً ، وألقى فيها إلقاء ، ثم لم يجد منها مخرجاً ولم يتبين فيها طريقاً ؟ ثم أرأيت إليه حائراً ضالاً فى هذه الحيرة ، شاعراً أقوى الشعور وأشدّه بما هو فيه من جور عن القصد وضلال عن الصراط المستقيم ، سائلا نفسه فى غير طائل ، سائلا الناس فى غير غناء ، سائلا نجوم السماء وحيوان الأرض وجمادها دون أن يظفر منها كلها إلا بجواب واحد واضح كل الوضوح جلى كل الجلاء ، ولكنه غير مقنع وهو أن لهذا العالم خالقاً حكيماً ؟ ولكن ما كنه حكمته وما غايتها وكيف نلائم بينها

---

(١) اللزوميات مملوءة بالنعى على هذه الفرق كلها . فن الإطالة الاستشهاد على ذلك ؛ وفيما رويناه آنفاً مقنع .

(٢) وبصير الأقوام مثلى أعمى   فهلموا فى حندس نتصادم

وبين سيرتنا ؟ وكيف نلائم بينها وبين آرائنا ؟ وكيف نلائم بينها وبين أقوالنا ؟ هذه هى الأسئلة التى لم يظفر لها بجواب من الناس ، ولا من كواكب السماء ونجومها ، ولا من حيوان الأرض وجمادها .

وأظن أن العلة الحقيقية التى شقى بها أبو العلاء خمسين عاماً إنما هى الكبرياء . الكبرياء التى دفعته إلى محاولة ما لا يطيق وإلى الطمع فيما لا مطمع فيه ، وإلى الطموح إلى ما لا مطمح إليه . أسرف أبو العلاء فى الإيمان بعقله ، وأسرف أبو العلاء فى الثقة بهذا العقل ، ورفض كل شيء سواه[1]. فالعقل مهما يكن جوهره ومهما تكن طبيعته إنسانىّ أى محدود . محدود الطاقة محدود المعرفة كغيره من ملكات الإنسان . فالغريب أن يتخذ العقل المحدود سبيلا إلى ما لا حدّ له ، وأن تتخذ هذه الآلة القاصرة المتواضعة سبيلا إلى بلوغ ما لا تستطيع بلوغه . والغريب أن يشعر أبو العلاء بأنه لا يستطيع أن يرقى إلى النجوم بجسمه وبأنه من الحمق أن يتكلف هذا الرقى :

وكيف صعودى إلى الثُّـ ريا بلا سُـلَّمِ

وأن يشعر أنه لا يستطيع أن يبلغ بعقله كنه هذه الحكمة العليا التى

---

(١) يرتجى الناس أن يقوم إمام ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذلك الظن لا إمام سوى العقـ ـل مشيراً فى صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحـ ـمة عند المسير والإرساء

امتاز بها الخالق الحكيم . ولكنه مع ذلك ينفق حياته مجاهداً فى استكشاف هذه الحكمة والوصول إلى أسرارها . ما باله لا يحاول الرقى إلى الثريا ما دام لم يجد إليها سلماً، ثم يحاول الرقى إلى حكمة الله مع أنه لم يجد إليها سلماً ؟ ما مصدر هذا التناقض الذى جرّ على أبى العلاء وعلى أمثاله ما صبّ عليهم فى حياتهم من شقاء . مصدره فيما أعتقد هذا الغرور الذى يخيل إلينا أن العقل ليس شيئاً إنسانياً ، وإنما هو جوهر ممتاز قد أهبط إلى هذا الجسم فأقام فيه ضيفاً ، فهو إذن ممتاز فى جوهره من الجسم ، قادر على ما لا يقدر الجسم عليه . فإذا عجز الجسم عن أن يرقى إلى النجم بلا سلم فلن يعجز العقل عن أن يرقى إلى السماء بلا سلم . أليست الفلسفة قد زعمت لنا ، ولم تنكر عليها الديانات ما زعمت ، أن العقل قبس هبط من الملأ الأعلى وهو عائد إليه ؟ وما دام العقل قد هبط من الملأ الأعلى فما يمنعه أن يتصل به أثناء هذه الحياة ؟ وقد زعم بعض الفلاسفة وزعم بعض المتصوفة أن العقل يتصل بالملأ الأعلى أثناء الحياة بين حين وحين . وزعموا أنهم قد جربوا ذلك وشهدوا ما لم يشهده غيرهم من الناس ، فما بال أبى العلاء لا يحاول أن يتصل بهذا الملأ الأعلى ليعرف كنهه ويبلو أسراره ؟ وما باله لا ييأس أشدّ اليأس ولا يسخط أعظم السخط إذا لم يبلغ من ذلك ما أراد ؟ وما باله إذن لا يكذب أولئك الفلاسفة وهؤلاء المتصوفة

ولا يسخر منهم ، ومما يزعمون لأنفسهم من التفوق والامتياز ؟ الكبرياء إذن هي مصدر المحنة العلائية . وهذه الكبرياء جاءته من تصوره للعقل وغلوه في الإكبار من أمره[1]. ولو قد تواضع أبوالعلاء في حياته العقلية الفلسفية كما تواضع في سيرته العملية ، ولو قد عرف أبوالعلاء لعقله حده ووقف به عند طاقته كما عرف لجسمه حده وكما وقف بجسمه عند طاقته ، لجُنِّبَ من هذه المحنة شرًّا كثيراً ، ولاستراح من عذاب أليم ، لا نتصوره لأننا لا نعاني ما عاناه أبوالعلاء من جهد ، ولا نسمو إلى ما سما إليه أبوالعلاء من غاية . لو فعل لاستراح وأراح . هذا حق ، ولكن نحن ما خطبنا ؟ أكنا نظفر باللزوميات وبما نجد في قراءتها من هذا المتاع العقلي المؤلم المر الذي نحبه ونستعذبه برغم ما فيه من ألم ومرارة ؟

---

(١) أيها الغر إن خصصت بعقل فاسألنه فكل عقل نبي

٤

أقام أبو العلاء فى سجنه الفلسفى هذا نحو خمسين عامًا ، أو استكشف ذات يوم أثناء إقامته ببغداد[١] أو أثناء عودته منها أو بعد أن استقر فى المعرة أنه مقيم فى هذا السجن منذ رشد وبَلاَ لذات التفكير وآلامه . فجعل منذ استكشف سجنه الفلسفى هذا يبلوه من جميع نواحيه ويختبره على أى موضع من أوضاعه ، ولا يرى من هذا البلاء والاختبار إلا شرًّا متصلا وألمـًا مقيماً . وقد كان يدركه التعب ويبلغ منه الإعياء فيستسلم إلى القنوط ويستريح إلى اليأس حينـًا ، ثم لا يلبث أن يسترد رجاءه أو قل أن يسترد نشاطه ، فيستأنف البحث والدرس ويعاود الابتلاء والاختبار ويحاول الصعود بعقله إلى السماء فيرد عنها مدحوراً . وربما أتيح لأبى العلاء بين حين وحين شىء من التواضع فاستراح إلى ما يستريح إليه غيره من الناس ، وعرف قدر نفسه أو قل قدر عقله وأمـّل فى روح الله ورحمته . وكان مثله فى ذلك مثل الرجل الذى دفع إلى سفر

(١) بل ينبئنا أبو العلاء فى الفصول والغايات بأنه استيأس من الخير وبدأ سيرته الفلسفية حين أتم الثلاثين أى قبل سفره إلى بغداد بأعوام . ولعلى أن أعود إلى هذا الحديث . (الفصول والغايات ص ٢٧٩) .

غير قاصد فى طريق طويلة طويلة لا ينتهى طولها ، عسيرة عسيرة لا يسهل عسرها ، قد سلطت عليها الشمس أشعتها الملتهبة المحرقة فضرمت من حوله كل شىء ، وجعلت الأرض التى يمشى عليها ناراً لا يطاق مسها ، والهواء الذى يتنفسه جحيماً لا يطاق تنسمه . وهو مع ذلك مدفوع مدفوع لا يستطيع أن يرجع أدراجه لأن من ورائه قوة لا تنى عن دفعه ، ولا يستطيع أن يقوم فى مكانه ليستريح ، لأن هذه القوة تدفعه دائماً ، ولأنه لا يجد الراحة فى أى مكان يلم به . نار مهلكة تأخذه من كل وجه ، وقوة عنيفة تدفعه إلى أمام ، وأمل ضئيل نحيل يسبقه شيئاً ثم يقف له ويدعوه إلى نفسه حتى إذا دنا منه أو خيل إليه أنه دنا منه وثب هذا الأمل الضئيل النحيل وثبة أو وثبتين ، ثم وقف لهذا المسافر المسكين يدعوه إلى نفسه مغرياً له ملحاً عليه . وإنه لفى هذا السفر المتصل والعذاب الأليم ، وإذا شجرات خضر قد بدون له مورقات مزهرات لهن ظل رطب مريح ، يجرى بينهن غدير من ماء عذب صاف بارد ينقع الغلة ، ويشفى الظمأ فيسرع المسكين إلى هذه الشجرات فيستظل بظلها حيناً ، ويشعر بشىء من النعيم لحظة ، وينشد فى نغمة حزينة ، ولكن فيها اطمئناناً لا يخلو من قلق ، هذه الأبيات :

صنوفُ هذه الحياة يجمعها

طولُ انتباهٍ ورقدة وسِنَه

دنياكَ لــو حاورتك ناطقــةٌ
خاطبتَ منها بليغةً لَسِنَهْ
ليفعلِ الدهر ما يهمُّ به
إن ظنونى بخــالقى حسنه
لا تيأسُ النفسُ من تفضّله
ولو أقامتْ فى النار ألفَ سنه

وما يوئسها من فضل الله عليها ورحمته لها ورفقه بها وقد طالت عليها الطريق حتى ظنت أنها لن تنقضى ، وثقل عليها الجهد حتى ظنت أن لن تنهض به ، وإذا هذه الشجرات الخضر ترفع لها فتأوى إليها وتجد فى ظلها الراحة والنعيم . ويدعو هذا التفكير مسافرنا البائس إلى أن يروِّئ فى أمره ويستعرض سيرته ، وإذا هو يلوم نفسه على غرورها ويعاتبها على اقتحامها ما اقتحمت من هول وتجشمها ما تجشمت من سفر ، وعلى إسرافها فى محاولة ما لا ينبغى أن يحاول لأن الوصول إليه لم يقدّر للناس . وإذا هو يستأنف الإنشاد فى نغمة حزينة مطمئنة إلى اليأس راضية به مستريحة إليه ، وإذا إنشاده يوشك أن يكون غناء ، وإذا نحن نسمع منه هذه الأبيات :

منُونَ رجالٌ خبَّرونا عن البلى
وعادُوا إلينا بعد ريب منونِ

بنونَ كآباء ولمْ يرْح الردَى
بصبّ على عِلاّته وبنــون
دفناهمَ فى الأرض دفنَ تيقن
ولا علم بالأرواح غير ظنــون
ورَوْمُ الفتى ما قد طوَى الله علمهُ
يُعَد جنونًا أو شبيهَ جنون

نعم جنون أو كالجنون أن تحاول علم ما طوى علمه عن الناس ، وأن تتكلف فى ذلك ما تكلفت من شقة وجهد ؛ فثق بحكمة الله واركن إليها ، واسترح إلى هذا الظل الظليل والنسيم العليل والماء العذب الصافى الذى تجد فيه شفاء من هذا الحر المهلك الذى اصطليت ناره دهراً طويلا .

ولكن العقل الإنسانى مضطرب لا يعرف الاستقرار ، ساخط لا يعرف الرضا ، ثائر لا يعرف الإذعان ، طامع لا يعرف القناعة ، متكبر لا يعرف التواضع . وما كاد صاحبنا يستريح ويستقر حتى أخذ عقله يضطرب ، وما كاد صاحبنا يهدأ حتى أخذ عقله يثور . وكأن القوة التى كانت تدفعه منذ حين إنما تخلفت عنه لحظات لا لتريحه بل لتخيل إليه الراحة . وكأن الأمل الذى كان يسبقه ويتراءى له إنما استخفى عنه ساعة لا ليؤمنه ، بل ليخيل إليه الأمن . وإذا القوة الدافعة قد أقبلت من ورائه ، وإذا الأمل المغرى قد

قام أمامه غير بعيد ، تلك تدفعه وهذا يدعوه ، وعقله مشفق من تلك راغب فى هذا ،وإذا هو يثيره من مكمنه ويخرجه من مأمنه . وما هى إلا لحظات حتى تستخفى الشجرات الخضر والنسيم العليل والغدير العذب ، وإذا صاحبنا فى جحيمه القديم تأخذه النار من جميع أقطاره ، تدفعه تلك القوة العنيفة ويدعوه الأمل الخلاب ، وقد جرّدت ثورة عقله لنفسه تلك الآلام العنيفة المتصلة التى لم يسترح منها إلا قليلا .

ولكن ما الذى أشعر أبا العلاء بهذا السجن الفلسفى ؟ وما الذى أنبأه بأنه سجين ؟ وما الذى كشف له عما يحيط به فى هذا السجن من الحسرات والغمرات ومن الآلام والأحزان؟ وهو من غير شك سجن من سجونه الثلاثة . هو سجنه الطبيعى أو سجنه الفسيولوجى إن صح هذا التعبير. هو هذه الآفة التى ألمت به فى أول عهده بالحياة فذهبت ببصره وألقت بينه وبين النور حجابًا كثيفًا .

والصلة بين هذين السجنين من سجون أبى العلاء لا تخلو من غرابة تدعو إلى كثير من الرحمة والإشفاق . فقدْ فقدَ أبو العلاء بصره صبيًّا واستقبل الحياة غير مستمتع بهذه الملكة التى ترسم فى نفس الأحياء من الحياة صوراً لا عهد له بها . ومع ذلك فقد جاوز الصبا وتقدمت به السن إلى الشباب، وتقدم به الشباب إلى الكهولة دون أن ينكر من أمر الوجود شيئًا ذا خطر أو دون أن يشتد إنكاره لأمر من الأمور.

وما من شك فى أنه قد أحس منذ أول عهده بهذه المحنة الطبيعية فرقاً عظيماً بينه وبين أترابه . وما من شك فى أن إحساسه هذا الفرق قد آلمه وآذاه وأسبغ على نفسه شيئاً من الكآبة المتصلة القائمة ، واضطره إلى كثير من التحرج والتحفظ والاحتياط فى سيرته العملية . ولكن ما من شك فى أنه قد قهر هذا كله وظهر عليه وقتاً طويلا من حياته . فقد اجتهد فى أن يسير سيرة غيره من الناس ، واجتهد أهله فى أن يهيئوه لهذه السيرة ما وسعهم ذلك . علموه صبياً وأعانوه على طلب العلم وتعمقه شاباً . ولعله قد بذل فى سبيل ذلك ما لا يبذله كثير من المبصرين فضلا عن المكفوفين . فهو قد ارتحل إلى حلب وأنطاكية وألمّ باللاذقية ، ولعله أن يكون قد ألمّ بطرابلس . وهو قد سمع من شيوخ المسلمين ورهبان النصارى وقرأ فى كتب أولئك وهؤلاء ، وتعمق فى درس الديانات ، وفرغ بنحو خاص لإتقان اللغة وعلومها وللأخذ بحظ عظيم من البراعة الأدبية . ولم يبلغ العشرين من عمره حتى كان نضجه العلمى قد تم ، وحتى استطاع أن يقول بعد ذلك إنه لم يحتج بعد هذه السن إلى أن يجلس من أحد مجلس الطالب من الأستاذ .

وقد فقد أباه فى الرابعة عشرة من عمره فحزن لفقده حزناً شديداً من غير شك . ولكن هذه الفاجعة لم تفتّ فى عضده ولم تفلّ من حدّه ولم تقعد به عن الرحلة ولم تصرفه عن الأسفار .

ولما ألمّ من دور العلم فى الشام بما كان يستطيع أن يلم به وأخذ منها ما كان يستطيع أن يأخذه ، عاد إلى المعرة فاستقر فيها وادعًا مطمئنًا ، يعاشر الناس ويخالطهم ويشاركهم فى خطوب الحياة ، ويعكف على ما كان يعنيه من العلم والأدب فينمى حظه منه ومشاركته فيه . ومع أننا نجهل تفصيل حياته فى المعرة كما نجهل تفصيل حياة أمثاله من الشعراء والفلاسفة القدماء ، فليس من شك فى أن حياته مرّت هادئة وادعة لا عنف فيها ولا اضطراب ، ثم نيّف على الثلاثين فهمّ برحلة طويلة شاقة إلى بغداد ، وأشفقت عليه أمه من هذه الرحلة فحاولت صرفه عنها ولكنها لم تفلح ، ومضى أبو العلاء فى إتمام ما عزم عليه فانتهى إلى بغداد بعد خطوب امتحن فيها صبره وجلده واحتماله وذكاءه أيضًا . وأقام فى بغداد عامًا ونصف عام فعرف من أمرها ما كان يحب أن يعرف ، وبلا من أهلها ما كان يحب أن يبلو ، وحصّل من علمها ما كان يريد أن يحصل ، وظفر فيها من الشهرة وبعد الصيت بما كان يحب أن يظفر به . ولو استطاع لأنفق فيها بقية عمره كما يقول فى بعض شعره ، ولكنه لم يستطع لأن أمه مرضت ، ولأن الثروة لم تواته ، فعاد إلى المعرة وقد استكشف هذا السجن الفلسفى واضطر بحكم هذا الاستكشاف نفسه إلى أن ينشئ لنفسه سجنًا ماديًّا ثالثًا هو بيته الذى أقام فيه حتى مات .

فأنت ترى أنه قد حاول فى أثناء الصبا وفى أثناء الشباب وفى أول عهده بالكهولة أن يعيش عيشة غيره من الناس، وأن يقهر المصاعب التى كان يثيرها أمامه فقد بصره. وظفر بقهر هذه المصاعب فى أكثر الأحيان ، وكان خليقاً أن يمضى فى سيرته هذه بعد الأربعين كما مضى فيها حتى كاد يبلغ الأربعين . وأى شيء كان أيسر عليه من أن يعيش شيخاً كما عاش صبياً وشاباً وكهلا مخالطاً للناس مشاركاً لهم فيما يختلف عليهم من الخير والشر ، مفكراً كما يفكرون أو مخالفاً لهم فى بعض ألوان التفكير ، ممتازاً منهم فى علمه وذكائه أشد الامتياز ، ممتازاً منهم فى سيرته العملية بعض الامتياز ؟ وليس هو أول مكفوف قد تفوق على أمثاله بحدة الذكاء ونفاذ البصيرة وغزارة العلم. وفصاحة اللسان ، فلم يمنعه ذلك من أن يشارك الناس فيما كانوا يضطربون فيه من حلو العيش ومره ؛ فقد ظهر قبله بين المسلمين من رُزق النبوغ وحُرم الإبصار وعاش مع ذلك بين الناس لم يفارقهم ولم يعتزلهم ولم يشذ من بينهم هذا الشذوذ . كان يستطيع أن يعيش معلماً ، وكان يستطيع أن يعيش شاعراً ، وكان يستطيع أن يعيش كما عاش لا يستفيد رزقه من الشعر ولا من التعليم وإنما يكتفى بهذا الوقف الضئيل الذى كان يعيش منه دون أن يفارق الناس ويمسك نفسه فى هذه العزلة المظلمة الشاقة .

كان هذا كله ميسوراً لولا أن أبا العلاء لم يكن مهيئاً له ؛ لأنه

كما قال قد خلق إنسيّ الولادة وحشيّ الغريزة . كان طبعه يعدّه للعزلة ويهيئه للانفراد ، وجاءت هذه الآفة فأمدّت هذا الطبع وقوته وجلعت تأثيره فى حياته أشد وأعظم مما لو أتيح له الإبصار . ذلك أن هذه الآفة نفسها هى مرتبة من مراتب العزلة ومرحلة من مراحلها تميزه من الناس شيئاً وأى شىء ! وتفرق بينه وبينهم إلى حد وأى حد ! بل هى تميزه من الطبيعة فى كثير جداً من مظاهرها . فهو لا يراها ولا يحقق صورها وأشكالها ، وهى لا تبلغ نفسه من طريق مستقيمة ولا تؤثر فيها تأثيراً مباشراً ، وإنما هو يعرف منها شيئاً قليلا ويجعل منها أشياء كثيرة . وهى تصل إلى نفسه من طرق معوجة ملتوية فتبلغها بعد مشقة وجهد ، وتبلغها مشوهة ممسوخة ، وتؤثر فيها بحكم هذا كله تأثيراً مخالفاً لتأثيرها فى نفوس غيرها من الناس .

هو إذن بحكم هذه الآفة معتزل للطبيعة ممتاز منها قد ألقى بينه وبينها حجاب ، وهو إذن بحكم هذه الآفة معتزل للناس ممتاز منهم قد قطعت بينه وبينهم الأسباب . وهو بحكم هذا الاعتزال والامتياز عاجز لا عن أن يتمتع بجمال الطبيعة كما يستمتع به غيره من المبصرين ، بل عن أن يلائم بين حياته وبين كثير من مظاهر الطبيعة على نحو ما يفعل المبصرون ، لا يظفر من ذلك إلا ببعض ما يعينه الناس عليه وييسرونه له . وهو بحكم هذا الاعتزال والامتياز

عاجز كذلك عن أن يستمتع بالحياة الاجتماعية كما يستمتع بها المبصرون ، وعن أن يلائم بين سيرته وبين ما تقتضيه هذه الحياة الاجتماعية من الأوضاع والأشكال وما تفرض من السنن والعادات ، لا يبلغ أيسر ذلك إلا إذا أعانه الناس عليه ويسروه له . وواضح أن الناس حين يعينون أمثاله على أمثال هذه المصاعب إنما يصدرون عن رفق به وعطف عليه وإحسان إليه . فإذا كان الرجل ذكى القلب أبىّ النفس وحشىّ الغريزة آذاه ذلك وشقّ عليه ، وآثرت نفسه الحرمان مع العزة ، والإباء على الظفر مع التعرض للشفقة والرحمة والإحسان .

ومن هنا تقوى فى نفس أبى العلاء عاطفتان كان لهما أعظم الأثر فى حياته وأعظم السيطرة عليها . عاطفة الحياء من جهة ، وعاطفة سوء الظن من جهة أخرى . عاطفة الحياء لأن ذكاء قلبه وإباء نفسه واعتداده بشخصيته . كل ذلك يحمله على أن يرغب أشد الرغبة فى أن يكون كغيره من الناس فى الملاءمة بين حياته وبين قوانين الطبيعة ، وفى الملاءمة بين حياته وبين أوضاع الاجتماع . فإذا أحسّ من نفسه القصور عن ذلك أو التقصير فيه آلمه هذا الإحساس أشد الإيلام وآذاه أشد الإيذاء . وهو من أجل ذلك لا يقدم على ما يحتاج إلى الإقدام عليه من شؤون حياته الظاهرة إلا متردداً أشد التردد ، مضطرباً أشد الاضطراب ، مرتاباً بنفسه

وبالناس أشد الارتياب ، مؤثراً الإحجام مع العافية على الإقدام الذى قد يعرضه لرحمة الراحمين وسخرية الساخرين .

وصاحبته سوء الظن لأن الناس بالقياس إليه مجهولون أوكالمجهولين ؛ يسمع أصواتهم ولا يراهم ، ويحس أعمالهم ولا يراها ، فيفهم من ذلك ما يستطيع ويعجزه من ذلك أكثره . وما دام عاجزاً عن أن يلائم بين سيرته وبين ما يقتضيه نظام الاجتماع فهو سيئ الظن بسيرته وبالاجتماع أيضاً .

وكل هذا يضطر أبا العلاء إلى أن ينصرف إلى نفسه عن غيره من الأشياء والأحياء جميعاً . هو مصروف عن غيره بحكم هذه الآفة وبحكم ما تنشئ فى نفسه من العواطف . وهو مضطر من جهة إلى أن يحلل سيرته مع الناس والطبيعة ، ومضطر من جهة أخرى إلى أن يحلل ما يصل إليه من سيرة الناس والطبيعة معه ما وسعه التحليل .

وإذن فهو بحكم هذا كله فارغ لنفسه عاكف عليها متهم لها سيئ الظن بها . وحسبك بهذا كله مثيراً للتشاؤم ومسبغاً للكآبة على النفس ، وصابغاً للحياة بهذه الصبغة الشاحبة عادة ، القاتمة فى كثير من الأحيان ؛ وقد كان أبو العلاء فى حاجة شديدة إلى شىء من بلادة الحس وفتور الشعور يرده إلى الاعتدال فى الحكم والقصد فى التقدير ، ويصده عن الغلو فى الارتياب بنفسه وبالطبيعة

وبالناس . ولكنه لم يرزق من بلادة الحس شيئاً ، وكان شعوره أبعد شيء عن الفتور . فإذا أضفت إلى ذلك غريزته الوحشية وكبرياءه العنيفة لم تعجب لأنه دفع إلى هذه الطريق التي سلكها ، وإنما عجبت لأنه دفع إليها متأخراً بعد أن نيَّف على الثلاثين .

ومع ذلك فهل نحن واثقون بأنه دفع إليها متأخراً ؟ أليس من الجائز بل من الراجح أنه دفع إليها منذ آخر الصبا ، ولكنه دفع إليها فى رفق ويسر ولم ينته إلى غايتها إلا بعد تردد واضطراب ووقت طويل ؟ إن رثاءه لأبيه يصور لنا حياته العقلية فى أول أمرها فنرى فيها أصول الاضطراب الفلسفى ومظاهر التشاؤم الذى يلزمه طول حياته . وما باله لم يذهب مذهب غيره من الشعراء فيمدح السادة والأمراء ويستمتع بما يجزلون من عطائه ؟ لم يكن إقصاره عن ذلك لقصور فى ملكته الشعرية ، فقد كان شاعراً بارعًا منذ آخر الصبا وأول الشباب ، وله مدح رائع قاله فى شبابه . ولو أنه عرضه على السادة والأمراء لفرحوا به ولأثابوه عليه ، ولأكبروه فى أنفسهم وآثروه بمودتهم ، ولكنه لم يفعل . لماذا ؟ لأنه إنسيّ الولادة كغيره من الشعراء ، ولكنه يمتاز منهم بهذه الغريزة الوحشية التى تصده عن الناس وتنفره منهم ، وبهذه الآفة التى زادته عنهم صدوداً ومنهم نفوراً ، وبهذه الكبرياء التى ارتفعت به عن أن يظهر للناس حاجته إليهم أو انتظاره منهم المعروف . انظر إليه حين يمدح الإسفراييني

فى بغداد ويستعينه على رد سفينته ، كيف يطلب إليه ذلك فى حياء وإباء واعتداد بالنفس وتصريح بعرفان الجميل إن فاز ، وتسجيل للشكر والدعاء إن أدركه الإخفاق .

من أشد ما يملأ قلوبنا إشفاقًا على أبى العلاء هذه الحرب العنيفة المتصلة التى ثارت بين طبيعته الإنسانية وغريزته الوحشية نحو ثلاثين عامًا ، والتى لم تنته إلا حين أزمع العودة من بغداد وانتهت بانتصار الغريزة الوحشية على الطبيعة الإنسانية الاجتماعية . رجل من الناس ولد فى بيئة متحضرة وولدت معه ملكاته الاجتماعية كلها فنشأ مستعدًّا كل الاستعداد ليكون فرداً من الجماعة يشاركها فى حياتها العامة والخاصة ، ويأخذ بنصيبه مما يلم بها من سعادة وما يصيبها من شقاء ، فتأبى عليه غريزته الوحشية وآفته هذه الطارئة إلا أن ينفرد من هذه الجماعة ويشذّ على ما ألفت من نظام . له ما لغيره من الغرائز الطبيعية والاجتماعية التى تدفعه إلى ألوان الحياة المختلفة دفعًا شديداً ، وتطالبه بتحصيل ما يحصل غيره من أنواع اللذات والنعيم ، وهو خليق أن يجد فى ذلك كما يجد فيه غيره من الناس ، ولعل آفته هذه الطارئة أن تصور له الحياة ولذاتها على غير وجهها ، وأن تخيلها إليه على غير حقيقتها ، وأن تجعل تعلقه بها وحرصه عليها أشد من تعلق غيره وحرصه عليها ، وأن تجعل ألمه حين يرد عنها وحسرته وحين يحرم الظفر بها أشد مما يصيب

غيره من الآلام والحسرات حين يكتب عليه الرد ويقدّر عليه الحرمان ؛ ولكن غريزته تلك الوحشية وآفته هذه الطارئة تأبيان إلا أن يكظم هذه الغرائز كظماً ويكبتها كبتاً ويضطر جذوتها المضطرمة الملتظية إلى الانطفاء والخمود .

له ذكاء ممتاز وملكات متفوقة وقدرة على الإجادة والبراعة فيما لا يجيد الناس فيه ولا يبرعون ، وهو من أجل ذلك معتدّ بنفسه مكبر لها لأنه شاعر بامتيازها وتفوقها ، وهو من أجل ذلك خليق أن يمتاز من الناس فى الاستمتاع بالحياة كما امتاز منهم فى الكفاية والبراعة ، وهو من أجل ذلك خليق أن ينتظر من الناس أن يعرفوا له ذلك ويمكّنوه منه ، فإن لم يفعلوا فهو خليق أن يُكرههم عليه إكراهاً وأن يفرض نفسه عليهم فرضاً . ولكن غريزته تلك الوحشية وآفته هذه الطارئة تأبيان عليه إلا أن يكبح نبوغه كبحاً ويأخذ نفسه بأعنف العنف وأقسى القسوة ، لا ليردّها إلى التواضع والاعتدال بل ليحملها حملا على أن تنكر نفسها أشدّ الإنكار ، وتجحد امتيازها أشدّ الجحود .

وهنا تستطيع أن توازن بين أبى العلاء وبين شاعرين نابهين حكيمين من شعراء المسلمين ، كلاهما شاركه فى التفوق والنبوغ والامتياز ، وأحدهما شاركه فى هذه الآفة الطارئة التى نغصت عليه الحياة : وهما بشار والمتنبى .

فأما أولهما فقد كان كأبى العلاء ، ذكىّ القلب إلى أبعد حدود الذكاء ، دقيق الحس إلى أقصى غايات الدقة ، قوى الشعور إلى أرقى مراتب القوة ، غزير العلم واسع المعرفة ، فصيح اللسان بارعًا فى الشعر قادراً على التصرف فيه إلى حيث لم يسبقه شاعر عربى . وكان كأبى العلاء ضريراً مكفوفًا . وكان كأبى العلاء فيلسوفًا عميق الفلسفة ، مفكراً دقيق التفكير ، متشائمًا مسرفًا فى التشاؤم ، سيئ الظن بالناس ، سيئ الظن بالطبيعة ، سيئ الظن بكل شىء ؛ ولكنه مع ذلك قد سار فى حياته الطويلة سيرة أقل ما توصف به أنها مناقضة كل المناقضة لسيرة أبى العلاء . إذا كانت سيرة أبى العلاء طهارة ونقاءً وبراءة من الإثم والعاب ، فسيرة بشار هى العهارة والدنس والتهالك على الإثم والإغراق فى العاب . وإذا كانت سيرة أبى العلاء تواضعًا بل إسرافًا فى التواضع ، فسيرة بشار هى الكبرياء بل تجاوز الكبرياء إلى ما هو شر منها ، إلى التيه والغرور . وإذا كانت سيرة أبى العلاء زهداً فى الدنيا بل إعراضًا عنها بل بغضاً لها فسيرة بشار رغبة فى الدنيا ، بل تهالك عليها ، بل فناء فيهـا . وإذا كانت سيرة أبى العـلاء تعذيبًا لنفسه وجسمه وأخذاً لهما بأشد القوانين وأصرمها ، وحملا لهما على أعنف المحامل وأخشنها ، وصرفًا لهما عن أيسر اللذات وأهونها ، فسيرة بشار تنعيم لنفسه وجسمه ، وإرسال لشهواتهما على سجيتها ، وحمل

لهما على أيسر المحامل وأوثرها ، واقتحام بهما إلى أعظم حظ ممكن من اللذة وأكبر قسط ممكن من النعيم . ومع ذلك فقد كان كل من الشاعرين مجبراً فى أكثر أحيانه وأغلب أمره . وكان كل من الشاعرين ينكر التكاليف أو يكاد ينكره . وكان كل من الشاعرين يجهر بأنه ليس مسؤولاً عما يأتى فى حياته من خير وشر . فما بال هذين الشاعرين اللذين اشتركا فى هذه الآفة الطارئة كما اشتركا فى التفوق والنبوغ قد سلكا هاتين الطريقين المتعاكستين ؟

كان كل منهما متشائماً ، ولكن تشاؤم أحدهما انتهى به إلى العهارة والفجور والإباحة ، وتشاؤم أحدهما الآخر انتهى به إلى الطهر والبر النسك والتحرج . أكان مصدر هذا الخلاف البيئة التى عاش فيها كل من الشاعرين ؟ فقد عاش بشار فى بيئة زندقة ومجون ، وعاش أبوالعلاء فى بيئة تحفظ واحتشام وورع ؟ أكان مصدر ذلك الأسرة ؟ فقد انحدر بشار من أسرة فارسية خضعت للرق وانحدر أبوالعلاء من أسرة عربية لم تعرف إلا العزة والحرية . أكان مصدر ذلك العصر السياسى ؟ فقد عاش بشار فى عصر ثورة لم تتناول السياسة وحدها بل تناولت الأخلاق والدين ونظام الاجتماع ، وعاش أبوالعلاء فى عصر مهما تفسد فيه الحياة فقد كان فيه استقرار ما للعرف الخلقى والاجتماعى . أم كان مصدر هذا كله ما قدمناه وغير ما قدمناه ، وشىء آخر يظهر أنه أساسى وهو

أن بشاراً كان إنسى الولادة والغريزة، وأن أبا العلاء كان إنسى الولادة وحشى الغريزة ؛ فنشأ أولهما ، ولا حظ له من حياء ، ونشأ ثانيهما والحياء أظهر صفاته وأعظم خصاله سلطاناً عليه . ونشأ أولهما ولا سلطان له على غرائزه ، وإنما لغرائزه على نفسه وجسمه السلطان كله ، ونشأ ثانيهما ولا سلطان لغرائزه عليه وإنما عقله هو المسيطر على نفسه وجسمه جميعاً ! ونشأ أولهما يتمدح بآفته جهراً ونشأ ثانيهما لا يذكر هذه الآفة إلا كارهاً ، فإذا تحدث عنها قال إنها عورة يجب أن تستر ! ونشأ أولهما لا يعرف التستر بمباح ولا بمحظور ، لا يتحرج أن يظهر سوأته للناس ويرضى أخس غرائزه بين أيديهم فضلا عن معاقرة الخمر وتتبع النساء والتعرض فى ذلك لما يخزى ويسوء . ونشأ ثانيهما لا يحب الجهر بشيء لا حظ له من محظور عليه ، فإذا ألمّ بأيسر ما يباح له وهو الطعام ألم به سرًّا وعلى استخفاء ! ونشأ أولهما محبًّا للمال متهالكاً عليه يطلبه من وجهه ومن غير وجهه ، ويحصل عليه بالمدح فإن أعياه ذلك حصل عليه بالهجاء ! ونشأ ثانيهما والمال أبغض الأشياء إليه وأهونها عليه لا يطلبه بمدح ولا بهجاء ولا يسعى إليه من وجه ولا من غير وجه ، يتاح له منه ما يقيم الأود فيقسمه مناصفةً بينه وبين خادمه ولو استطاع لما أصاب منه شيئاً ! ونشأ أولهما عدوًّا للناس مسيئاً إليهم مستطيلا عليهم إلا أن تكون لهم القوة ويتاح لهم الاستعلاء ، فهناك يذل ويستكين ، ويظهر

من الذلة والاستكانة ما يستحى منه أهون الناس شأناً وأقلهم خطراً !
ونشأ ثانيهما محباً للناس أشدّ الحب رفيقاً بهم أعظم الرفق يغلظ لهم قوله ويرق لهم قلبه ، يعنف عليهم فى اللفظ وينصح لهم فى دخيلة النفس وأعماق الضمير ، لا يريد بهم شراً ولا ينتظر منهم خيراً ، يقدم إليهم المعروف ما قدر عليه ولا ينتظر منهم شكراً بل لا يرى أنه يستحق منهم شكراً . شفع لقومه عند صالح ، فلما نجحت شفاعته عاد وهو ينشد :

نجّى المعاشرَ من براثن صالح
ربٌّ يفرّجُ كلّ أمر مُعْضلِ
ما كانَ لى فيها جناحُ بعوضة
اللهُ ألبسهمْ جناح تفضّلِ

ثم لم يقصر حبه على الناس وإنما تجاوزهم به إلى حيوان ، فكفّ عنه أذاه وودّ لو يستطيع أن يكفّ عنه أذى الناس . وعلى الجملة لم يشعر بشار بسجنه الفلسفى فى وقت من الأوقات مع أنه حاول الفلسفة واتخذها له صناعة دهراً ثم انصرف عنها ولم يحفل بها وإنما حفل بأهوائه ولذاته ليس غير ، عاش حراً طليقاً ما وسعته الحرية وما أرسل له العنان فى شهواته ولذاته وأهواء نفسه حتى انتهى به الشوط إلى بعض مفترق الطرق وإذا الموت ينتظره فيبطش به بطشاً عنيفاً فيمضى ، وقد كان الناس فى حياته يؤثرونه

بالبر خوفًا منه وإشفاقًا فإذا هم بعد موته يتنفسون الصعداء ويحمدون الله على أنه أنقذهم من بلاء عظيم ! وشعر أبو العلاء بسجنه الفلسفى والطبيعى دائمًا ثم لم يكتف بهما بل أضاف إليهما سجنًا ماديًّا ثالثًا وأقام فى هذه السجون شاعراً بها ملائمًا بين حياته وبينهما ، لا حظ له من حرية فى سيرته لأنه رفض هذه الحرية واعتقد أنها لم تتح له ولم تهد إليه ، فلم يسئ إلى أحد بيد ولا بلسان ولا بنية ، ولم يكد يسيء إليه أحد ، ولعل بعض الناس أن يكونوا قد آذوه بأيديهم وألسنتهم فلم يضطغن على أحد منهم ولم يضمر لأحد موجدة ، وإنما عفا وغفر لأنه كان يعتقد أن من « صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » وقد عمر حتى نيف على الثمانين فى عصر كثرت فيه الفتن واشتد فيه الظلم ، وانتشر فيه الفساد وشاع فيه الكيد واختلفت فيه على وطنه الدول فلم يبسط عليه السلطان يده ولم ينله بأذى على كثرة ما امتنع على السلطان وعلى كثرة ما نعى على الملوك والأمراء سرًّا وجهراً . كان وادعًا هادئًا مكفوف الأذى عن الناس فكف الله عنه أذى الناس. فلما مات كان الواجدون به أكثر جدًّا من الواجدين عليه .

وأما أبو الطيب فقد نشأ وعاش فى عصر قريب من عصر أبى العلاء مشبه له فى أكثر خصاله ، وقد شارك أبا العلاء فى ذكاء القلب ونفاذ البصيرة وفى التفوق والنبوغ ، وشاركه فى الشعور بفساد الحياة العامة للمسلمين من جميع أنحائها ، وشاركه فى الشعور

بتفوقه وامتيازه وفى اعتداده بنفسه ، ولكنه لم يشاركه فى هذه الآفة التى اضطرته إلى العجز وأخذته بالوحدة وفرضت عليه الاعتزال .

ومع أن أصول الفلسفة العلائية توشك أن توجد كلها فى شعر أبى الطيب ، وقد نبهت إلى ذلك فى غير هذا الحديث ، ومع أن أصول الفن العلائى يوجد أكثرها فى شعر أبى الطيب ، وقد نبهت إلى ذلك أيضًا فى غير هذا الحديث ، مع أن أبا العلاء كان مقلداً لأبى الطيب مفترنًا به حتى لنستطيع أن نعده تلميذاً من تلاميذه ، مع هذا كله فما أعظم الفرق بين الرجلين لا فى حياتهما العملية وحدها بل فى حياتهما العقلية أيضًا ! كان أبوالطيب عبداً لشهواته بشرط ألا نفهم من هذه الشهوات شهوات اللذة والفسوق ونعيم الحياة ، وإنما نفهم منها شهوات أخرى ممتازة بعض الشىء ، شهوات الثروة والغنى والاستعلاء على الناس . وأنفق حياته كلها فى إرضاء هذه الشهوات واحتمل فى سبيل ذلك ما يطاق وما لا يطاق . ذاق مرارة البؤس واحتمل ذلّ السؤال ، وباع شعره فى سوق الكساد ، ومدح من كان يحتقرهم أشدّ الاحتقار ، وتملق من كان يزدريهم أقبح الازدراء ، ودفع إلى المخاطرة والمغامرة ، انتهى إلى السجن وتعرض للموت ، وباع نفسه وحريته وكرامته للملوك والأمراء ، وتبدّل رأيًا برأى ومذهبًا بمذهب ، وذل للفرس بعد أن كان لهم عدوًّا وبهم مغريًا وعليهم محرّضًا ، وما زال يتقلب فى هذا الفساد

السياسى والخلق حتى تلقاه الموت فى بعض الصحراء فأراحه وأراح منه !

فأين هذا من أبى العلاء الذى لم يدع لنفسه شهوة إلا أذلها ، ولا عاطفة إلا أخضعها لسلطان عقله ، والذى اعتدّ بنفسه فارتفع بها عما تحتاج إليه الحياة من صراع ، وآثرها بالعافية وألزمها القصد والاعتدال ، وضنّ بها على الكذب والمين وعلى البيع والشراء ، ولم يرد أن يتشبه بالملوك والأمراء فى ملكهم وإمارتهم ، ولا أن يطمع فيما يفيد عندهم الشعراء والأدباء والعلماء من رخيص اللذات يشترونه بأغلى الأثمان ، وإنما أراد ما هو أرفع من ذلك مكانـًا وأبعد من ذلك منالا وأجلّ من ذلك خطراً . أراد أن يتوحد لأن الله واحد فقال :

توحدْ فإنّ الله ربك واحد

ولا ترغبنْ فى عشرة الرؤساء

وازِنْ بين المطمحين ، وقس إلى ضعة أبى الطيب رفعة أبى العلاء ، إن كان يمكن أن تقاس الرفعة إلى الضعة . ومع ذلك فقد لقى كل من الرجلين فى سبيل مطمحه آلامـًا شداداً لا يبلغها الإحصاء ، إلا أن آلام المتنبى تـَقُصّ فلا تثير فى نفسى إلا غيظـًا وازدراءً ، وقد تثير فى نفس غيرى من الناس إكباراً وإعجابـًا ، وآلام أبى العلاء تقصّ فتثير فى نفسى حبـًّا وإجلالاً كما تثير فيها عطفـًا

وحنانـًا وإشفاقـًا . وما أرى أنها تثير فى نفوس غيرى من الناس ازوراراً عن الرجل أو تنكراً له أو استخفافـًا به . وأنا أقرأ شعر الرجلين فأذكر قول أبى العلاء حين شفع إلى صالح فى قومه :

فيسمع منّى سجعَ الحمـــا
م وأسمـــع منه زئيرَ الأسدْ

ولكن زئير الأسد كان يدل على شىء حين كان يصدر عن صالح وأشباهه من المغامرين الذين كانوا يعملون ولا يقولون . فأما زئير الأسد الذى كان يصدر عن المتنبى فقد كان فارغـًا لا يحتوى شيئـًا ولا يدل على شىء . وأصدق وصف له قول أبى العلاء حين سمع شعر ابن هانئ الأندلسى : كأنى أسمع رحى تطحن قرونـًا ! فقد كان شعر المتنبى جعجعة فارغة إذا فخر وتكثّر ، ولم يكن شعره ذا غناء . لم يكن شعره يمسّ النفس ويبلغ القلب إلا حين كان يتغنى حزنه ويشكو بثه ويصوّر آلامه فى تواضع واعتدال . لم يشعر المتنبى قط بأنه سجين إلا حين اضطر إلى السجن بعد ثورته أثناء الشباب ، وقد استقبل هذا السجن المادى فى أول أمره كبير النفس حمى الأنف ، ولكنه لم يلبث أن ذل واستكان وأنفق أيامه فى السجن ضارعـًا مستعطفـًا يتوسل إلى الأمير ويتبرأ مما اتهم به حتى أدركه العفو ورُدَّتْ إليه حريته ، هذه الحرية المبتذلة التى يستمتع بها الناس جميعـًا لأنها حرية الأجسام لا حرية

النفوس . فأما أبو العلاء فقد شعر بسجنه ، بل بسجونه ، وألحّ على نفسه بهذا الشعور ، واحتمل من أجل ذلك آلاماً تملأ النفوس رحمة له وإشفاقاً عليه ، ولكنه استمتع فى هذه السجون بهذه الحرية العليا التى لا يستمتع بها إلا الممتازون من الناس لأنها حرية النفس والقلب والعقل . ومع ذلك فقد كان أبو العلاء يرى نفسه مجبراً ويرى أن ليس له من الحرية حظ .

أرأيت إلى الموازنة بين أبى العلاء وصاحبيه هذين إلام تنتهى وماذا تعقب فى النفس من إعجاب مرّ بهذا الرجل الضئيل النحيل الذى شارك صاحبيه فى كثير من أشياء كانت تقتضى أن تتشابه حياتهم ، ولكنه مع ذلك امتاز منهما أشدّ الامتياز وأعظمه ؟

أنا أعجب ببشار وأكبر فنه ولكنى لا أحبه ولا أراه يثير فى نفسى إلا صدوراً عنه وضيقاً به . وأنا أقدر فن المتنبى وأعجب ببعض آثاره إعجاباً لا حدّ له ، وأعجب ببعضها الآخر إعجاباً متواضعاً — إن صح أن يتواضع الإعجاب — وأمقت سائرها مقتاً شديداً . ولا تثير حياة المتنبى فى نفسى إشفاقاً عليه ولا رثاء له وإنما هو مغامر طلب ما لم يخلق له ، وتعرض لما كان يحسن أن يُعْرِض عنه ، فانتهى إلى ما ينتهى إليه أمثاله المغامرون . أما أبو العلاء فإن له فى نفسى شأناً آخر لا يغيظنى ولا يحفظنى لأن حياته كلها قد برئت مما يحفظ أو يغيظ . وهو قد يغيظ فريقاً من الناس وقد يحفظهم ، لأنه

يخالفهم فى الرأى ولأنه ينكر ما يعرفون ويسخر مما يرتفعون به عن السخرية ، ويستهزئ بما يرون الاستهزاء به إثمًا ونكراً . ولكنك تعلم أن الذين يسيغون الحرية ويذوقونها لا يحفظهم خلاف فى الرأى ولا يغيظهم افتراق فى المذهب . وأبو العلاء حرى بعد ذلك أن يثير فى نفسك الإشفاق لا الحفيظة لأنه لم يخالفك فى الرأى معانداً ولا مكابراً وإنما خالفك فى الرأى بعد أن اجتهد ما وسعه الاجتهاد ، وبعد أن نصح لنفسه ولك ما وسعه النصح . وما يحفظك من رجل أراد الصواب فانتهى إلى ما تراه أنت خطأ ، وما يغيظك من رجل طلب الخير وجدّ فى طلبه فانتهى إلى ما تراه أنت شرًّا ، وهو قد احتمل فى ذلك آلامًا لا تكاد توصف ولا تحصى !

كان هؤلاء الشعراء الثلاثة بشار والمتنبى وأبو العلاء كباراً فى أنفسهم ، وكانت كبرياؤهم أظهر ما سيطر على حياتهم من خصلة ، ومصدر ما لقوا من مكروه . فوازن بين الكبرياء عند هؤلاء الشعراء الثلاثة ووازن بين ما تركت كبرياؤهم من آثار لهم أولا ولغيرهم من الناس بعد ذلك . فأما كبرياء بشار فقد أذاقته لذات عارضة وبغضته إلى الناس ، وانتهت به إلى بطش السلطان ، ثم أبقت له آثاراً يعجب بها الناس إعجابًا فنيًّا خالصًا ولكنهم قلما ينتفعون بها فى تقويم الأخلاق والعقول ، ولعل إساءتها إلى الأخلاق والعقول أن تكون أكثر جدًّا من إحسانها . أما كبرياء المتنبى فقد حرمت

عليه اللذة وجرعته الألم فى أثناء حياته ، وأذاقته الذلة والهون ، وانتهت به إلى أن يغتاله بعض الأعراب فى بعض الصحراء ، وأبقت للناس منه آثاراً يعجبون بها إعجاباً فنياً يختلف قوة وضعفاً باختلاف الأذواق والميول ، ولكنها لا تجعل من صاحبها مثلا يحتذى ولا نموذجاً يتوخى فى تقويم العقول والأخلاق ، ولعلها أن تكون إلى إثارة الغرور والاقتناع بالقول دون العمل والرضا بالعرض دون الجوهر أدنى منها إلى إشعار النفس بهذا التواضع الخصب المنتج الذى يجعل صاحبه نافعاً لنفسه وللناس .

أما كبرياء أبى العلاء فقد جرعته مزاجاً من الألم واللذة فى أثناء حياته الطويلة ، ولكنه ألم يطهر النفس ولا يفسدها ، ولكنها لذة ترفع النفس ولا تضعها وتقويها ولا تضعفها . والغريب من أمر هذه الكبرياء التى لا أعرف أن شاعراً عربياً قد شقى بمثلها أنتجت لأبى العلاء تواضعاً لا أعرف أن شاعراً أو فيلسوفاً عربياً سعد بمثله . وقد انتهت كبرياء أبى العلاء به إلى موت هادئ لا عنف فيه ، بعد حياة طويلة هادئة لا عنف فيها إلا ما كان يشق به أبو العلاء على نفسه من التكاليف . وقد أبقت كبرياء أبى العلاء للناس منه آثاراً خصبة أشدّ الخصب ، مختلفة أشد الاختلاف . مختلفة فى طبائعها ، مختلفة فى نتائجها . منها العلم الذى يغذو العقل ، ومنها الفن الذى يغذو القلب والذوق ، ومنها الفلسفة التى تغذو العقل والقلب والخلق

جميعـًا . وفى آثار أبى العلاء شدة على الناس ، شدة فى ألفاظها ، وشدة فى معانيها وشدة فى أساليبها أيضًا . ولكن فى هذه الآثار شدة على أبى العلاء نفسه ؛ فقد لقى فى إنشائها عناء وجهداً أرجو أن أصورهما بعد حين، فلا أقل من أن نلقى فى الفهم عنه والانتفاع به بعض ما لقى من العناء فى إفهامنا ونفعنا . وفى آثار أبى العلاء ثقل على النفوس التى لا تحب إلا الهين من الأمر ، ولا تألف إلا الحياة اليسيرة الوادعة التى لا تكلف أصحابها مشقة ولا عسراً . ولكن أبا العلاء نفسه لم يكن يحب الهين من الأمر ولم يكن يألف أقصر الطرق كما قال پول ڤاليرى فيما ترجمت عنه فى أول هذا الكتاب . والله لا يكلف نفسـًا إلا وسعها . وما ذنب أبى العلاء إذا كان لم يخلق للسهولة ولا للين ، وإنما خلق للمشقة والجهد ! وحسبه أنه لم يلق فى حياته سهولة ولا لينـًا ، أو أنه قد حمل نفسه حملا فى حياته على الإعراض عن السهولة واللين .

وفى كثير من آثار أبى العلاء كآبة وشحوب لا تستريح إليهما النفوس التى تألف الإشراق والابتسام ، ولكن الحياة ليست إشراقـًا كلها ولا ابتسامـًا ، والرائد لا يكذب قومه ، وقد وكّل الله بإشراق الحياة وابتسامها من الكتّاب والشعراء من يعرضونها على الناس فيملأون نفوسهم إشراقاً وابتساماً وأملا . ووكل الله بما فى الحياة من ظلمة وعبوس كتّابـًا وشعراء يعرضونهما على الناس فيملأون نفوسهم ظلمة

وعبوساً ويشرفون بها على اليأس أحياناً . وصدّقنى أن الحياة لا تستقيم لك إذا لم تلتمس فيها إلا البهجة والرضا ، كما أنها لا تستقيم لك إذا لم تلتمس فيها إلا الحزن والسخط . فلاثِمْ بين ذلك وخذ من هذا ومن ذاك بحظ ، وإذا وجدت البهجة والرضا عند هذا الشاعر أو ذاك من الشعراء المتفائلين فلا تكره أن تلتمس شيئاً من الحزن والسخط عند بعض الشعراء المتشائمين ، فإن السرور المتصل كاذب وهو خليق أن يقتل النفس ويميت القلب ، وإن الحزن المتصل صادق ولكن نفوس الناس لا تطيق له احتمالا ، فلا أقل من أن تلم به وتشرف عليه وتصيب منه قليلا يصلح من أمرها ويعصمها من هذا النسيان الذى هى منتهية إليه إن كانت حياتها صفواً خالصاً ، وهل إلى الصفو الخالص من سبيل ؟ .

كشفت آفة أبى العلاء إذن له سجنه الفلسفى ، وامتزجت به فأصبحت سجناً من داخل سجن ، وألف الرجل هذين السجنين أشدّ الإلف ، وضاق بهما أشد الضيق . ولا تعجب لهذا التناقض فهو قوام حياة أبى العلاء ، بل هو قوام الحياة لكل رجل يجمع بين دقة الحس ورقة الشعور وحدة المزاج وقوة العقل والإرادة جميعاً . وقد امتحن الله أبا العلاء بهذه الخصال كلها فثبت للمحنة ثباتاً عجيباً ولكنه ضاق بها ضيقاً شديداً وشكا منها شكاة متصلة . ولولا هذه الشكاة وذلك الضيق لما نعمنا باللزوميات وما ترك لنا أبو العلاء

من الآثار ! وماذا تريد أن يصنع ؟ لقد احتمل حياته فى هذين السجنين كارهًا فصور كراهته هذه ، ولم يكن يستطيع أن يفر من حياة السجن هذه :

وهل يأبَقُ الإنسانُ من ملك ربه

فيخرج من أرض له وسماء ؟

كلا ! ليس إلى ذلك من سبيل . فليقم أبوالعلاء إذن حيث أراد الله له أن يقيم ، وليرتب أمره كما يستطيع فى هذين السجنين ، وقد فعل ، فأنشأ لنفسه هذا السجن الثالث الذى لزمه نصف قرن وهو بيته فى المعرة . وليس المهم أنه أقام فى بيته نصف قرن لا يتركه ، وإنما المهم أنه أقام فى هذا البيت على نحو خاص لم يتعود الناس أو لم يتعود أكثر الناس أن يقيموا عليه فى البيوت وحسبك أنه كان فذًّا فى هذا بين المسلمين جميعًا على اختلاف البيئات والعصور .

٥

ومن المحقق أن أبا العلاء كان يستطيع أن يكتفى بسجنيه هذين اللذين أطلنا فيهما الحديث دون أن يضيف إليهما هذا السجن الثالث ، ومن غير أن يحدّ ذلك من فلسفته أو يؤثر فى سيرته التى تفرضها عليه هذه الفلسفة . وما أكثر الفلاسفة الذين عاشوا عيشة فلسفية خالصة لاءموا فيها أحسن الملاءمة بين حياتهم العقلية العملية دون أن يحتاجوا إلى اعتزال الناس ولزوم بيت واحد لا يعدونه ! بل منهم من قضت عليه فلسفته أن يخالط الناس ما وسعته مخالطتهم ليؤثر فيهم ما وجد إلى التأثير فيهم سبيلا . ولو أن سقراط اعتزل الناس ولزم بيتًا بعينه لا يعدوه لما كان سقراط ولفقد أخصّ ما يميزه ويميز فلسفته من الخصال التى كانت تفرض عليه التنقل بتفكيره وسؤاله وجوابه من مكان إلى مكان ومن مجمع إلى مجمع .

وكان أبو العلاء يستطيع أن يعيش بفلسفته هذه الجادة القاتمة ذامًّا للدنيا وناعيًا على أهلها ومتجنبًا لذاتها دون أن يحبس نفسه نصف قرن فى بيت من بيوت المعرة ، ودون أن يؤثر ذلك فى فلسفته قليلا أو كثيراً . فما الذى دفعه إلى إيثار العزلة وحمله على لزوم هذا السجن مختاراً ، إن صح أن يضاف هذا الاختيار إلى أبى العلاء ؟

ليس من شك فى أنه حين سافر إلى بغداد لم يكن يريد الوحدة ولا اعتزال الناس، فإن الوحدة لا تطلب فى أكبر المدن الإسلامية، وإن اعتزال الناس لا يطلب فى أشد البلاد اكتظاظاً بالناس، بل لعل أبا العلاء إنما سافر إلى بغداد فراراً إليها من هذه العزلة الإضافية التى لزمها أو لزمته فى قريته الصغيرة الخاملة التى لا يجد فيها من يلائم شكله من العلماء والأدباء والفلاسفة. وقد وصل إلى بغداد، وما أسرع ما اتصل بالناس واتصل الناس به! وما أسرع ما أحبه أهل بغداد وخالطوه بأنفسهم وآثروه بمودتهم! وما أسرع ما شهد أنديتهم الخاصة والعامة، واختلف إلى مجالس علمائهم وأدبائهم وفلاسفتهم، وشفى نفسه من حاجته إلى الحياة الاجتماعية العليا التى يتحدث فيها إلى الأضراب والنظراء، ويسمع منهم فيفهم عنهم ويفهمون عنه. وشفى نفسه أيضاً من طموحه الطبيعى إلى الشهرة وبعد الصيت وتسامع الناس به وتحدثهم عنه! ولكنه كان فى بغداد قلقاً يحس الغربة ويجد الحنين إلى وطنه فى الشام، ويعلن ذلك فى شعر رائع مؤثر حفظه سقط الزند، وأحبه البغداديون أنفسهم، ووقف عنده فى غير هذا الكتاب. كما بينت أنه لم يكد يعود من بغداد حتى أخذت نفسه تذوب حسرات لفراقها. وهذه الخصلة من أخص صفات الأديب ذى الحس الدقيق! فهو طامح إلى بغداد إن كان فى المعرة، وهو مشوق إلى المعرة إن كان فى بغداد، ثم

هو محزون على بغداد إن عاد إلى المعرة . وقد صور المتنبي هذه الخصلة تصويراً رائعاً فى بيته المشهور :

خُلقتُ ألوفًا لو رَجعتُ إلى الصبا

لفارقتُ شيبى مُوجعَ القلب باكيا

وصوّر أبو العلاء نفسه هذه الخصلة تصويراً رائعاً فى شعره الذى بكى فيه الشام حين كان فى العراق ، والذى ندم فيه على العراق حين عاد إلى الشام .

كان إذن قلقاً فى بغداد ، ولكنى مع ذلك أعتقد أنه لم يكن يميل إلى فراقها ، ولو استقامت له الحياة فيها لما فارقها . وأكبر الظن أنه كان يحدث نفسه بإمكان الاستقرار فى بغداد إلى آخر أيامه ، ولعله داعب هذا الأمل الحلو فى أن تلين له الحياة فى العراق ، فيدعو أمه التى فارقها لتلتحق به وتنفق معه ما بقى من أيامها. وأكبر الظن أن أبا العلاء لم يكن يؤثر بغداد لأنها مدينة العلم والفلسفة فحسب ، بل لأن حياتها السياسية كانت أيضاً أخف عليه وأهون احتمالا من حياة الشام . فالذين يقرءون اللزوميات وسقط الزند نفسه يشعرون بأن أبا العلاء كان يكره الحياة السياسية فى الشام كرهاً شديداً . ذلك أن الشام كانت موضوع نزاع متصل بين الفاطميين والمتغلبين من الأعراب من قيس وطيئ والروم . ولم يكن أبوالعلاء يحب الفاطميين ولا يرضى عنهم ، بل لم يكن

أبو العلاء يحب الشيعة عامة ولا من يتصل بهم من قريب أو بعيد . فهو يعرِّض بالفاطميين ويهاجم الإسماعيلية والإمامية ، ويهاجم القرامطة مهاجمة عنيفة . ولم يكن حبه للمتغلبين من أعراب قيس وطيئ بأكثر من حبه للفاطميين . كان يكره من أولئك الأعراب ظلمهم وجهلهم وغلظتهم وقسوة قلوبهم . وكان ينكر من الفاطميين مذاهبهم فى السياسة وآراءهم فى الدين . وواضح أنه إذا كره أولئك وهؤلاء فلم يكن يحب الروم ولا يؤثرهم بالمردة ولا يرضى لنفسه الخضوع لسلطانهم بين حين وحين كما كانت تجرى بذلك الأحداث فى ذلك الوقت .

وكانت بغداد بمأمن من هذا كله ، وبمعزل من هذه الفتن المنكرة الخطيرة . فيها تشغيب للجند ، وفيها الاضطراب بين الشيعة وأهل السنة من وقت إلى وقت . ولكن هذا كله لم يكن يغير من حياة العلماء والأدباء شيئاً ، ولم يكن يصرفهم عما كانوا فيه من الفراغ لما يحبون من درس وبحث ، ومن مناظرة وجدل ، ومن رواية وإنشاد . فكان كل شيء فى بغداد يحببها إلى أبى العلاء ويغريه بالإقامة فيها حتى يدركه الموت . ولكن الحياة لم تستقم له فى بغداد لأن أخلاقه لم تكن أخلاق الرجل الاجتماعى الذى يستطيع أن يأخذ من الناس وأن يعطيهم ، وأن يقارضهم المنافع بما فيها من خير وشر ، وأن يصبر على أذاهم حيناً ويلقاهم بالأذى حين تمكنه الفرصة .

لم يكن أبو العلاء من هذا كله فى شىء ، وإنما كان دقيق الحس رقيق الشعور ، سريع التأثر سريع ردّ الفعل كما يقال . وقصته مع الشريف المرتضى ومع أبى الحسن الربعى تدلان على ذلك دلالة واضحة . فإذا أضفت إلى هذا أن صاحبنا قد ظفر بالشهرة فى بغداد ولكنه ظفر معها بالحسد ولم يظفر معها بالمال تبينت أنه لم يكن له ببغداد مقام ولا أمل فى المقام . وإذن فقد أضطر إلى أن يفكر فى العودة إلى المعرة ليقيم فيها وادعًا مطمئنًا . وقد رأيت أنه كان يكره كل شىء فى المعرة إلا أهلها الوادعين الآمنين . كان يكره إصفارها من العلم والعلماء ودور الكتب ؛ وكان يكره تعرضها لهذه الأحداث السياسية التى تجعلها كالكرة يتقاذفها الفاطميون والأعراب والروم . وكان يعلم أنه إن عاد إلى المعرة دون أن يحتاط لنفسه ويعتصم بالعزلة التامة والحيدة المطلقة لم يأمن من أن تعبث به أحداث السياسة كما عبثت بغيره من العلماء والأدباء .

ومن هنا نفهم أنه فكر فأطال التفكير ، وروّى فأطال التروية ، واستشار الخاصة من أصدقائه فى بغداد بعد أن بين لهم جلية أمره فأقروا رأيه وشجعوه على المضى فيه . وإنه لفى ذلك وإذا الأنباء تأتيه بأن أمه مريضة . فتصور حزنه وإشفاقه وخيبة أمله وكذب رجائه ! لقد كان يمنّى نفسه أن يقيم ببغداد وأن يحمل

أمه إلى بغداد ، فلما أعجزته الإقامة أخذ يفكر فى السفر ولكنه يتثاقل عنه ويرجئه ليستزيد من الحياة فى بغداد . وإذا مرض أمه يزعجه عنها فجأة ويدعوه إلى فراقها فى أسرع وقت ممكن .

وما يكاد يرتحل عن بغداد ويمضى فى طريقه مسرعًا إلى المعرة يسابق الموت إلى أمه حتى يأتيه النبأ بأن الموت قد سبقه إليها .

فهو إذن لم ينكب بالإخفاق فيما كان يرجوه من الحياة الآمنة الخصبة فى بغداد فحسب ، وإنما نكب فيما كان يرجوه من لقاء أمه تلك التى أحبها حبًّا لم يحببه أحداً قط ، تلك التى مانعت فى سفره إلى بغداد إيثاراً لنفسها به، وإيثاراً له بالعافية ، وإشفاقًا عليه من المشقة والجهد ، فلما ألح عليها فى ذلك . وتبينت حرصه عليه واتصال نفسه به عرفت كيف تضحى بنفسها ابتغاء مرضاته ، وكيف تخلى بينه وبين ما أراد .

وقد أظهرت فى غير هذا الكتاب جزع أبى العلاء لهذه النكبة ، وما صورتْ هذه النكبة من ذلك الحزن الذى أخرجه عن طوره أو كاد . ولكن المهم أن هذه النكبة وطّنت نفسه ، وقوّت عزمه على ما كان قد صمم عليه من العزلة والانفراد والاستسلام لغريزته الوحشية .

وقد رويت فى غير هذا الكتاب تلك الرسالة المؤثرة التى كتبها إلى أهل المعرّة ، ينبئهم فيها بعزمه على العزلة ، ويطلب إليهم فيها

ألا يخفّوا للقائه إذا بلغ القرية ، ولا لزيارته إذا استقرّ فى داره . ولست أرى بأساً برواية هذه الرسالة مرة أخرى ، لأنى أجد فى قراءتها — وأرجو أن تجد فى قراءتها — لذة حزينة تثيرها هذه النغمة الحزينة التى يصطنعها أبو العلاء فى تصوير ما يريد :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب إلى السَّكن المقيم بالمعرّة ، شملهم الله بالسعادة ، من أحمد بن عبد الله بن سليمان خص به من عرفه وداناه . سلّم الله الجماعة ولا أسلمها ، ولم شعثها ولا آلمها . أما الآن فهذه مناجاتى إياهم منصرفى عن العراق مجتمع أهل الجدل ، وموطن بقيّة السلف ، بعد أن قضيتُ الحداثة فانقضت ، وودعتُ الشبيبة فمضت ، وحلبت الدهر أشطره ، وجربت خيره وشره ، فوجدت أوفق ما أصنعه فى أيام الحياة ، عزلة تجعلنى من الناس كبارح الأروى من سانح النعام ، وما ألوْتُ نصيحة لنفسى ، ولا قصرت فى اجتذاب المنفعة إلى حيزى . فأجمعت على ذلك واستخرْتُ الله فيه ، بعد جلائه على نفر يوثقُ بخصائلهم ، فكلهم رآه حزماً وعده إذا تم رشداً . وهو أمر أسرى عليه بليل قضى برقه ، وخبت به النعامة ، ليس بنتيج الساعة ، ولا ربيب الأشهر والسنة ، ولكنه غذىّ الحقب المتقادمة وسليل الفكر الطويل . وبادرت إعلامهم ذلك ، مخافة أن يتفضلَ منهم متفضل بالنهوض إلى المنزل الجارية عادتى بسكناه ، ليلقانى فيه فيتعذر ذلك عليه ،

فأكون قد جمعت بين سمجين : سوء الأدب وسوء القطيعة . ورب ملوم لا ذنب له ، والمثلُ السائر : " خلّ امرأ وما اختار " ، وما سمَحت القرون بالإياب حتى وعدتها أشياء ثلاثة : نُبذة كنبذة فتيق النجوم ، وانقضابًا من العالم كانقضاب القائبة من القوب[1] ، وثباتًا فى البلد إن جال أهله من خوف الروم . فإن أبى من يشفق على أو يظهر الشفق إلا النفرة مع السواد كانت نفرة الأعفر أو الأدماء . وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء الرجال ، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم ، فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمن بإقامتى فيه . والجاهل مغالب القدر ! فلهيت عما استأثرَ به الزمان . والله يجعلهم أحلاسَ الأوطان لا أحلاس الخيل والركاب ، ويسبغ عليهم النعمة سبوغ القمراء الطلقة على الظبي الغرير ويحسنُ جزاء البغداديين ، فلقد وصفونى بما لا أستحقه ، وشهدوا لى بالفضيلة على غير علم ، وعرضوا علىّ أموالهم عرض الجد ، فصادفونى غير جذل بالصنيعات ، ولا هشّ إلى معروف الأقوام ، ورحلت وهم لرحيلى كارهون ، وحسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ! »

ويريد الحظ أن يعبث بأبي العلاء حتى فى حزنه وألمه ، وفيما اختار لنفسه من العزلة وما آثرها به من التوحش فلا تصل رسالته

---

(١) القائبة : البيضة . والقوب : الفرخ . وانفلاق البيضة عن الفرخ يضرب مثلا فى الانفصال الذى لا عودة بعده .

هذه إلى أهل المعرة . وأكبر الظن أنهم قد خفوا للقائه وزيارته ، ولكن التاريخ لم يحدثنا بما لقيهم به أبو العلاء من نفار وازورار أو انبساط وإقبال . على أن عبث الحظ بأبى العلاء فيما أراد من هذه العزلة لم ينقطع وإنما لزمه طول حياته . فقد كان أبو العلاء فيما أظن يرجو أن يقيم فى داره خالياً إلى نفسه وإلى تفكيره ، منقطعاً عن الناس أشدّ الانقطاع وأوحشه ، لا يراهم ولا يرونه ، إلا أن تدعو إلى ذلك ضرورة ملجئة . وما بالك برجل يريد أن يلازم داره ولا يخرج مع أهل المدينة إن جلوا من خوف الروم ، ولكن داره لم تلبث أن استحالت إلى مدرسة يؤمها الطلاب الكثيرون من أبعد الأقطار الإسلامية وأنآها ! منهم من يأتى من خراسان ، ومنهم من يأتى من اليمن ، ومنهم من يأتى من غير هذين القطرين من أقطار المسلمين ، وكلهم يطلب عنده العلم والأدب ويلتمس منه المعرفة والفقه بأمور اللغة . وأبو العلاء مكره على أن يعطيهم ما يجد ، ويتكلف لهم ما يطيق وما لا يطيق لا من العلم والأدب فحسب ، بل منهما ومن المال والنفقة أيضاً ، لأنه لم يكن بخيلا ولا شحيحاً ، وإنما كان أبعد الناس من البخل والشح . فقد فاتته العزلة التى رغب فيها وحرص عليها ، وفرضت عليه الحياة الاجتماعية أو فرض عليه لون من ألوانها فرضاً . ولكنه على كل حال قد حقق بعض ما كان يريد ، وعصم نفسه مما كان يخشاه ، فلم يتصل

بالأمراء ولا بالرؤساء ، وقد حاول أولئك وهؤلاء أن يرفعوه إليهم ويقربوه منهم ، ولكنه عرف كيف يتخلص من ذلك فى لباقة وظرف ، وكيف يلزم داره كما أراد أن يلزمها لا يخرج منها إلى الناس وإنما يدخلها الناس عليه راغبين فيما عنده من العلم والأدب .

على أن أبا العلاء لم يعد من بغداد بهذا العزم المصمم على العزلة وحده . وإنما عاد بشيء آخر هو هذه الحياة الخاصة التى فرضها على نفسه أثناء العزلة ، والتى حالت بينه وبين الزواج والنسل ، وحرّمت عليه أكثر اللذات أو قل كل اللذات ! وحظرت عليه أكل الحيوان وما يخرج منه ، واضطرته إلى أن يعيش على العدس والزيت والتين والدبس لايتجاوز ذلك إلى غيره ! وأن يتخذ من اللباس أخشنه وأقساه ، ومن الفراش أغلظه وأجفاه : اللبد فى الشتاء ، والحصير فى الصيف ! وأن يأخذ نفسه بألوان عنيفة من الرياضة المادية ، فلا يتخذ فى الشتاء دفئاً ولا يصطنع الماء الساخن . فأما الرياضة المعنوية فإن لنا فيها حديثاً قد يطول بعض الشيء .

فلننظر إلى هذا الرجل النحيل الضئيل الضرير الذى اصطنع لنفسه هذا السجن المادى من داره ، وفرض على نفسه فيه حياة السجين وسيرته وطعامه وشرابه وغلظته وقسوته ، وأقام على ذلك نصف قرن راضياً به مطمئناً إليه ، نستغفر الله بل مفاخراً به ! ألم يسمّ نفسه رهين المحبسين ؟ ألم يذكر سجونه الثلاثة فى ذينك البيتين اللذين رويناهما منذ حين ؟

لننظر إلى هذا الرجل قد سُجنت نفسه فى جسمه فحدّت بحدوده وأكرهت على ما أكره عليه من العجز . ثم لم يكف الطبيعة أن اضطرتها إلى هذا السجن وهو ثقيل أليم بغيض ، فأضافت إليه سجناً آخر وحالت بين هذه النفس وبين أن تنفذ إلى العالم المحيط بها من طريق الإبصار كما ينفذ إليه غيرها من النفوس ، ثم لم يكفها هى أيضاً أن اضطرت إلى هذين السجنين فكأنها عاندت الطبيعة التى سجنتها وأعلنت إليها العناد والتحدى ، وقالت لها فى صراحة : إن هذا العذاب الأليم لا يضعفنى ولا يفلّ من حدّى ، بل قد أرى فيه لذة ورضا ، بل أراه هيناً يسيراً لا يكفينى ولا يشفينى ، وانظرى فسأضيف إليه سجناً آخر وعذاباً آخر ، وحرماناً آخر ، سأحبس نفسى فى هذا المنزل لا أعدوه ، وسآخذ نفسى بأشد ألوان الرياضة وأقساها ، وسأحرم نفسى ما أباح الله للناس من طيبات الحياة ؛ ولو استطعتُ لأضفت إلى هذه السجون الثلاثة سجناً رابعاً وخامساً ، ولو استطعتُ لأضفت إلى هذه الألوان من العذاب والحرمان ألواناً أخرى من العذاب والحرمان ، ولكن ماذا أصنع وهذا آخر الطاقة وأقصى الجهد ؟ انظرى إنك لم تقهرينى ولم تظهرى علىّ ولكنى أنا الذى يقهرك ويظهر عليك لأنى أحتفظ أمام قوتك وسلطانك وأمام بأسك وبطشك بهذا العقل الحر الثائر الذى لن يهدأ ولن يطمئن حتى يعلم علمك أو يكون بينك وبينه الفراق إلى آخر الدهر !

أليس هذا الرجل خليقـًا بالإشفاق عليه والإعجاب به ؟ بلى ! وهو خليق بأن نحبه ونؤثره بالود ، وبأن نزوره فى هذا السجن الذى اتخذه لنفسه ، ونقيم معه فيه يومـًا أو أيامـًا لنرى كيف كان يعيش فيه ، لا عيشته المادية بل عيشته العقلية الشاعرة المفكرة التى تصورها اللزوميات .

٦

وأدخلت على الشيخ فى حجرة واسعة بعيدة الأرجاء قد جلس هو فى صدرها على حصير لعله أن يكون أقرب إلى البلى منه إلى الجدة ، وبين يديه نفر يكتبون ، وفى الحجرة قوم آخرون كثيرون يسمعون ويعجبون ، ولكنهم لا يقيدون ما يسمعون . وكان صوت الشيخ شاحباً حزيناً قد ألقيت عليه مسحة من كآبة . ولكنه كان فى الوقت نفسه ثابتاً ممتلئاً يمازج حزنه شيء من الرضا والأمن ، وشيء آخر لا يكاد يحس كأنه يمثل غبطة هادئة ، وابتهاجاً متواضعاً بما أتيح للشيخ من فوز . وكان يملى هذه الأبيات :

يدل على فضل الممات وكونه
إراحة جسم أنّ مسلكه صَعبُ

ألم ترَ أنّ المجد تلقاك دونه
شدائدُ من أمثالها وجبَ الرّعبُ ؟

إذا افترقت أجزاؤنا حُطّ ثقلنا
ونحملُ عبئاً حين يلتئمُ الشعبُ

وأمس ثوى راعيك وهو مودع
ولو كان حيّاً قام فى يده قَعبُ

وقد أعجبنى هذا الصوت الشاحب المشرق والمحزون المبتهج ، ووجدت فى الاستماع له لذة وأنساً لم أجدهما فى الاستماع لصوت قط . ولكنى تجاوزت الصوت مسرعاً إلى ما كان يملى من الشعر ، فوقفت منه عند أمرين ، أو قل عند أمور ثلاثة مختلفة ولكن ائتلافها هو قوام هذه الأبيات .

وقفت عند معناه ، ووقفت عند أسلوبه ، ووقفت عند لفظه . فأما معناه فقد رأيت فيه إنتاج العقل الفلسفى وإنتاج الخيال الشعرى، وائتلافاً غريباً لا يخلو من تكلف بين هذين النوعين من الإنتاج ، ولكنه تكلف لا يحفظ ولا يغيظ ، ولا يزورّ بالسامع عنه ولا عن صاحبه . فأما العقل الفلسفى فقد أنتج لصاحبه بعد التفكير والروية أن الحياة عناء للأجسام ، لأنها تحملها من أثقال وأعباء ما لا تحتمله إن فقدت الحياة . وهى إنما تحملها هذه الأعباء وتلك الأثقال لأنها تجمع أجزاءها المتفرقة ، وتلائم بين بعضها وبعض ، وتحدث بينها من التضامن ما يهيئها لحمل ثقلها الخاص أولا ، وللنهوض بما يحمل عليها من الأثقال الأجنبية ثانياً . فإذا تفرقت هذه الأجزاء بعد اجتماعها ، وتباعدت بعد اقترابها ، وفقدت هذا التضامن الذى كان يؤلف منها وحدة متماسكة يحمل بعضها ثقل بعض ، وينهض كلها بأثقال غريبة عنه لم تتكلف مشقة ولم تتعرض لجهد ، ولم تحتمل ثقلا لأنها ليست مهيأة لذلك ولا ميسرة له ، ولا

قادرة على النهوض به . وأنت لا تحمل الأشياء المتباعدة شيئاً مجتمعاً ، وإنما سبيلك ، إن أردت أن تحمل شيئاً على شيء ، أن تلائم بين الحامل والمحمول ، وأن تهيء أحدهما لقبول الآخر .

وإذن فالموت مريح للأجسام من احتمال الأثقال والنهوض بالأعباء ، لأنه يفرق أجزاءها ويشتت ما اجتمع منها ، ويلغى ما كان بينها من التضامن والتعاون ، وإذن فأمر هذا العالم بين جمع وتفريق وبين تباعد وتقارب ، والحياة من أهم عناصر الجمع بعد التفريق ، والتقريب بعد التباعد ، الموت ينقض ما جمعت ويفرّق ما ألفت . فمن كره الجهد وتبرم بالمشقة وسئم العنف واحتمال الأثقال وآثر الراحة الكبرى ، فسبيله أن يؤثر الموت ! لأنه يحط عنه كل ثقل ويلقى عنه كل عبء ، ولأنه يبدأ فيحط عنه ثقل نفسه قبل أن يحط عنه ثقل غيرها من الأشياء . وهذا المعنى فى نفسه واضح مستقيم لا غموض فيه ولا عوج ، وهو فى الوقت نفسه مظلم قاتم عظيم الحظ من التشاؤم ، يصور التئام الجسم الحى على أنه شر تصدر عنه الجهد والتعب ، ويصور افتراق هذه الأجسام على أنه خير تصدر عنه الراحة والهدوء ، فهو يزهد فى الحياة ويرغب فى الموت .

ولكن الشيخ حين أراد أن يؤدى هذا المعنى المظلم لم يؤده كما هو ، وإنما دار حوله واتخذ الخيال إليه سبيلا ، فجعل الموت

الذى يرغب فيه الحكيم صعب المرام كالمجد الذى يرغب فيه الطموح كلاهما لا يُنال إلا بعد الجهد ، ولا يُبلغ إلا بعد تكلف المشقات ، ولكن كليهما يعقب الظافر به غبطة وطمأنينة ورضاً .

قدم الشاعر بهذا الخيال بين يدى هذا المعنى على أنه وسيلة إليه وتمهيد له ، ثم ألقى هذا المعنى نفسه فى البيت الثالث ، موجزاً متقناً دقيقاً صريحاً مرسلا إرسال الأمثال . ثم عاد إلى الخيال فاستنبط منه دليلا يؤيد هذا المعنى ويوضحه ويجلوه ، وضرب هذا الدليل مثلا يفهمه الذكى والغبى ، ويسيغه الفيلسوف وغير الفيلسوف ، وهو هذا الراعى الذى ينهض بأعباء صناعته ما أتيحت له الحياة ، فهو يحتمل أثقالها على اختلافها وتباينها ، منها المادى ومنها المعنوى ! وقد رمز الشيخ لهذه الأثقال بهذا القعب الذى يقوم الراعى وهو فى يده فارغاً أو ممتلئاً فهو يحمل نفسه أولا ويحمل القعب ثانياً ، فإذا مات وثوى فى قبره لم ينهض بعمل ولم يحتمل ثقلا ولا عبئاً ، ولم يقم وفى يده قعب أو شىء آخر غير القعب . فهذا المعنى الذى أدى فى هذه الأبيات الأربعة يعجب لصحته واستقامته ، ولهذا الخيال الذى يسبقه فيمهد له والذى يتلوه فيزيد الاقتناع به والاطمئنان إليه .

وأما أسلوب هذا الشعر وهذا النظم فقد وقفت عند انحرافه عن مذهب الشعراء المجودين وانصرافه إلى مذهب الفلاسفة المحققين ؛

ألست تراه فى البيت الأول يعرض الأمر على أنه قضية فلسفية ، يقيم عليها الحجة ويقارع دونها بالبرهان ، ويصطنع فى ذلك ألفاظ الفلاسفة والمتكلمين ، ويتكلف فى إخضاعها لهذا الوزن الطويل بعض المشقة والجهد ؟ فانظر إلى قوله: « يدل على فضل الممات » ، وانظر إلى قوله : « كونه إراحة جسم » . ثم انظر إلى البيت الثانى فستراه ألقى كما يلقى الدليل ، واصطنعت فيه أساليب الاستدلال . ثم انظر إلى البيت الثالث فسترى الشاعر قد ألقاه إليك هادئاً مطمئنًّا واثقًا ، لأنه هيأك لتلقيه وأعدك لفهمه وقبوله . ثم انظر إلى البيت الأخير فسترى أنّ الشاعر قد ضربه لك مثلا يتمّ به اقتناعك ويمحو به ما عسى أن يبقى فى نفسك من تردد أو شك . وقد يذهب الشعراء المجودون مذهب الاستدلال أحيانًا ولكنهم يلمون به إلمامًا خفيفًا ويأخذون منه بمقدار يسير ، ويستعينون عليه بتخير اللفظ وتجويده ، والارتقاء بالأسلوب عما ألف أصحاب المناظرة والجدل . فأما صاحبنا فلا يحفل من هذا بشىء ، وإنما الذى يعنيه أن يصحح معناه ويقومه ويؤديه إليك فى لفظ صحيح واضح مستقيم ، ولا عليه أن ينحرف اللفظ والأسلوب عما ألف أصحاب الصناعة والتجويد .

معناه آثر عنده من لفظه ، والصواب أحبُّ إليه من التزويق ، فسواء عليه إذا حقق الفكرة وحصّلها فى نفسه وفى نفسك أوقعت

له الصورة الرائعة الرائقة أم أخطأته . أما لفظه فقد وقفت منه عند ما بينت لك آنفاً ، ولكنى وقفت منه بنوع خاص عند هذه القوافى الأربع التى لم تشترك فى الحرف الأخير فحسب ، ولكنها اشتركت فيه وفى الحرف الذى يسبقه . فهى لم تشترك فى الباء وحدها وإنما اشتركت فى الباء والعين : « صعب » ، و « رعب » ، و « شعب » ، و « قعب » . وقد كنت أعلم أن بعض الشعراء قد يوفقون أحياناً إلى تقفية قصائدهم على حرفين يبلغون ذلك عفواً وفى غير جهد ، أو يبلغون ذلك عن إرادة وتعمد وإطالة للكد وإعمال للفكر ؛ ولكنى فيما قرأت من هذا الشعر القليل لم ألاحظ قط أن القافية تسلطت على الشعر ، فحكمته ودبّـرت أمره ، ونسقت لفظه وأسلوبه ومعناه كما تفعل فى هذه الأبيات .

فما أشك فى أنك تقرأ قصيدة كُثيِّـر :

خليليّ هذا ربع عزة فاعقــلا

قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلّتِ

فلا تتردد فى أن الشاعر قد تعمد التزام اللام والتاء ، ولكنك فى الوقت نفسه لا تشعر بأن كثيراً قد لقى فى ذلك جهداً أو احتمل فيه عناء ، وإنما يخيل إليك أنه دعا الألفاظ فاستجابت له ، وأهاب بها وأسرعت إليه . وأوضح من ذلك وأظهر أنك لا تحس فى بيت من أبيات هذه القصيدة أن القافية هى التى نظمت البيت

ودبرت أمره ، ووضعت بعض ألفاظه بإزاء بعض ، وأجرته على الأسلوب الذى جرى عليه . وإنما تشعر بأن البيت قد نظم فألفت ألفاظه واطّـرد أسلوبه ومضى حتّى انتهى إلى قافيته انتهاء هادئـًا مطمئنـًا مريحـًا . تشعر بأن البيت هو الذى دعا القافية ، لا بأن القافية هى التى دعت البيت . فإذا قرأت هذه الأبيات الأربعة لم تجد لهذا الشعور فى نفسك أثراً ، وإنما أحسست إحساسـًا قويـًّا أن كلمة « صعب » ، هى التى نظمت البيت الأول وألفت ألفاظه واختارت له هذا الأسلوب ، وإن الشاعر قد وجد هذه الكلمة أولا ثم نظم لها البيت بعد ذلك ، وكذلك « الرعب » و« الشعب » و« القعب » .

تحس أن الشاعر قد أراد كلمات تنتهى بعين وباء ، فاجتمعت له هذه الكلمات الأربع ، فلما اجتمعت له التمس معنى ينظم فيه شعراً على أن تكون هذه الكلمات قوافى لهذا الشعر . وما زال يلتمس المعانى حتّى وجد معناه هذا فأخذ يمده ويوسعه ويدور حوله ويمهد له حتّى تحققت له هذه الصور الأربع ، وهى أن الموت مريح فيجب أن تكون الطريق إليه صعبة ، وأن المجد عسير فيجب أن تقاسى الشدائد المخوفة فى سبيله ، وأن افتراق الأجسام لا يهيئها لاحتمال الثقل وإنما تتهيأ له إذا اجتمعت أجزاؤها ، وأن الدليل على ذلك أن الراعى يستريح من الرعى وأثقاله إذا مات ، ويشقى بالرعى ومتاعبه إذا عاش .

فالصورة الأولى تتفق مع كلمة صعب والصورة الثانية تأتلف مع كلمة الرعب ، والصورة الثالثة تلائم كلمة الشعب . وأى شيء يوافق الراعى إلا القعب ، وأى شيء يوافق القعب إلا الراعى !

وإذن الشاعر لم يعمل فى معناه وحده ، ولا فى لفظه وحده ، ولا فى أسلوبه وحده ، وإنما عمل فيها جميعاً ، ولقى شيئاً من الجهد غير قليل فى حملها على أن تلتقى وتأتلف ويطمئن بعضها إلى بعض ، ثم فى تمكينها بعد ذلك من أن تلتقى نفوسنا فتألفها وتمازجها ولا تشق عليها .

ووفق أبو العلاء من ذلك إلى ما أحب ، فنحن نحس جهده وعناءه ولكننا لا نبغض هذا الجهد ولا نضيق بهذا العناء . ولا ننكر ما انتهيا إليه من النتائج . وقد نحتاج إلى شيء من الجهد لنسيغ هذه الأبيات ، ونلائم بينها وبين ذوقنا الفنى . ولكن أبا العلاء نفسه يعيننا على هذا الجهد ويشاركنا فيه . يعيننا عليه بشيء أحسه إحساساً قوياً ولكنى لا أجد يسراً فى تحقيقه ، ولا فى تحديده ، ولا فى تعيين موضعه من هذا الشعر . أتراه فى المعنى الذى لا نكاد ندنو منه حتى تتلقاه نفوسنا هشة له مستريحة إليه ، أتراه فى اللفظ الذى مهما يكن حظه من التكلف فإن له من الجزالة حظاً يرضى ذوقنا ، أتراه فى الأسلوب الذى مهما يكن حظه من الالتواء فإن فيه ما يصور جهداً محبباً إلى النفس مثيراً لعطفها وإعجابها ،

لا لإعراضها وازوِرارها ، أم تراه فى هذا كله وفى شىء آخر يضاف إليه وهو أن أبا العلاء كان خفيف الروح حلو الشمائل رضىّ النفس سمح الطبع ، يصدر عنه الشعر المتكلف الذى يستسمج من غيره فإذا نحن نلقاه باسمين له مستريحين إليه ؟ لا أدرى ! ولكنى أقرأ هذه الأبيات وأشعر بما فيها من تكلف وجهد فلا أنكرها ولا أضيق بها ، وإنما أحبها وأستعيدها ولا أدعها حتى أثبتها فى نفسى .

وقِفْ عند البيت الثانى وانظر إلى قوله : « شدائد من أمثالها وجب الرعب » . فلو أنى صادفت هذه الصيغة عند شاعر غير أبى العلاء ، عند المتنبى مثلا أو أبى تمام لأشبعته لومًا ونقدًا وتأنيبًا ، ولكنى حين صادفت هذه الصيغة فى شعر أبى العلاء لم أزد على أن ابتسمت ثم استعدت البيت فضحكت ضحكًا خفيفًا ، ثم أحببت هذا الأسلوب فى هذا الموضع واطمأننت إليه . قل إنى أوثر أبا العلاء وأحابيه وأرضى منه أشياء لا أرضاها من غيره فقد لا تخطئ ولا تبعد ، وأظننى نبهتك إلى ذلك فى أول هذا الحديث وقلت غير مرة إنى لا أملى كتابًا فى البحث العلمى ولا فى النقد الأدبى ، وإنما أسجل خواطر أثارتها فى نفسى عشرة أبى العلاء فى سجنه وقتًا ما ، واستماعى له وهو ينشد شعر اللزوميات .

وهذه الأبيات التى سمعت أبا العلاء ينشدها فأعجبتنى من

جميع وجوهها أغرتنى بكثرة الاسماع للشيخ حين كان يملى شعره هذا على كتابه وطلابه ، كما أغرتنى بأن ألزم الشيخ فى جميع أطوار يقظته العاملة حين كان يخلو إلى نفسه ما أقمت معه فى سجنه ، فقد كنت حريصاً على أن أحصل لنفسى هذه اللذة الفنية العقلية بالاستماع لإملاء الشيخ وبالفهم عنه ، كما كنت حريصاً على أن أشهد الشيخ وهو يعانى ألوان الجهد الفنى والعقلى ، ويصطنع ألوان الحيل ليجمع بها بين المعانى الفلسفية التى لم يألفها الشعر كثيراً فى لغتنا العربية وبين الألفاظ القريبة والغريبة فى هذا النظم العسير وبهذه القافية الشاقة .

وكانت نتيجة لزومى للشيخ آناء الليل وأطراف النهار شهراً وبعض شهر هى هذه التى أريد أن أصورها لك وأعرضها عليك .

٧٠

وأول ما أواجهك به من ذلك وأنا أقدر أنك ستلقاه منكراً له ثائراً عليه ، هو أن اللزوميات ليست نتيجة العمل وإنما هى نتيجة الفراغ ، وليست نتيجة الجد والكد وإنما هى نتيجة العبث واللعب ، وإن شئت فقل إنها نتيجة عمل دعا إليه الفراغ ونتيجة جد جرّ إليه اللعب . ولأوضح ذلك بعض التوضيح فقد أهدّئ من ثورتك وأحوّل إنكارك إلى إقرار واعتراف .

فقد لزم أبو العلاء داره لا يبرحها نصف قرن ، فقدّر أنت نصف القرن هذا كم يكون من سنة ، ومن شهر ، ومن أسبوع ، ومن يوم ، ومن ساعة . وقدّر أنك اضطررت إلى أن تلزم سجناً من السجون ، وليكن هذا السجن دارك التى رتبتها كما تريد وتهوى فى أثناء هذا الدهر الطويل . فهل تتصور احتمالك للإقامة فى هذا السجن أثناء هذه الأعوام المتصلة فى حياة مطردة مستوية يشبه بعضها بعضاً كما يشبه الماء الماء ؟ وهل تقدر أن القوانين المدنية الحديثة حين أرادت أن تشقّ على المجرمين وتلائم بين جرائمهم الشنيعة وآثامهم القبيحة ، وما تترك هذه الآثام وتلك الجرائم فى حياة الأفراد والجماعات من آثار ليست أقل منها شناعة وقبحاً ، وبين العقوبات

المكافئة لها الرادعة لهم ولأمثالهم عنها وعن أمثالها ، قد فرضت السجن مع الفراغ أو مع العمل اليسير أو الشاق آماداً تختلف طولا وقصراً ، ولكنها لا تبلغ نصف هذا الدهر الذى لزم فيه أبو العلاء سجنه ، بل لعلها لا تتجاوز ثلثه فى أكثر الأحيان . ومن الحق أن أبا العلاء لم يفرض عليه ، ولم يفرض على نفسه ، الراحة المتصلة والفراغ المطلق ، فما أظنه كان يستطيع أن يحتمل ذلك أو يصبر عليه ، ولكنه كان يقرأ كثيراً ، ويملى كثيراً ، ويلقى التلاميذ والطلاب والزائرين ، فيتحدث إليهم ويسمع منهم .

ولكن هذا كله على كثرته وتنوعه لا يستطيع أن يملأ وقت الشيخ ولا أن يغير ما فيه من التشابه والاستواء والاطراد ، ولم يكن أبو العلاء ينفق وقته كله مع الناس قارئـًا أو ممليـًا أو متحدثـًا ، وإنما كان ينفق بعض هذا الوقت فى هذه الأعمال ، وينفق بعضه الآخر فارغـًا لنفسه خالياً إليها . ولعل الوقت الذى كان يفرغ فيه لنفسه ويخلو فيه إليها أن يكون أكثر من الوقت الذى يلقى فيه الناس . أو أن يكون مساويـًا له ، أو أن يكون أقلّ منه شيئـًا . وهو قد كان على كل حال وقتـًا طويلا يتكرر فى كل يوم دون انقطاع ، لا فى أثناء عام أو أعوام بل فى أثناء عشرات الأعوام . ولم يكن أبو العلاء إذا خلا إلى نفسه شغل عنها بالحديث إلى زوجه أو بمداعبة بنيه ، وما أحسبه كان يتحدث إلى خادمه فيطيل الحديث ، وما أرى

إلا أن خادمه كان ينصرف عنه إذا انصرف الناس بعد أن يرتب له من أمره ما يحتاج إلى الترتيب . ولم يكن أبو العلاء إذا خلا إلى نفسه يستطيع أن يقطع الوقت بالقراءة . فهو لم يكن يقرأ إلا إذا وجد قارئاً لأنه كان كما حدّثنا مستطيعاً بغيره . ولم يكن يكتب أيضاً لنفس هذا السبب ، وما أرى أنه عرف الكتابة والقراءة التى يعرفها أمثاله من المكفوفين وإن أشار إلى هذا النحو من القراءة فى قوله :

كأن منجم الأقـــوام أعمى
لديه الصُّحف يقرأها بلمس

فلم يحدثنا أحد بأنه قرأ وكتب بيده ، وإنما حدثنا هو بأنه استطاع دائماً بغيره ، وسمى لنا بعض الذين أعانوه على القراءة والكتابة وشكر لهم ما أسدوا إليه من معونة . كان إذن يخلو إلى نفسه وإلى وقته ، ولا يجد من الناس ولا من القراءة ولا من الكتابة ولا من أى عمل من الأعمال اليدوية ما يعينه عليهما . وما أرى أنه كان كثير النوم وإنما كانت حياته القانعة الخشنة خليقة أن تؤرقه أو أن تجعل حظه من النوم قليلا . فماذا كان أبو العلاء يصنع أثناء ساعات الفراغ تلك التى كانت تفرض عليه فى كل نهار وفى كل ليل وفى كل أسبوع وفى كل شهر وفى كل عام أثناء نصف قرن ؟ كان يفكر ، ولكن فى ماذا يفكر ؟ يفكر فيما كان قد حصّل

من علم وأدب وفلسفة ، وفيما كان يقرأ عليه من ذلك ، وفيما كان يتهيأ لإملائه منه على الطلاب والتلاميذ .

ونحن نعرف أن غير أبي العلاء من الأدباء والفلاسفة والمعلمين المبصرين قد شغلوا بالتفكير وبالإنشاء وبالتعليم ، قرءوا وفكروا فيما قرءوا ، وأملوا واستعدوا للإملاء وأنشأوا وجدّوا فى الإنشاء ، ولكن هذا كله لم يملأ أوقاتهم ولم يشغلهم عن الحياة الاجتماعية ولا عن الحياة المنزلية الخاصة . ولم يحرمهم الاستمتاع بما أبيح لهم من طيبات الحياة ، بل لم يردّ بعضهم عن الاستمتاع بما حرم عليهم من سيئات الحياة . فهم قد وجدوا الوقت للتحصيل والإنتاج والمشاركة فى الحياة الاجتماعية والمنزلية ، وهم قد وجدوا مع ذلك أوقاتاً للفراغ والراحة . فما ظنك برجل كأبي العلاء قد صرف عن الحياة الاجتماعية ، وعن الحياة المنزلية ، وعن طيبات الحياة وسيئاتها ، وكف بصره فلم يشغله حتى النظر إلى ما حوله من الأشياء ! إذن فقد كانت أوقات الفراغ لأبي العلاء طويلة شاقة أطول مما يستطيع وأشق مما يطيق ، ولم يكن له بد من أن يستعين على هذه الأوقات بما يسليه ويلهيه فى براءة للنفس ونقاء للقلب وطهارة للضمير حتى يدركه النوم ، وحتى يدخل عليه الطلاب والزائرون . وبماذا تريد أن يتسلى ويتلهى فى براءة وطهارة ونقاء ، وفى خلو إلى النفس وانقطاع عن الناس واستغناء عنهم أيضاً ؟ لا بد له من أن يلتمس

التسلية والتلهية عند نفسه وعند نفسه وحدها وقد فعل : فاستجابت له ذاكرة قوية ، وحافظة نادرة ، وعقل ذكى بعيد آماد التفكير . فأما ذاكرته أو حافظته فقد وجد فيها ألفاظ اللغة العربية كلها أو أكثرها على أقل تقدير . وجد فيها ما سمع من الشيوخ ، وما قرأ فى الكتب ، وما روى من الشعر ، وما وعى من الأخبار والآثار . وأما عقله فقد وجد فيه ما حصل من العلم على اختلاف ألوانه ، ووجد فيه بنوع خاص هذه القدرة على استقصاء الأشياء والنفوذ إلى أعماقها .

ونظر أبو العلاء فرأى نفسه بين هذه الألفاظ التى لا تكاد تحصى ، وبين هذه المعانى والآراء التى لا تكاد تحصى أيضًا . ولم يجد معه إلا هذه المعانى وتلك الألفاظ . ثم نظر فوجد أوقات فراغ طويلة لا يطاق احتمالها ولا يمكن الصبر عليها . فما قيمة ما حفظ من اللغة ، وما قيمة ما حصّل من العلم إذا لم يعيناه على قطع أوقات الفراغ هذه ! غيره من الناس يلعب النرد والشطرنج ويضرب فى الأرض ، ويلم بالمجالس والأندية ، ويجدّ فى كسب القوت ، ويستمتع بألوان اللذات ، وليس هو فى شيء من هذا . فلم لا يلعب بهذه الألفاظ ؟ ولم لا يلعب بهذه المعانى ؟ ولم لا يتخذ من الملاءمة بينها على أكثر عدد ممكن من الأوضاع والأشكال والضروب سبيلا إلى التسلية والتلهية والاستعانة على الفراغ ؟ أما

أنا فما أشك فى أنى لم أخطئ ، ولم أخدع نفسى حين اعتقدت أنى شهدته يعبث بالألفاظ والمعانى ألوانًا من العبث لأنه لم يكن يستطيع أن يصنع غير هذا . ألوانًا من العبث كثيرة الاختلاف ، نثر مرسل ونثر مسجوع ، وشعر حر وشعر مقيد . والشعر الحر هو الذى يقوله الناس جميعًا فيلتزمون أوزانه وقوافيه المعروفة ، والشعر المقيد هو الذى يقوله أبو العلاء فيلتزم فيه ما لا يلزم . وهو لا يلتزم ما لا يلزم فى القافية وحدها ، وإنما يلتزم ما لا يلزم من المعانى أيضًا . وهو لا يلتزمه فى المعانى التى أودعها ديوان اللزوميات فحسب ، وإنما يلتزمها فى المعانى التى أودعها كتاب الفصول والغايات أيضًا .

وفى هذا الكتاب وفى هذا الديوان يتحدث إلينا أبو العلاء بأنه قصد إلى تمجيد الله والثناء عليه . وهو قد قصد إلى هذا وذاك من غير شك ، ولكن أين رأيت شاعراً أو فيلسوفًا يفرض على نفسه القول فى تمجيد الله والثناء عليه فى كتابين عظيمين يتألف كل واحد منهما من غير مجلد ، ويلتزم فى أحدهما النظم المقيد بقافيتين لا بقافية واحدة ، وربما التزم تقييده بأكثر من قافيتين . ويلزم فى ثانيهما هذا النثر المسجع المفصّل الذى تجتمع فيه اسجعات ملتئمة فيما بينها التئامًا داخليًّا ، إن جاز هذا التعبير ، ثم تنتهى كل جماعة منها إلى غاية بشرط أن تلتئم هذه الغايات فيما بينها التئاماً خارجيًّا ؟

ما حكمة هذا التضييق على النفس والتقييد لها ، وأخذها بهذا العنف الشديد فى اللفظ وفى المعنى ، وفى الأسلوب وفى الغرض ؟

وقد قلت فى غير هذا الكتاب إن حكمة هذا التحرج تتصل بحياة أبى العلاء نفسها ، وبالقانون الفلسفى الصارم الذى أخذ نفسه به وأخضعها له فى حياتها المادية والعقلية من التزام العزلة والإعراض عن النسل والانصراف عن لذات الحياة ، والإقبال على ألوان الرياضة العنيفة الشاقة . وهذا صحيح ، ولكن من الصحيح أيضًا أن أبا العلاء تسلّى بالشدّة عن الشدّة ، وتلهّى بالرياضة عن الرياضة ، واستعان على احتمال ما فرض على نفسه من العنف بتنويع هذا العنف نفسه والافتنان فيه . وقد كان أبو العلاء يستطيع أن يمجد الله فى كلام سهل مرسل فيريح نفسه من هذا الجهد الثقيل الذى احتمله فى الإنشاء ، ويريح قراءه من هذا الجهد الثقيل الذى يحتملونه فى القراءة والفهم . وكان أبو العلاء يستطيع أن يمجد الله ويذم فى الدنيا ، وينقد حياة الناس ويناظر الفلاسفة ، ويخاصم الفرق ، ويناقش ما جاءت به الأديان فى نثر مرسل أو فى شعر سمح حر فيريح نفسه من هذه القيود والأغلال التى احتمل ثقلها ، ويريح قراءه مما يتكلفون من فك تلك القيود ووضع هذه الأغلال عن معانيه . ولعله إن فعل أن يكون ذلك أدنى لشعره ونثره إلى روعة الجمال الفنى الممتاز ، وألطف مسلكًا

إلى قلوب الناس وأذواقهم ونفوسهم ، وأشيع لآرائه وأذيع لمذاهبه وأنهض لما كان يريد أن يقيم عليها من الحجج والبراهين . ولكنه أعرض عن هذا كله إعراضًا وأخذ نفسه بألوان العنف فى إنشاء ما أنشأ وتأليف ما ألف . وأخذنا نحن بألوان العنف فى قراءته وفهمه واستخلاص أغراضه ومراميه ، وضيّق على مذاهبه ميادينها ، وقلل عدد القارئين له والفاهمين عنه والمصغين إليه والمعجبين به . فلماذا ؟ لأنه أراد أن يشق على نفسه ! نعم ! ولكن أليس فى تأليف ما ألف من الكتب ، وإنشاء ما أنشأ من النثر ، ونظم ما نظم من الشعر مشقة كافية ، وأكثر من الكافية ، لو أنه تحرر من هذه القيود؟ ألأنه أراد أن يشق على الناس فيصرف العامة والدهماء عن الارتقاء إليه اتقاء لشرهم وتحفظًا من أذاهم ؟

هذا ممكن بالقياس إلى بعض المذاهب والآراء لا بالقياس إلى كثرة ما قال فى تمجيد الله ووعظ الناس . وهؤلاء الفلاسفة الذين عالجوا أشق مسائل الفلسفة وأدقها وأعلاها وأرقاها لم يتكلفوا فى ذلك . هذه القيود اللفظية التى تكلفها أبو العلاء ، ومنهم من كان يروض نفسه على الجهد والمشقة ، ومنهم من كان يضن بآرائه ومعانيه على السهولة واليسر اللذين يقربانها من أوساط الناس وأصحاب الثقافة المحدودة والرأى القصير ، فلا يتحرج هذا التحرج اللفظى الذى التزمه أبو العلاء ، وإنما يعمد إلى الرمز والإيماء ، وإلى الإشارة

والتلميح ، ويظفر من إلغاز معانيه بما يريد ، بل يظفر من ذلك بأكثر مما ظفر به أبو العلاء .

ففى اللزوميات مشقة على القارئ وإجهاد له ، ولكنها مشقة تحتمل وإجهاد يطاق . ولعل القارئ أن يجد فى هذه المشقة لذة حين يقهرها ، ولعله أن يجد فى هذا الجهد متعة حين يظهر عليه ، وهو منته آخر الأمر إلى الفهم عن أبى العلاء والوصول إلى أغراضه ومراميه . كلا ! لم يرد أبو العلاء أن يعذب نفسه ويشق عليها وعلى الناس فحسب ، وإنما أراد مع ذلك أن يسلى نفسه ويرفه عليها ، ويبهر الناس ويكرههم على إكباره والإعجاب به .

وأخرى يحسن أن تفكر فيها ، وهى أن أبا العلاء لم يلتزم مالا يلزم فى قصيدة أو قصيدتين أو فى طائفة من القصائد والمقطوعات ، ولم يلتزم ما لا يلزم فى طائفة من الفصول والغايات ، وإنما التزم ما لا يلزم فى عدد ضخم من القصائد والمقطوعات وفى عدد ضخم من الفصول والغايات أيضًا . أحصى حروف المعجم فوجدها ثمانية وعشرين حرفًا ، ثم أحصى الحركات التى يمكن أن تختلف على هذه الحروف فوجدها ثلاثًا ، وأضاف إليها السكون فحصلت له من هذا أشكال أربعة للقافية . فلما استقام له هذا الحساب أخذ نفسه بأن ينظم شعراً يقفيه بكل هذه الحروف مضمومة ومفتوحة ومكسورة وساكنة فيه ولو قد اكتفى بذلك لكان فيه الجهد كل الجهد

والعناء كل العناء ، ولكنه أضاف إليه التزام الحرف الذى سبق القافية فى البيت الأول من القصيدة أو المقطوعة ، بحيث لا توجد القافية فى أى بيت من أبيات القصيدة أو المقطوعة، إلا ومعها هذا الحرف الذى سبقها فى البيت الأول كما رأيت فى « الصعب » ، و « الرعب » و « الشعب » و « القعب » .

أفتظنه لم يفعل هذا إلا لأنه أراد أن يروض نفسه على الجهد فى الإنشاء ؟ كلا ! بل هو قد فعل هذا لذلك وليسلّى عن نفسه ألم الوحدة ويهوّن عليها احتمال الفراغ ، وليشعرها ويشعر الناس بأنه قد ملك اللغة وسيطر عليها ، فهو قادر على أن يسخرها لما يشاء ويصرفها كما يريد ، ويعبث بها إذا أراد العبث ، ويجدّ بها إن أراد الجد، بل ليعبث بها أثناء الجد فى كثير من الأحيان .

فلم أكن إذن مسرفاً ولا غالياً حين قلت إن اللزوميات نتيجة الفراغ واللعب أو نتيجة العمل الذى دعا إليه الفراغ والجد الذى جر إليه اللعب . ولكن أبا العلاء لا يقف بعبثه الفلسفى البرىء عند هذا الحد ، وإنما يتجاوزه أحياناً إلى فنون أخرى من العبث ليست أقل منه تسلية وتلهية له ولنا ، وليست أقل منه إثارة لرضائه عن نفسه وإثارة لإعجابنا به . ويكفى أن أنبه الآن من هذا العبث على ألوان ثلاثة فيها تفكهة ممتعة حقّاً . فأولها العبث بالنحو أو بالصرف إن شئت أو بهما جميعاً . وأيسر الأمثلة لهذا العبث بيتاه المشهوران :

مالى غدوتُ كقاف رؤبـةَ قيدَت
في الدّهر لم يُقدَرْ لها إجراؤهـا
أعلِلْتُ علةَ « قال » وهى قديمة
أعيا الأطبةَ كلهم إبراؤهـا

فقد أشار فى البيت الأول إلى أرجوزة رؤبة القافية التى ألزم رويّها السكون ولا يمكن أن يتحول عنه إلى حركة ما . يشير إلى حياته التى طالت عليه ، وألزمته سجنيه أو سجونه الثلاثة . وأشار فى البيت الثانى إلى اعتلال « قال » وما يشبهها من الأفعال التى تنقلب واواتها وياءاتها فى وسطها إلى الألفات ، فلا يمكن أن تتحول عنها ولا أن تبرأ منها . يريد أن حياته قد طالت عليه وثقلت وألزمته سجونه وما فيها من علل وآلام ، ويفسر هذين الرمزين قوله بعد ذلك :

طال الثواء وقد أنَى لمفاصـلى
أنْ تستبدّ بضمها صَحْرَاؤهـا
فـترتْ ولم تَفتُـر لشرب مدامـة
بل للخطوب يغـولها إسراؤهـا
مُلّ المقـامُ فكم أعاشرُ أمـةً
أمرت بغير صلاحهـا أمراؤهـا !

وما أرانى أخطأت حين رأيت رضاه عن هذين البيتين ، وحين

سمعته يكرر إنشادهما فى خلوته إلى نفسه فى ظلمة الليل أو فى وضح النهار ، فكلاهما ظلمة بالقياس إلينا جميعاً . وما أرانى أخطأت حين رأيت كتّابه وطلاّبه الذين لم يكونوا يكتبون ، يعجبون بهذين البيتين حين أملاهما الشيخ ذات صباح أو ذات مساء ، أشدّ الإعجاب ويستعيدونهما مرة ومرة لأنهم كانوا يحبون أن يسمعوهما من الشيخ ينشدهما فى صوته الممتلئ الشاحب ، وعلى وجهه ابتسامة ليست أقلّ شحوباً من صوته ، ولكنها تدل على الرضا بهذا الفوز الفنى الظريف .

وما أظننى أخطأت حين سمعت الكتاب والطلاب يرددون هذين البيتين بعد انصرافهما عن الشيخ ، يريدون أن يحفظوهما ويقرّوهما فى قلوبهم .

واللون الثانى من ألوان هذا العبث الذى كان يتفكه به أبو العلاء ويفكه به طلابه وقراءه هو عبثه بالألفاظ اللغوية يوردها مشتبهة ، ثم يفسرها كما يفسر علماء اللغة ما يعرض لهم من الألفاظ المشكلة ، وبنفس الأسلوب الذى يفسرون به هذه الألفاظ . ولست أضرب لذلك إلا مثلين اثنين . أحدهما قوله :

نوديتُ ألويتَ فانزلْ لا يُراد أتى
سيرى لِوَى الرمل بل للنبت إلواء

وقد زاد هذا التفسير إيضاحاً بقوله بعد هذا البيت :

وذاك أنّ سـواد الفوْد غـيره
في غُـرّة من بياض الشيب أضواء

والثاني قوله :

وكلُّ أديب أيْ سيدعى إلى الردى
من الأدْب لا أنّ الفتى يتأدب

فانظر إليه في البيت الأول كيف استعمل لفظ « ألويت » ثم فسره مبينًا أنه لم يشتق من اللوى الذى يكون من الرمل ، وإنما اشتق من ألوى النبات ، إذا تغير وذوى .

وانظر إليه في الثاني كيف استعمل لفظ الأديب الذى يمكن أن يتوهم اشتقاقه من الأدب بفتح الدال ثم فسره مبينًا أنه لم يشتق من هذا اللفظ ، وإنما اشتق من الأدب بسكون الدال ، وهو الدعاء إلى الطعام .

ويذكّر هذا البيت بقوله في قصيدة أخرى :

وما أدبَ الأقـوام في كل بلدة
إلى الميْن إلاّ معشـرٌ أدبـاءُ

واللون الثالث من ألوان هذا العبث أهم من هذين النوعين وأجلّ خطراً ، لأن أبا العلاء لا يقصد به إلى مجرد التظرف الفنى ، ولا إلى مجرد التفكه ، ولا إلى الجمال الفنى الخالص وحده ، وإنما يقصد به إلى هذا كله وإلى إظهار البراعة والتفوق اللغوى ما في ذلك

شك . وهو نوع من الجناس ظريف يلتزم فيه أبو العلاء لفظ القافية نفسه فى أول البيت أو فى وسطه بحيث يتكرر هذا اللفظ فى البيت الواحد مرتين ، ويدل على معنيين مختلفين فيجمع بين الجناس وبين ما يسميه أصحاب البديع ردّ الصدر على العجز . وربما اكتفى أبو العلاء أحياناً بالجناس المقارب الذى لا تتشابه فيه الحروف كلها فى الكلمتين وإنما يتشابه أكثرها . ولو أن أبا العلاء عمد إلى هذا الجناس فى البيت بين حين وحين لكان هذا منه مستظرفاً مستحبًّا كشأنه فى هذا العبث اللغوى أو فى ذلك العبث النحوى ، ولكنه يلتزمه فى القصيدة كلها أو فى أكثرها . والغريب أنه إذا عمد إلى هذا النوع من الجناس فى قصيدة طوّلها وتجاوز بها قدر المألوف من القصائد والمقطوعات فى اللزوميات مبالغة فى إظهار براعته وتفوقه وسيطرته على اللغة . وكيف لا وهو يلتزم ما لا يلزم مرتين ، مرة فى أول البيت ومرة فى آخره ، ويلتزمه فى القصيدة الطويلة المسرفة فى الطول .

ولست أضرب لهذا مثلا بالبيت أو البيتين ، وإنما أروى لك من اللزوميات قصيدة أو قصيدتين كاملتيْن لتشاركنى فى هذا الابتسام الذى لا يفارقنى أثناء قراءتى لهذا النحو من الشعر ، والذى يصور ما أراد أبو العلاء أن يثيره فى نفوسنا من الإعجاب به والإيمان له بالبراعة والسبق .

ولعل من الخير أن تستريح منى لحظة إلى أبى العلاء نفسه :

خوى دَنُّ شَرْب فاستجابوا إلى التقى
فعيسُهم نحو الطواف خوادى
توى دَيْنٌ فى ظنه ما حرائرٌ
نظائرَ آمٍ وكَّلتْ بتوادى
رُويدك لو لم يُلحد السيفُ لم تكن
لتحمل هامَ الملحدينَ هوادى
تغيَّرت الأشياءُ فى كل مواطن
ومَن لجواد ناثلا بجواد ؟
فما للسوادى بالمعاشر فى الدُّجى ؟
لقد غفلتْ عن رحلة بسواد
وليس ركابى عن رضاىَ عوادنًا
ولكنْ عاداها أن تسيرَ عوادى
أتجمعُ فى ربع قيانٌ كأنها
شوادنُ باللحن الخفيف شوادى ؟
بوادٍ نأتْ عنه العيونُ وعنده
بوادنُ للأمر القبيح بوادى

وما تُشبهُ الشمسُ الروادنُ مُرَّداً
كخيلٍ بميدان الفســوق رواد
وكلّ رَوَاد لا تُصــابُ أبيَّةً
متى نوزعتْ فى منطق لــرواد
فهل قاتلٌ منهنّ غيــداءَ مرّة
فوادٍ وهل للمومســات فوادى ؟
تفرّعتِ الجُرْدَ العرابَ لعــزّة
كوادنُ بين المقرفــات كوادى
تروحُ إليهنّ الغواةُ عشــية
وهُنّ على ضد الجميــل غوادى
حوى دين قوم ما لهم فنفوسهم
إلى الفتكات المخزيــات حوادى
وقامت على أهل الرشــاد نوادب
وغصّتْ بأهل المنديــات نوادى
أوى ديرَ نصرانيــة متظــاهرٌ
بنسكٍ ، ألا إن الذئابَ أوادى !
سوى ديدن الجُهّال يذهب عنهم
وقد طــال جهرى فيهم وسوادى

وتـــدرى المواضى ما دواءُ دوائب
يـَبتـَنَ لرَهـْط المـــرء شرَّ دوادى
وإنَّ دُواداً حين أنكر عقلـــهُ
لغــيرُ مـقيت عنــدَ أمّ دواد
أتأمـُل رِيـّـــا بالـــورود ركائب
صوادرُ عن صـــدّاء وهى صوادى

ولكن هذه القصيدة قصيرة ، وهى على قصرها تغنى فى التمثيل بما أردت التمثيل له ، وفى إثبات ما أردت إثباته ، ولها نظائر كثيرة فى اللزوميات .

ولكنى مع ذلك لا أكتفى بها ، وإنما أروى لك قصيدة أخرى أطول منها جدّا ، لتزداد علمـًا بالبراعة اللفظية لأبى العلاء، واقتناعـًا بأنه كان يسلى نفسه بهذا العبث الفنى ، وابتسامـًا لهذه التسلية الساذجة ، التى كان الناس يعجبون بها أشدّ الإعجاب فى ذلك العصر ، والتى نعجب بها الآن ولكن مع ابتسام يوشك أن يكون ضحكـًا بل إغراقـًا فى الضحك .

وقد كنت أستطيعُ أن أنبهكَ إلى مـَوضع القصيدة من اللزوميات وأكتفى بذلك من روايتها ولكنى أشفق عليك من الكسل ، وأخشى ألا يكون الديوان قريبـًا منك وأنت تقرأ هذا الحديث ، فأعتمدُ على الله فى إثبات هذه القصيدة ، واعتمد

أنت على الله فى قراءتها ، وسنلتقى بعد الفراغ من هذه القراءة إن شاء الله :

أوانىَ هـــــمٌ فألْقَى أوانى
وقد مرّ فى الشرْخ والعنفـــــوان
وَضَعْتُ بُــوانىَ فى ذلـّة
وَألْقيتُ للحادثات البـــــوانى
ثوانىَ ضيف فلم أقـــرِه
أوائــلَ من عـَزْمتى أو ثــوانى
فيــــا هُنْدُوانٍ عن المكرُما
ت من لا يُســاورُ بالهنـــدوانى
زوانىَ خــوفُ المقــام الذميـ
ـم عن أن أكون خليلَ الزوانى
رَوانىَ صـــــبرى فأضحتْ إلىَ
عُيــونٌ على غـَفـَلاتِ رَوَانى
عـَوَانى قضــاءٌ دُوينَ المــراد
وما بِـكرُ شـَأنكَ مثلُ العــوان
وهل جـَعـَلَ الشـــائمات الوميضَ
توانىَ غـَيـْرُ اتصال التـــــوانى

فمـــــا لركابك هــذى الوقوف
عــدا حاديَيها الذى يرجــوَان

حــوانىَ للــــــورِد أعناقهـــا
وما علمتْ أىّ وقت حـــــوانى

ولم يلــقَ فى دَهْره أجْــرَبى
هَــوَانىْ فَليْنــــاً عنى هَــوَانى

وَعنـــدىَ سرٌّ بذىْ الحـــديث
كَنَتْ عنـــه فى العالمينَ الغـــوانىَ

إذا رَمْلـــةٌ لم تجئْ بالنبـــات
فقـــد جَهلتْ أن سَقتها السوانى

جَرَيْتُ مع الدهـــر جرْىَ المطيـــ
ع بين الليــــــاحىّ والأرجُوَانى

كأنّىَ فى العيش لَدْنُ الغصـــو
ن من شـــــاءَ قوّمنى أو لـــوانى

ولا لـــونَ للمـــاء فيما يقـــال
ولـــكنْ تلـــــوُّنهُ بالأوانى

وفى كلّ شرٍّ دعتـــهُ الخطـــوبُ
شـــــواسع منفعـــــة أو دوانى

وأجـزاءُ تِرْيَاقهم لا تتم
إلاّ بجُزْءٍ من الأفعوان

فلاَ تمدَحاني بعين الثناء
فأحسنُ من ذاك أن تهجواني

وإنّيَ من فكرتي والقضا
ء ما بينَ بحرين لا يَسجُوَان

وأنّ النهار وأن الظلامَ
على كلّ ذى غفلة يَدْجُوان

وكيف النجاءُ وللفرقدين
فضلٌ وآليتُ لا ينجوان

فلِمْ تطلبا شيمي ناشئين
وعما لطفتُ لهُ تجفوان

فإنْ تقفُوَا أثرى تُحْمَدا
وإن تعرفا النهجَ لا تقفُوَان

وقد أمَرَ الحلمُ أن تصفحا
ونادى بلطفٍ : ألا تعفوَان

فلن تقْذيا باغتفار الذنوب
ولكن بغُفرانها تصفوان

ولولا القـــذى طِرْتما فى الهـــواء
وفى اللـــجّ ألفيتمـــا تطفُوان

فكونا مع النـــاس كالبـــارقَين
تَعمّـــان بالنـــور أو تحفـــوان

فـــلم تحلقـــا مـلَكَىْ قُـــدرةٍ
إذا ما هفـــا الإنس لا تهفـــوان

ألم تريـــــا عُصُرَىْ دَهْـــرنا
يَؤودان بالثِّقـــــــــل أو يأدُوَان

وما فتيَىْ الفتيـــــان الحيـــاةَ
يروحان بالشرّ أو يغـــــــدوان

عـــدوّان ما شَعــرَا بالحمـــام
فـــكيف تظنهمـــا يعـــدُوَان

ألا تَسمـــعُ الآنَ صَوْتيهمـــا
بكلّ امرئٍ فيهمـــا يحـــدُوَان

وَمـــا كشف البحثُ سرّيهمـــا
وَما خلتُ أنهمـــا يبـــدُوَان

وكَمْ سَـــــرَوَا عَالمًا أوّلاً
وَمَـا سَرُوَا . فـــتى يَسْرُوَان

وَبينهمـــــا أهـلَكَ الغَـــابريـ
نَ ما يـقريان ومَـا يـقـرُوَان
إذا مـــا خــلا شـبحى منهمـــا
فـــا يـقفــرَان ولا يخــلوَان
قـلينـــا البقــــاءَ ولم يـبرَحـا
بنـــا فى مـرَاحلــه يـقــلُوَان
وكم أجليا عن رجـــال مـضـوْا
وَأخبــارَ ما كان لا يجلُســوَان
كما خـلُقَـــا غـبرا فى العصــو
ر لا يـرخُصَـــان ولا يـغــلُوَان
تمــرّ وتحــلو لنـــا الحادثاتُ
ومـــا يـمقِــران ولا يحــلوان
إذا تـلـــــوا عظـــة فالأنــا
مُ لا يـــأذنونَ لمـــا يتــلُوَان
مـغِـذّان بالنـــاس لا يلغُبـــان
وسَـــــيفانِ لله لا ينبـــوان
ولو خـلُقا مثــل خـلق الجيـــاد
رأيتهمـــا فى المـــدى يكبُـــوان

لعلكمـــــا إن تَهُبَّ الصَّبـا
إلى بلـــد نـــازح تَصـــبُوان

فـــلا ريبَ أن الـــذى تُحبيـَا
ن أفضـــلُ منـــه الذى تحبـــوان

فعيشـــا أبيَّيْنِ للمخـــزيا
ت مثـــل السماكين لا تأبـَوان

إذا شـــبت الشّعـــريان الوقـــودَ
فى الحُـكم أنهمـــا تخبـــوَان

وكونا كريمـــــين بين الأنيـــ
ـس لا تَنمُلان ولا تَأثوَان

إذا الخيلَ أعرضَ لم تُلفيـــا
لســـوء أحاديثـــه تَنشُـــوَان

وإن لم تَهيـــلا إلى مُعـــدِم
طعـــامًا فيكفيه مـــا تحثـــوان

وَجَهـــلٌ مُـــرَادُكمـــا فى المقيـ
ـظ عهـــداً من الوردِ والأقحـــوان

ومـــا الحاديان ســـوى الجنـــدُبيـ
ـن فى حـــرّ هاجـــرة ينـــزوان

وما أمِنَ البـازيان القِصاص
وأنْ يؤخذا بالذى يبزُوَان

فإن تُهملا كلّ ما تخزُنان
فلم يأت بالخزى ما تخزُوان

ولا توجَدان أبداً كاهنين
تروعان قومًا بما تحزوان

ونُصّا إلى الله مَغزاكما
فذلك أفضلُ ما تغزوان

ولا تَعزوَا الخير إلا إليه
فيُجْنِى الشفاءُ بما تَعزُوَان

وإن عُرّيتْ كاسياتُ الغصو
ن فلتكسوَا الدّفء مَن تكسوَان

وضَنّا بعمركما أن يضيعَ
ولا تُفنيا وقْته تَلهوان

بذكر إلهكما فأبهَا
لعلكما بالتقى تَبْهُوَان

فيا رُبّ طاهى ضلال يبيـ
تُ متخذاً طُعمه يطهوان[1]

---

(١) يشير إلى الليل والنهار .

وَسَـــــيرا وَساعَينَ فى المكـــرما
ت لا تَدلجـــان ولا تَقطـــوان
مَطـــا بكما قَدَرٌ لا يـــزالُ
جَديداه فى غَفلـــة يمطـــوان
فَوَيْح لخـــــاطئٍ مـــارد
تَنصّان فى مالـــــه تخطُوان

فأيسر ما تلاحظه فى هاتين القصيدتين وفى أمثالهما بين قصائد اللزوميات ومقطوعاتها ، وهو كثير كما قدمت ، أن أبا العلاء يعنى فيها بالألفاظ أشد العناية وأقواها ؛ كأنه قد أخذ على نفسه عهداً أن يستخرج منها كل ما يستطيع استخراجه ، وأن يخضعها لكل ما يستطيع إخضاعها له ، ويصرّفها فى كل ما يمكن تصريفها فيه . فقد رأيت تحكمه فيها من جهة القافية ، واشتراطه على نفسه فى هذا الديوان ألا يقفّى على حرف واحد بل على حرفين دائماً وعلى ثلاثة أحرف أحياناً ، وبشرط ألا يضطره ذلك إلى إفساد المعنى أو الانحراف عن مستقيم القول إلى محاله . وتلاحظ فى هذه القصائد التى يصطنع فيها هذه الأنواع من الجناس ويرد أعجازها على صدورها أنه يتحكم فى الألفاظ تحكماً من نوع آخر ؛ فهو يلتزم ما لا يلزم فى أول البيت كما يلتزمه فى آخره ، وهو يلتزمه فى القصيدة كلها أو فى أكثرها . وهو يُكره الألفاظ التى لا تُوافق

بينها أحيانًا على أن تلتئم ، وعلى أن تلتئم دون أن تغيِّر من المعنى قليلا ولا كثيراً ، وعلى أن تلتئم دون أن تنبو عن الطبع أو ينبو الطبع عنها نبواً قبيحًا . فإذا كان شيء من هذا النبو فلا بد من أن يحدث للسمع أو للنفس لذة ما ، كهذا التخالف الذى يحدثه أصحاب الموسيقى بين الأنغام قاصدين له عامدين إليه يتخذونه جزءاً من نظامهم الموسيقى .

فانظر إلى هذا البيت مثلا وما أكثر أشباهه فى هاتين القصيدتين وفى أمثالهما :

خَوَى دنُّ شَرْب فاستجابوا إلى التقى

فَعيسُهمُ نَحوَ الطوَاف خَوَادى

أترى إلى الشطر الأول منه كيف يؤدى معناه أداء حسنًا دون أن يظهر فيه تكلف أو تعسف أو إكراه للفظ على ما لا يريد : وأى شيء أيسر من أن يقول الشاعر إن جماعة من الفساق قد استجابوا إلى التقى لأنهم لم يجدوا ميدانًا للفسق ؟ عكفوا على ما كان عندهم من الخمر ، فلما استنفدوه استجابوا إلى التقى ! ثم انظر إلى الشطر الثانى فستراه نتيجة للشطر الأول ، فإبل هؤلاء الناس تسرع بهم إلى الحج ، ولكنك تصادف هذا التوافق اللفظى بين أول البيت وآخره ، فتدهش له وتقف له وتقف عنده ، وتحس أن الشاعر لم يصل إليه عفواً ، ولم يبلغه فى غير تكلف ولا جهد ، ولكنه اختار

عن عمد كلمة « خوى » ، وكلمة « الدن » ، ليجمع فى أول البيت بين الخاء والواو والألف والدال التى لا بد له من أن يختم بها البيت ، وليتحقق له بذلك الجناس على بعض أشكاله كما يتحقق له التزام ما لم يلزم فى أول البيت وفى آخره . فإذا وصلت إلى هذا فستستبين فوراً أن البيت كله نتيجة لهذا التكلف وأثر من آثاره . ولولا أنه قصد إلى هذا النحو من الجناس لأمكن جداً أن يأتى البيت على غير هذه الصورة وفى غير هذه الألفاظ. فليس من الضرورى أن يعبر الشاعر عن استنفاد الشرْب لما عندهم من الخمر بأن دنّهم قد خوى ، وقد كان يستطيع أن يجد من آنية الخمر أشياء غير الدن ، وأن يجد للدلالة على فراغ هذه الآنية فعلا آخر غير « خوى » . وكذلك كان يستطيع أن يعبر عن إسراع القوم إلى الحج بغير خدَيان العيس ، كما كان يستطيع أن يصور استجابة القوم إلى التقى بغير الإسراع إلى الحج كالعكوف على الصلاة أو الانقطاع إلى الصوم . ولكنه محتاج إلى قافية فيها دال مكسورة وواو بينهما ألف ، وقد استعرض ما حفظ من اللغة فوجد كلمة الحوادى ، ثم هو محتاج إلى أن يبدأ البيت بما يشاكل آخره فيستعرض ما يحفظ من اللغة فيجد كلمة خوى وكلمة الدن ، ويجتمع له منهما ما يشبه القافية .

وما أكثر ما تجد هذا ، قافية تلتزم ويصعب على الشاعر أن يجد كلمة واحدة تشبهها ليبدأ بها البيت ، فيؤلف هذا الشبه من

كلمتين ، يأخذ الكلمة الأولى كلها ويأخذ حرفًا من الكلمة الثانية .
وقد فعل هذا نفسه فى البيت الذى يأتى بعده ذلك وهو :

تَوى دَيّن فى ظنه ما حــــــرائرٌ
نظائـــرَ آمٍ وكـلَّتْ بتـــوَادى

فالقافية هى التوادى ، فيها كما ترى الواو والألف والدال والياء ؛
ولم يستقم للشاعر لفظ واحد فى أول البيت يشْبه آخره فحقق هذا الشبه بالجمع بين لفظين يأخذ اللفظ الأول كله ، وفيه التاء والواو والألف ، ويأخذ حرفين من اللفظ الثانى وهما الدال والياء . وقد يعجزه تحقيق هذا الشبه مهما يسلك إليه من الطرق فلا يعدل به ذلك عما قصد إليه من تحقيق الجناس على نحو من الأنحاء ؛ على نحو أوسع من المألوف بحيث لا تخلو القصيدة أو لا يخلو أكثرها من الجناس الصريح أو الجناس المتوهم .

فانظر إلى هذا البيت :

رويدَكَ لو لم يُلحد السيف لم تكن
لتحمـــل هامَ الملحـــدين هوادى

فالقافية هنا « هوادى » كما ترى ، ولم يستطع الشاعر أن يجد كلمة واحدة ليبدأ بها البيت ، ولا أن يجد كلمة وبعض كلمة ، فلم يؤيسه ذلك ولم يقف به فى وسط الطريق . وما له لا يعدل عن الجناس الصريح إلى جناس ملحوظ ؟ فإذا قرأت البيت فسترى

فيه الهاء والألف فى « هام » ، وسترى فيه الدال والياء فى « الملحدين » ، وسترى فيه الواو فى « رويدك » وفى « لو » ، وسترى بعض هذه الحروف مكرراً فى كلمات أخرى ، بحيث لا تصل إلى القافية إلا وقد نطقت بحروفها كلها ، فأنت تعيد النطق بها مجتمعة حين تنطق بالقافية . على أنه لم يلبث أن عاد سيرته الأولى فحقق الجناس الصريح بين القافية وغيرها من بعض ألفاظ البيت كما ترى حين تمضى فى قراءة القصيدتين .

وأنا واثق بأنك قد تضحك من هذا الكلام إن كنت حسن الاستعداد أثناء قراءته ، وقد تضيق به وتعرض عنه إن كنت سيئ الاستعداد حين تبلغ هذا الموضع من الحديث ، ولكن هذا لن يغير من الأمر شيئاً . فقد قصد أبو العلاء إلى هذا العبث اللفظى وأطال التماسه وجدّ فى البحث عنه ورضى حين انتهى إليه ، ووجد من سامعيه وقرائه من رضى عنه كما رضى ، وابتهج به كما ابتهج ، وقد كان هذا التكلف اللفظى شائعاً فى عصر أبى العلاء ومن قبل أبى العلاء بزمن طويل ، وقد ظل شائعاً بعد أبى العلاء والناس يختلفون فى الرضا عنه والسخط عليه . ولست أرضى عنه كل الرضا ولا أسخط عليه كل السخط ، ولا أحب أن أوجه شباب الكتاب إلى هذا المذهب أو ذاك ، وإنما أنا أتوسط بين الأمرين ، وأحب أن يقاوم شباب الكتاب والشعراء بعض المقاومة هذه الثورة العنيفة

التى ثرناها على العناية باللفظ ، وأن يقدروا أن للألفاظ فى نفسها قيماً ذاتية ، إن صح هذا التعبير ، تقدرها الأذن وتحدث فى النفس لذة موسيقية خاصة لا ينبغى أن يهملها الأديب ، بل يجب أن يعنى بها ما وسعته العناية بشرط ألا تفسد عليه معناه ولا تضطره إلى الهذيان والاستغلاق .

والمهم هو أن أبا العلاء لم تصرفه فلسفته العليا ، ولا زهده فى زخرف الحياة عن جمال اللفظ وزينته ، وعن تكلف هذه الزينة وذلك الجمال ، وعن اتخاذهما وسيلة إلى اللهو البرىء والتسلية التى لا تعقب حسرة ولا ندماً .

على أن عناية أبى العلاء بالألفاظ واستعانته بها على قطع الوقت واحتمال الحياة تثير فكرة أخرى لا تخلو من ظَرْف لأنها تصور تناقضاً شديداً ، فقد كان مستقراً فى هذه النفس الممتازة وفى هذا العقل الغريب وهو مستقر فى أمثالها من نفوس الشعراء والكتاب الممتازين .

فهذا الرجل الحر الذى لم يعرف المسلمون من يشبهه فيما أباح لنفسه من حرية عقلية لا يستطيع أن يتمتع بها مسلم فى هذا العصر الحديث ، عصر الدستور والديمقراطية النيابية ، هذا الرجل الحر فى رأيه وتفكيره وفيما تصوّر وفيما خيل إلى نفسه وإلى الناس وفيما انتهى إليه من حكم ، وفيما دعا إليه الناس من مذهب ، هذا

الرجل الذى تجاوز الحرية إلى الثورة قد فرض على نفسه قيوداً محكمة وأغلالا ثقالا . وليس المهم أنه فرض على نفسه العزلة واجتناب الزواج . والنسل ، والإعراض عن لذات الحياة والاكتفاء بأغاظ ما أتيح له من العيش ، فهذه كلها قيود وأغلال تقتضيها فلسفته؛ فهى نتيجة عملية فى السيرة لهذا النحو من التفكير الذى دفع الرجل إليه . وإنما المهم أنه حرر نفسه من القيود الدينية والاجتماعية والطبيعية أيضًا ، ثم فرض عليها هذه القيود الفنية التى ننظر إليها فنبتسم ، والتى أقل ما توصف به أنها ساذجة لا تلائم جد الفيلسوف ومرارته .

وما رأيك فى رجل يحرّم على نفسه طيبات الثمر والزهر وألوان اللذات النقية البريئة ، ثم يفرض على نفسه الجناس وأشباهه من ألوان البديع ، ويفرضه على نفسه فى الشعر والنثر وفى أسفار ضخمة ودواوين طوال !

هذه فكرة يحسن أن نروّى فيها بعض الشىء فقد نجد فيها ما يسلّى ، وقد نجد فيها ما يعظ ؛ وقد نجد فيها ما يعجب حين نلاحظ أن بعض الفلاسفة قد يبلغون من كبر العقل وقوّته ، ومن حصافة الرأى ونفاذ البصيرة ، ومن صرامة العزم ومرارة الجد ما شاء الله أن يبلغوا ، ثم لا يمنعهم ذلك من أن يسلوا عن أنفسهم بألوان من العبث البرىء ربما يحسدهم عليها الأطفال .

على أن التزام أبى العلاء ما التزم من القيود الفنية، وتعلقه بما تعلّق به من زينة اللفظ ، وإغراقه فى ذلك وتهالكه عليه لم ينتج له الخير الفنى من جميع الوجوه .

فقد نسرف على أنفسنا وعلى الفن الأدبى إن ظننا أن شعر اللزوميات جيد كله من هذه الناحية الفنية الخالصة . بل نسرف على أنفسنا وعلى الفن الأدبى إن ظننا أن كثرة هذا الشعر جيدة ، وإنما المحقق أن الجيد من شعر اللزوميات قليل يمكن أن يستخلص فى مجلد نحيف يجمع إلى الجمال الفنى خلاصة الفلسفة العلائية كلها . ولولا أن أبا العلاء لم يكن يقصد إلى الفلسفة وحدها ، وإنما كان يقصد إلى البراعة اللفظية والاستعانة على الوقت والتسلى عن الحياة وآلامها ، لقد كان يستطيع أن يقول للناس ما أراد أن يقول ، وأن يصور لهم ما أراد أن يصور من آرائه فى الإلهيات والنبوّات والحياة الاجتماعية فى أيسر اللفظ وأقله وأسرعه مدخلا إلى النفوس . ولكنه لم يُرِد شيئًا من هذا وإنما أراد أن ينظم شعراً على حروف المعجم كلها مضمومة ومفتوحة ومكسورة وساكنة ، وأن يلتزم مع ذلك حرفًا ثانيًا أو حرفين آخرين . ولا بد له من أن يستوفى هذا الشرط مهما يكلفه ذلك من الجهد ومهما يحمله ذلك من العناء ، لأنه قد جعل ذلك غاية لنفسه وفنه ، وأخذ نفسه بالوصول إلى هذه الغاية . فكان أول ما أنتج له هذا التكرار والإعادة اللذين ينتهيان

بالقارئ إلى ملل وسأم لا سبيل إلى وصفهما ، ولا إلى احتمالهما إلا أن يكون القارئ من الذين يتخذون البحث صناعة ، أو من الذين قد ألفوا التشاؤم كما ألفه أبو العلاء . . فهو لا يكره أن يبدى فيه ويعيد .

فالذى يبغّض هذا التكرار إلى النفس ويثقله على الطبع أن أبا العلاء لا يكرر أشياء يحب الناس أن يسمعوها ، أو يكلف الناس بأن يلموا بها بين حين وحين . وإنما هو يكرر أشياء بغيضة إلى النفس لأنها تبغض إليها الحياة وتصرفها عنها وتؤيسها منها . . . وقد يستحب الناس من ذلك ، بل قد يجب على الناس أن يستحبوا من ذلك شيئًا ، يقوّمون به أخلاقهم ويثقفون به عقولهم ، ويروضون به نفوسهم على احتمال المكروه والثبات للخطوب ، ويردّون به نفوسهم عما قد يدفعهم إليه النعيم أحيانًا من البطر والأشر .

ولكن هذا شىء والإغراق فى بعض الحياة وتبغيضها وتصويرها فى أبشع الصور وأقبح الأشكال شىء آخر ، ولا سيما حين ينظم فيه ديوان يتألف من مجلدين ضخمين وكتب منثورة لا نستطيع أن نحصى صحفها ، لأن أيسرها قد وصل إلينا وأكثرها قد حجب عنا ، ولعله يكشف لنا كله أو بعضه فى يوم من الأيام .

على أن التكرار ليس هو العيب الوحيد أو الظاهر الذى اضطر إليه أبو العلاء حين أخذ نفسه بهذه القيود الفنية ، وإنما هناك

عيب آخر ربما كان أشدّ منه خطراً . فقد نستطيع أن نعتذر عن أبي العلاء من هذا التكرار بأنه لا يستطيع أن يعطى إلا ما عنده ، ولم يكن عنده إلا التشاؤم . وقد أعطانا من التشاؤم ما استطاع ؛ وما ينبغي أن نكلّف الشعراء فوق ما يطيقون . فأنت تظلم أبا نواس إن طلبت إليه التشاؤم ، وتظلم أبا العلاء إن طلبت إليه الابتهاج . وأبو العلاء لم يفرض على الناس قراءة كتبه ودواوينه ، وإنما تركها لهم يقبلون عليها أو يعرضون عنها وليقرءوها كلها أو بعضها، وليأخذوا منها بما يحبون وليرفضوا منها ما لا يحبون .

فقد يمكن الاعتذار من تكرار أبي العلاء ، ولكن هناك عيباً لا يمكن الاعتذار منه وهو الاستسلام للفظ إلى هذا الحد ، وتحكيم اللفظ وحده فى المعنى والفن إلى الحد الذى انتهى إليه أبو العلاء . أن يفرض الشاعر على نفسه اصطناع الجناس أو غيره من ألوان البديع فى كل ما يقول من الشعر أو فى بعضه دون بعضه الآخر هذا شيء مألوف قد نقبله وقد نرفضه ، وقد نرتاح إليه وقد نزورّ عنه . ولكن أن يتخذ الشاعر الخضوع للقافية ، وللقافية وحدها ، قانوناً فنياً صارماً يذعن له الإذعان المطلق لا فى قصيدة ولا فى قصيدتين ولا فى قصائد بل فى ديوان ضخم ، وأن يشترط فى هذه القافية هذا الشرط القاسى الذى اشترطه أبو العلاء ، وأن يلتزم هذا الشرط ويجريه فى جميع حروف المعجم مهما تكن هذه الحروف

ومهما تكن المعانى التى يريد الشاعر أن يقول فيها ، هذا هو الشيء الذى لا يطاق ولا يمكن أن ينتهى بصاحبه إلى الخير . ومن هنا تطول القصيدة وتقصر وتنبسط المقطوعة وتنقبض ، لا لأن المعنى يريد الطول أو القصر والانبساط أو الانقباض ، بل لأن القافية التى اشترطها الشاعر على نفسه تواتيه فيمتد النفس ، أو لا تواتيه فيقصر النفس . وقد تضيق أنت بهذا الطول لأن الشاعر أدّى إليك ما كان يريد أن يؤديه ، ولولا القافية لا كتفى بالمقدار اليسير من الأبيات . وقد يعجبك المعنى ويرضيك ، وربما أعجبك اللفظ نفسه وأرضاك أيضًا ، فأنت فى حاجة إلى أن يطيل الشاعر بعض الشيء لأن صوته يعجبك ، ولأن نغمته تلذك ، ولأن معناه يلائم هوى فى نفسك ، ولكن الشاعر ينقطع بك عند البيتين أو الأبيات ، لا لأنه أرضى نفسه وأدّى ما كان يريد أن يؤديه ، بل لأن القافية تضطره إلى الوقوف وتكرهه على الانقطاع .

وهذا يثير فى نفس القارئ ، سواء أحب ذلك أو لم يحببه ، شيئًا غير قليل من الغيظ . وقد يدفعه إلى لوم أبى العلاء والتشديد عليه فى اللوم ، ولكن يجب أن نذكر أن أبا العلاء لم يفكر فى السامع وفى القارئ وحدهما حين أنشأ ما أنشأ من اللزوميات ، وإنما فكر فى نفسه معهما ، بل هو فكر فى نفسه قبل أن يفكر فيهما . أراد أن يعبر عما لم يجد بدًّا من التعبير عنه . ويصور ما لم

يجد بدًّا من تصويره . وأراد بنوع خاص أن يسلى نفسه ويلهيها كما قدمت . فرض الرجل على نفسه لوناً من ألوان الرياضة الشاقة ؛ فقد يلائمك هذا اللون من ألوان الرياضة وقد لا يلائمك ، ولكن هذا آخر ما يحفل به أبو العلاء .

ولعل أبا العلاء نفسه قد صور هذا المعنى أجمل تصوير وأروعه فى هذه الأبيات التى أحبها أشدّ الحب وكلف بها أشدّ الكلف ، وأراها تصور النفس الممتازة ذات الشخصية القوية أصدق تصوير وهى قوله :

خُذِى رَأيِى وحسبك ذاك منّى
على ما فىّ من عوجٍ وأمْتِ
وماذا يَبْتَغِى الجُلساءُ عندى
أرادُوا مَنطِقى وَأرَدْتُ صَمْتِى
وَيُوجَدُ بينَنا أمَدٌ قَصِىٌّ
فَأَمّوا سَمْتَهم وَأَمَمتُ سَمْتِى

وندع البيت الثانى من هذه الأبيات فقد نعود إليه بعد حين ؛ وإنما نقف عند البيت الأول والبيت الثالث . فأبو العلاء يقدم رأيه للناس ويرى أنهم لا يملكون أن يطالبوه بأكثر من هذا الرأى ، بل هو يرى أن الناس يجب أن يأخذوا رأيه على ما فيه وفى صاحبه من عوج وأمت . وليس لهم أن يقوّموه ولا أن يقوموا رأيه ، وإنما

لهم أن يقبلوا منه هذا الرأى أو أن يردّوه عليه . وما أعرف اعتداداً بالحرية العقلية والشخصية الفلسفية يشبه هذا الاعتداد .

وأبو العلاء يعرف أنه معوجّ ويعرف أن فيه أمتًا وانحرافًا ، ولكنه يعرف أن ذلك يعنيه هو ولا يعنى غيره ، وأنه يؤثر أن ينحطم على أن يقوّم اعوجاجه وانحرافه . ثم هو فى البيت الثالث يسجل ما بينه وبين الناس من الأمد البعيد ، ويسجل أن الناس قد مضوا فى طريقهم وأنه قد مضى فى طريقه ، وكما أنه لم يكرههم على أن يعودوا إليه فليس لهم أن يكرهوه على أن يعود إليهم ، وثِق أن أبا العلاء لا يريد بهذا رأيه الفلسفى وحده وإنما يريد بهذا شخصيته كلها كاملة غير منقوصة وموفورة غير مبتورة . يريد رأيه الفلسفى أو قل آراءه الفلسفية . فهو لا يستطيع أن ينزل عن هذه الآراء إذا اقتنع بها إلا أن يحوله عنها شك طارئ أو برهان جديد . ويجب أن يأتيه هذا الشك من نفسه لا من غيره ، ويجب أن يأتيه هذا البرهان من عقله لا من عقل سواه . والناس أحرار فى أن يشاركوه فى هذه الآراء أو أن يخالفوه . ويريد سيرته العملية ؛ فهو قد صمم على العزلة وأعرض عن اللذات وآثر خشونة العيش ، لا يصرفه عن ذلك صارف حتى داعى الدعاة بما بذل من وعد ووعيد ، ومن ترغيب وترهيب . والناس أحرار فى أن يوافقوه على ذلك أو يخالفوه فيه .

ويريد مذهبه الفنيّ هذا الذى يشتدّ فيه العوج والأمت لأنه محسوس تدركه الأذن وتشق بما فيه من غريب قد ينبو عنه السمع ، ومن قيد قد يزورّ عنه الذوق ، ولكنه حريص عليه كلف به لن ينزل عنه ابتغاء مرضاتك ، وهل ابتغى أبو العلاء مرضاة أحد ؟ ! وهل نزل أبوالعلاء عن شيء ليرضى أحداً ؟ ! فخذ اللزوميات كما هى فإن أعجبتك فذاك وإن لم تعجبك فدعها والتمس لذة نفسك ومتاعها فيما شئت من الكتب والدواوين . فأبوالعلاء لم ينظمها لك ، وإنما نظمها لنفسه ، وهو عنها راض وبها مكتفٍ .

ستقول : فإن هذه هى الكبرياء بل هى الكبرياء الجامحة . فهذا صحيح ، ولكن ماذا تريد أن تصنع وقد خلقت هذه الكبرياء مع أبي العلاء وركبت فى طبعه ، لم يكتسبها وإن كانت حياته قد زادتها قوة ونمواً ! وكيف تريد ألا يكبر أبوالعلاء عليك وعلى أمثالك من الناس وهو الذى لم يستطع أن يكفّ كبرياءه عن أن ترقى به إلى مالا يرقى الناس إلى أمثاله ؟ فقد قدّمت لك أن أبا العلاء شقى لأنه يفهم حكمة الله ولم يستطع أن يبلغ كنهها ولم يستطع أن يرضى بهذا القصور . فلا تطالب أبا العلاء بالنزول عن كبريائه ، ولكن اشفق عليه وارث له من هذه الكبرياء . ثم عد بنا إلى البيت الثانى فسترى أنّ أبَا العلاء خَلِيقٌ بكثير منَ الإشْفاق الباسم :

وَمَاذا يَبتغى الجُلساءُ عندى
أرَادوا مَنطقى وَأردْتُ صَمْتى

فهل هذا حق ؟

أمَّا إن جلساء أبى العلاء أرادوا منطقه فذلك شىء لا شك فيه ؛ فهو لم يدعهم إلى نفسه ، ولم يعرض عليهم علمه وأدبه ، ولم يستقدمهم من أقطارهم النائية وبلادهم القاصية ، هم أقبلوا عليه يلتمسون عنده العلم والأدب ويلحون عليه فى ذلك ، ولكن أمن الحق أنّ أبا العلاء أراد الصمت ؟ هذه هى المسألة التى أشك فيها أعظم الشك وأقواه . وأبو العلاء لا يضيق بالكلام فى هذا البيت وَحدَهُ بَلْ يَضيقُ بالإملاء فى بيت آخر فيقول :

أمَا لىَ فيما أرى راحَـــةٌ
يدَ الدهر من هَذيان الأمالى

فلاحِظ مسرعًا هذا الجناس بين أول البيت وآخره ، ثم عد إلى ما نحن فيه وأنبئنى : أحق أن أبَا العلاء كان يضيق بالكلام والإملاء ؟

ومن الذى أكرهه على الكلام والإملاء ؟

قد يمكن أن يكون إقبال الناس عليه وإلحاحهم فى التماس ما عنده من علم اللغة والأدب قد أكرهه على الدرس والإملاء . وقد يمكن أن يكون

اتصال الناس به وإلحاحهم عليه بالمنظوم والمنثور من الرسائل قد اضطره إلى تأليف هذه الرسالة أو تلك ، وإلى نظم هذه القصيدة أو تلك من قصائد سقط الزند . ولكن من الذى اضطره إلى نظم اللزوميات وإلى إملاء الفصول والغايات ؟ لم يضطره إلى ذلك أحد ، وإنما هو الذى اضطر نفسه إليه اضطراراً وأخذها به أخذاً لأنه لم يكن يستطيع غير ذلك . كانت تجيش فى نفسه الآراء والخواطر فلا يستطيع لها كتماناً ولا كظماً ، وكانت تعرض له المثل الفنية من النظم والنثر فلا يستطيع أن يكفّ نفسه عن محاكاتها وعن تحقيقها وإخراجها من القوة إلى الفعل . وإذا حقق هذا المثال أو ذاك من الشعر أو النثر فى خلواته إلى نفسه فقد كان عاجزاً كل العجز عن أن يحتفظ به فى ذاكرته ليستمع به وحيداً فريداً، وكان مضطرًّا كل الاضطرار إلى أن يجريه على لسانه ، وأن يلقيه فى أسماع الناس وفى قلوبهم ، ويتمنى أن يذوقوه ويسيغوه ويُعْجبوا به لسبب يسير جدًّا وهو أنّ أبا العلاء كان فيلسوفاً ولا بدّ للفيلسوف من أن يعلن رأيه ويدعو إليه . وكان شاعراً ولا بدّ للشاعر من أن يتغنى ومن أن يسمع الناس ما يضطرب به صوته من الغناء .

وكل الفلاسفة يؤثر الصمت فيما يقولون ولكنهم مع ذلك لا يؤثرونه فيما يعملون . لأن قوة الرأى وقوة الحياة الاجتماعية أشدّ من إيثارهم لأنفسهم . وكل الشعراء الذين يستحقون هذا الوصف ينظمون الشعر

لأنفسهم ويلتمسون فيه لذتهم ومتعتهم ، ولكنهم لا ينعمون بهذا الشعر إلا إذا أذاعوه ورجع إليهم صداه بعد أن يسمعه الناس . وأكبر الظن ، بل المحقق ، أن أبا العلاء لو أخذ الناس أمره بالجد وخلّوا بينه وبين ما أراد من العزلة والانقطاع لخرج إليهم أو لدعاهم إليه ليسمعوا منه شعره وليأخذوا عنه فلسفته ، ولكن الشاعر والفيلسوف وصاحب الفن طفل مهما يكبر ؛ فهو يحب الصمت ولكنه يقبل على الكلام ويغرق فيه ، وهو يحب العزلة ولكنه فى أثنائها متصل النفس بالناس لا يستطيع أن يقطع بينها وبينهم الأسباب . واقرأ اللزوميات وتتبع ما فيها من النقد الاجتماعى والسياسى فسترى أن أبا العلاء لم ينقطع قط عن الناس انقطاعاً تاماً ، وإنما عاش معهم وتأثر بما تأثروا به ، وراقبهم مراقبة متصلة دقيقة فأنكر من أمرهم ما أنكر وعرف من أمرهم ما عرف ، واتخذ من هذا كله مادة لفلسفته وشعره فسلّى نفسه ووعظ الناس .

لم يفكر فيكَ أبو العلاء إذن ولم يحفلْ برضاكَ حين نظم اللزوميات ، وإنما فكّرَ فى نَفسه وَحَفل برضاه هو ، بل لعلى أغلو فى ذلك بعض الشيء فما أشُكّ فى أنّ الناس فى عصر أبي العلاء كانوا يحفلونَ بهذا التكلف وَيرونَ فيه مهارة وبراعة واقتداراً كما كانَ أبو العلاء نَفسهُ يحفل به ويرى فيه مهارة وبراعة واقتداراً . ولوْ أعرَض الناس عن هذا التكلف أيام

أبي العلاء لكانَ منَ الجائز جداً ، بل منَ الراجح ، أن يُعرض أبو العلاء عنه ، وأن يلتمس لنفسه باباً آخر منْ أبْواب التسلية وَقطع الوقت لنفس السبب الذى بينته آنفاً : وهو أنّ الصلة بين الشاعر وقرائه وسامعيه أمتن جداً من أن تقطعها الفلسفة مهما تميز صاحبها من الناس ومهما ترتفع به عن طبقتهم ومهما تمعن به فى التشاؤم وَإيثار الوحدة والانفراد . وما أكثر ما يُسائل أبو العلاء عن الطير حين تتغنى ، أيعنيها أن يَسمعَ الناس لغنائها وأنْ يَجدوا فيه لَذة وَمَتاعاً ؟ وَعَن الزّهْر حين يتضوّع وحين يَتألّق أيُعنيه أنْ يَجد الناسُ فى طيبه لذة وإلى جَماله راحة واطمئناناً ، وَعَن الشمس حينَ تَبعث الحرارة وَالضوء أيُعنيها أن يَجدَ الناس فى حَرارَتها وَضيائها حياة ونَشاطاً وَمَرحاً وَفَرحاً وَرضاً وَابتهاجاً .

بل أتَشعر الطير بما يصدر عنها من غناء ؟ أيشعر الزّهر بما ينشر عنهُ منْ عَبير ؟ أتشعر الشمس بما تَبعثُ منْ حرَارَة وضوء ؟ أتُقدِم الطبيعة على ما يصدُرُ عنها من مُختلف الأمر عن شعور به وإرادَة له وَرَغبة فى تحقيق ما نرى فيه نحنُ من الغايات ؟ وَوَاضح أنّ أبَا العلاء لم يظفر بجواب عَلى هذا السؤال ، وأن عقله قَدْ هَدَاهُ إلى الجواب المحزن الأليم : وهو أنّ الطبيعةَ لا تَحفل بنا ولا بما نَجدُ منْ لَذة أو ألم حين تتصل

بنا آثارُها لأنها لا تعقل ولا تشعر . فهى إذن لا تريد وإنما هى ميسرَةٌ لما خُلقتْ مُسخرَةَ لما دُفعت إليه . ولكن أبا العلاء نفسه يَشعر وَيُفكر وَيقدّر وَيُريد ، وهو يحس أثر ما يصدر عنه من غناء أو فلسفة وَيَعرف رضا الناسِ عَنهُ أو سَخطهم عَليه ، وهو من أجل ذلكَ يقبل عليه أو يَعرضُ عَنه ، فَهو كالطير وكالزّهر وَكالشمس تصدُرُ عنهُ آثاره سواء أراد أو لمْ يُردْ ، ولكنه يخالف الطيرَ والزّهرَ والشمس فى أنّ لهُ عَقلا يميز به هذه الآثار وَيعرف به نتائجها فى نفوس الناس . ويدفعه ذلك إلىَ أنْ يَتزيَّد منْ هذه النتائج ، وإلى أنْ يُلائم بين آثاره وبين الذين يتلقَّونها منَ الناس فَيسهلُ حينًا وَيَحزنُ حينًا آخر ، وَيعنف مَرّة وَيَلينُ مرّة أخرى ، ويصرّح طوراً ويلمَّح طوراً آخر ، ولكنه مُنشئٌ آثاره وَمُذيعٌ لها وَمُلحٌّ فى إنشائها وإذاعتها على كل حال .

والظريف أن أبا العلاء قد كان يُخْدَع عن فنه أحيانًا فيظن أنَّه يَشق على نفسه ويكلفها الصعب العسير من الأمر ، على حين أنه لم يكن من ذلك فى شىء ، أو قل إنه كان يعرف أنه لا يتكلف مَشقة ولا عَناء ولكنّ الطريق تستقيم لهُ فيمضى فيها ليستوفى الشرط الذى شرطه على نفسه من جهة ، وليرضى حاجته إلى الفلسفة والغناء من جهة أخرى .

وربما كان فصل الهاء من اللزوميات من أوضح الأدلة على هذا ، فأبو العلاء فى كثير من قصائده فى هذا الفصل يلتزمُ الهاء مضمومة أو مفتوحة أو مكسورة أو ساكنة ، ثم يلتزم معها حرفًا آخر كدأبه فى اللزوميات كلها . وقد خُيِلَ إلى نفسه أنه يحتمل فى ذلك من المشقة والجهد ما كان يحتمله فى حرف الدال أو الجيم أو الباء ، مع أن أيسر النظر فى الأمر يدل على أن جهده خفيف محتمل حقًّا . فالهاء التى يلتزمها ليست إلا الضمير المتصل مبنيًّا على الضم أو على الفتح أو على الكسر أو مسكّنًا بالوقف ، فإذا التزم هذا الضمير فهو لا يغير شيئًا ولا يتكلف فى حقيقة الأمر إلا قافية واحدة وهى الحرف الذى يسبق هذا الضمير . وأى شيء أيسر على أبى العلاء من هذا ! انظر إلى هذه القصيدة التى أولها :

لعمرى لخير الذُّخر فى كلّ شدّة
إلهكَ ترجُو فضــلَهُ وإلاهُ

فالقافية هنا هى هذا الضمير ، وقد التزم الشاعر اللام قبلها . وأنت تستطيع أن تمضى فيها إلى آخرها فإذا هى قد نيفت على الأربعين بيتًا ، وإذا الضمير هو القافية دائمًا ، وإذن فأبو العلاء لم يغيِّر ولم ينوّع إلا فى الكلمة التى تسبقها والتى يجب أن تنتهى باللام وألف الردف . فهذه الكلمة مرة « فعل » ينصب الضمير ، وهى مرة « اسم » يضاف إليه .

وكأنّ أبا العلاء قد أحس هذا بعد أن فرغ من هذه القصيدة ، فوجد فيه سهولة ويسراً لا يلائم ما أراد أن يأخذ به نفسه من الرياضة العنيفة ، ولا بد له مع ذلك من أن يستوفى الشرط ومن أن يلتزم الهاء ، فهو ينظم شعره لا يلتزم الهاء وحرفًا قبلها فحسب وإنما يلتزم قبلها حرفين اثنين . فانظر إلى هذه القصيدة التى أولها :

أخوك مُعذّبٌ يا أمّ دَفْر
أظلّته الخطوبُ وأرْهقته

فهو يلتزم الهاء ويلتزم قبلها التاء والقاف ، ولكنه مع ذلك لا يسلم من السهولة ، لأن الكلمة الأخيرة من البيت دائمًا فعل ماض آخره قاف وقد ألحقت به تاء التأنيث ثم الضمير المتصل .

فالصعوبة الصعبة التى التزمها أبو العلاء فى حقيقة الأمر إنما هى التزام أفعال قافية اللام ليس غير ؛ فهو فى حقيقة الأمر لم يغير إلا فى حرف واحد هو القاف لا يشذ من هذه القصيدة التى نيّفت على الخمسين فى ذلك إلا بيت واحد . وهو قوله :

أقاتُ الشيءَ بعدَ الشيء فيها
ليمسكنى فليتىَ لم أقتْهُ

فالقاف هنا ليست لامَ الفعل المضارع وإنما هى فاؤه كما ترى ، والتاء جزء منه وليست تاء التأنيث . ومع ذلك فإن أبا العلاء يعترف بالمصاعب حين تلقاه ولا يخدع نفسه عنها ولا

يحاول ابتكار المحال . فهو قد يصادف الحروف التى لا يتأتى له معها النظم الكثير مع التزام ما لا يلزم فيكتفى منها بأيسر ما يمكنه من تحقيق الشرط .

فهو لا ينظم على الظاء مع غيرها من الحروف إلا عشرين بيتاً قسمها على ثمانى مقطوعات . فى الظاء المضمومة مقطوعتان وفى الظاء المفتوحة مقطوعتان ، وفى الظاء المكسورة ثلاث مقطوعات ، وفى الظاء الساكنة مقطوعة واحدة .

ولم ينظم فى الغين إلا أربعة عشر بيتاً فى مقطوعات ست ؛ واحدة فى الغين المضمومة ، وواحدة فى الغين المفتوحة ، وواحدة فى الغين المكسورة ، وثلاث فى الغين الساكنة .

ونظم فى الواو سبعة وعشرين بيتاً فى مقطوعات ست ؛ واحدة فى الواو المضمومة ، واثنتان فى الواو المفتوحة ، وواحدة فى الواو المكسورة ، واثنتان فى الواو الساكنة .

وأكبر الظن أن هذا العسر كان يغيظ أبا العلاء ولكن ماذا يصنع ، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، والتحرج الفنى مهما يشتد بصاحبه فهو لا يستطيع أن يحمله على المحال . وإنما الظريف الذى يثير الابتسام هو حرص أبى العلاء على أن يستوفى شرطه مهما تكن النتيجة ومهما يكلفه ذلك من جهد أيضاً .

وهناكَ عيب آخر دفع إليه أبو العلاء بحكم هذه القيود

الفنية التى التزمها ، وهو الإضاعة للوحدة المعنوية فى القصيدة إذا طالت ، بل فى المقطوعة القصيرة أحياناً والاكتفاء بهذه الوحدة المادية التى تأتى من القافية ، وبهذه الوحدة التمثيلة المهلهلة التى تأتى من أن اللزوميات كلها قد نظمت فى الحكمة والموعظة . والمحقق أن أبا العلاء الذى يحسن بناء القصيدة كل الإحسان فى سقط الزند بحيث لا تنتقل من جزء إلى جزء إلا حين يدعو التفكير المنطقى إلى هذا الانتقال ، وبحيث تستطيع أن تقسم القصيدة إلى أجزاء قد أقيم بعضها على بعض وجمعت بعضها إلى بعض وحدة التفكير والشعور .

أبو العلاء الذى أحسن بناء القصيدة فى سقط الزند قد أفسد بناءها فى اللزوميات إفساداً شديداً . فالقصيدة أو المقطوعة متحدة فى الوزن والقافية والموضوع العام ليس غير . ومن أيسر الأشياء فى كثير جداً من مطولات اللزوميات أن تفرّق الأبيات فتفترق وأن تقدمها أو تؤخرها فتتقدم أو تتأخر ، وأن تنظر إليها على أنها حكم سائرة وأمثال مرسلة قد نظمتها القافية فى سلك متقن لأنه مؤلف من حرفين أو من أحرف ، ولكن من اليسير أن تنتثر دون أن يفسدها هذا الانتثار . وليس هذا محتوماً على اللزوميات كلها ، ولكنه شائع فى كثرتها . وهناك قصائد تتحقق فيها وحدة التفكير والشعور ولكنها نادرة ، وهى من أجل ذلك رائعة وقد نقف عند بعضها إن أتيح لنا ذلك .

وهناك قصائد تتحقق الوحدة فى بعض أجزائها دون بعضها الآخر ، فقد يلم أبو العلاء فى أثناء القصيدة بوصف يطيل فيه أو معنى يفصله فتتحقق الوحدة فى هذا المعنى أو ذلك الوصف ، ولكنها غير متحققة بالقياس إلى ما يسبقه أو يتلوه . وليس لهذا كله مصدر إلا أن القافية هى الحاكم المطلق فيما يؤلف اللزوميات من لفظ ومعنى وأسلوب .

وشىء آخر خدع أبو العلاء عنه نفسه فجر عليه ألمًا كثيراً وأذى شديداً . ولكن ليس له صلة بالقافية ولا باللفظ وإنما هو متصل بالمعنى أو قل إنه متصل بتفكير أبى العلاء وفلسفته كلها . فأبو العلاء متشائم وهو لا يتحدث عن الأشياء والأحياء إلا حديث المتشائم . وهو بطبيعة الحال ساخط دائمًا فهو ناقد دائمًا ويختلف نقده شدة ولينًا باختلاف استعداده فى اللحظات التى ينظم فيها الشعر أو يؤلف فيها النثر . ولكنه مع ذلك قد اعتقد أنه لم يهج أحداً ولم يكن من الهجاء فى قليل ولا كثير . وقد تحدّث بذلك إلى بعض زائريه ، فقال له فى شىء من المكر : لم تهج أحداً إلا الأنبياء ! فتأذى بذلك أبو العلاء وتغير له وجهه . ومع ذلك فلم يكذّب زائره وإنما اشتد عليه .

فليس من الحق أن أبا العلاء لم يهج أحداً إلا الأنبياء ولكن الحق أن أبا العلاء قد هجا الناس جميعًا ومنهم الأنبياء . هجا الناس

جميعاً وذلك شائع فى اللزوميات كلها ، وأيسر ما نضرب لذلك من الأمثال هذه الأبيات التى تجاوز فيها طوره حتى هجا نفسه أقذع الهجاء :

رأيتُ قضاءَ الله أوجبَ خلقَه
وعادَ عليهمْ فى تصرّفه سلْبا
وقد غلبَ الأحياءَ فى كلّ وجهة
هواهُمْ وإن كانوا غطارفةً غُلْبا
كلاب تغاوتْ أو تعاوتْ لجيفة
وأحسبنى أصبحتُ ألأمَها كلبـا
أبينا سوى غشّ الصدور وإنما
ينالُ ثوابَ الله أسلمُنا قلبـا
وأىّ بنى الأيام يحمدُ قائلٌ
ومَن جرّبَ الأقوامَ أوسعهم ثلبا

وهجا الأنبياء ما فى ذلك شك ، وأيسر ما نضرب لذلك من الأمثال هذان البيتان :

ولا تحسبْ مقال الرسْل حقًّا
ولكنْ قوْلُ زُور سطّرُوه
وكانَ الناسُ فى عيش رغْد
فجاءوا بالمحـال فكدّرُوه

وهذه الأبيات :

أفيقوا أفيقوا يا غُوَاةُ فإنَّما
دياناتكم مكرٌ من القدماء

أرادوا بها جَمعَ الحُطام فأدركوا
وبادُوا وماتتْ سُنَّةُ اللؤماء

يقُولونَ إنَّ الدَّهر قد حانَ موْتهُ
ولم يبقَ في الأيَّام غيرُ ذَماء

وقَدْ كذبوا ما يعرفُونَ انقضاءهُ
فلا تسمعوا من كاذب الزّعماء

وو ضح ما فى البيتين الأخيرين من هُجوم شَنيع على ما جاءت به الديانات من اقتراب الساعة وإشراف هذا الدهر على آخره .

وتشنيع أبى العلاء على الديانات أشهر وأظهر وأكثر من أن نقف عنده أو نطيل فيه ، وهو صريح غالبًا وقد يلجأ أبو العلاء إلى التعريض فى كثير من الأحيان .

وأكبر الظنّ أنّ أبا العلاء كان مخدوعًا عن نفسه حين ظنّ أنه لم يهج أحداً لأنه فهم من الهجاء ، أو أراد أن يفهم من الهجاء ما ذهب إليه الشعراء من قبله حين عمدوا إلى أشخاص بأعينهم فثلبوهم أقبح الثلب ، وتتبعوا ما فيهم من النقائص اليسيرة أو الكثيرة فأظهروها وغلوا فيها .

ومن الحق أن أبا العلاء لم يهجُ أحداً بهذا المعنى ، كما أنه لم يعب أحداً بهذه العيوب التى تمس شخصه وتحقره بين مواطنيه ، وإنما استقصى عيوب الناس المشتركة بينهم وتعمق نفوس الناس فأظهر دخائلها فى لهجة عنيفة حادة قاسية ، وهو مع ذلك متجنب كل التجنب للإقذاع وإذاعة الفاحشة . ثم هو لا يريد بهجائه إساءة ولا انتقامـاً ولا تشهيراً ، وإنما هو صاحب أخلاق يريد التهذيب والتأديب والإصلاح . وقد تغلبه الحدة أحيانـاً فتجور به عن القصد وتخرجه عن طور الفيلسوف إلى طور الشاعر الهجَّـاء ، ولكنه حسن النية على كل حال قاصد إلى الخير والبر .

على أن المهم أن أبا العلاء لم يبتكر هذا الفن من الهجاء الذى يصدر عن سوء الرأى فى الناس من جهة ، وعن الرغبة فى الإصلاح والعجز عنه من جهة أخرى ، وإنما كان له فى هذا الفن أستاذ هو أستاذه فى كثير من فُنون الشعر ، وأريد به المتنبي . فقد كان المتنبي أسوْأ الشعراء رأيـاً فى الناس وأكثرهم إظهاراً لذلك ، وأشدهم تشاؤمـاً به ، وهو الذى فتح لأبى العلاء باب النقد الاجتماعى اللاذع العنيف ، ومهد له طريق التشاؤم فى الشعر . ولكن بين الرجلين فرقـاً عظيمـاً . فالمتنبي لم ينس قط نفسه الطامعة الطموح العاجزة مع ذلك عن تحقيق مطمع أو بلوغ مطمح ، على حين أعرض أبو العلاء إعراضـاً تامـاً ، طائعـاً أو كارهـاً عن كل مطمع

أو مطمح أو منفعة . وأقبل على هذا النقد اللاذع العنيف سليم الصدر من كل غل ، برىء القلب من كل حقد ، قاصداً إلى الإصلاح عاجزاً عنهُ ، يائساً منه ، شافياً نفسهُ من ألم هذا العجز ومرارة هذا اليأس .

فإذا قال أبو العلاء إنه لم يهج أحداً فهو صادق ، لأنهُ لم يهج أحداً بعينه إلا ما كان من أمر هذا القارئ الذى تلا بين يديه آيات من القرآن يعرض فى تلاوتها بآفته . فهجاه أبو العلاء بهذين البيتين :

هذا أبو القاسم أعجوبة
لكل من يدرى ولا يدرى
لا ينظم الشعر ولا يقرأ الـ
قرآن وهو الشاعر المقرى

وإذا قال قائل إنه قد هجا الناس جميعاً ولم يعف الأنبياء من هجائه فهو صادق ، لأن أبا العلاء قد نقد الناس جميعاً ومنهم الأنبياء نقداً لا يريد به الشر ولكنه لا يخلو من الحدة التى تبلغ أقصى العنف أحياناً . وماذا تريد أن أقول وأبو العلاء قد أثنى على الله أحسن الثناء وأطيبه وأبقاه فى اللزوميات كلها ، ولكنه مع ذلك لم يتحرج من مخاصمة الله أحياناً فى الجبر والتكليف وفى العقاب والثواب ، ثم انتهى به الأمر إلى أن يعترف بأنه إذا تألـّه فإنما يتألـّه خوفاً

وإشفاقاً وذلك حيث يقول :

خُلقتُ من الدنيا وَعشتُ كأهلها
أجدّ كما جدّوا وألهو كما لهوا
وأشهد أنى بالقضاء حللتها
وَأرْحلُ عنها خائفاً أتألّمُ

* * *

وجملة القول أنى أقمت معك أيها الشيخ الكريم بضعة عشر يوماً فى سجنك المظلم الكئيب فحمدت هذه الإقامة لأنى وَجدت فيها لذة عقلية مُمتازة وَألماً عقلياً ممضاً ولأنى رحمتك وَأشْفقتُ عليك من كلّ ما وَجدت فى سجنك من لذة وألم ، ولو استطعت لأطلت الإقامة معك ؛ فإنى لم أرض حاجتى من جوارك بعد ، وَما أظنّ أنىّ سأرضيها فى يوم منَ الأيّام . وَما أعرْف أنّ شيئاً منَ الأشياء أحبّ إلىّ وَآثر عندى من التحدّث إليك والاستماع منك والحديث عنكَ ، ولكنى مُضطرٌ الآنَ إلى أنْ أودعك راغماً .

فقد تقدم الليل ، وإذا أشرقت شمس الغد فلا بدّ من الرحلة إلى باريس . وأنتَ لا تعرف ما باريس ، وما أظنُها كانت قادرة على أن تصرفك عن حزْنك وتشاؤمك ، بَلْ أنا واثق بأنّكَ لوْ عرفتها لأمْعنت فى حزنكَ وتشاؤمكَ كشأنكَ حين عرفتَ

بـَغداد . أمـَّا أنا فإن باريس تصرفُني عن الحـُزْن وَالتشاؤم وَتـُثير في نفسي لـَذّات عـَقلية ليست أقـَل من هذه اللذات التي أجدها في الحديث إليك والحديث عنك . وهي على كل حال تـُزْعـِجني عـَنْ سجنك َ الذي كنت أودّ لوْ أطيلُ المقام فيه . ومن يدري لـَعلي أسأم باريس فـَأفـْزَع منها إليك من حين إلى حين . فليكن وداعي لك الآن مـُؤَقـَّتـًا ، وَلأقلْ لك في لهجة المحب المشفق الوامق : إلى اللقاء .

موزرين ٣ أغسطس — ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٨

٨

وقد طويت كتب الشيخ فيما طويت وأسلمتها فيما أسلمت إلى السفر الذى أسلمت إليه نفسي فكانت قريبة منى بعيدة عنى ، تلزمنى لزوم الظل وتنأى عنى نأى النجوم ، لا أنتقل من مرحلة إلى مرحلة إلا سألت عنها وتبينت مكانها واطمأننت إلى أن ليس عليها بأس . ولكنى مع ذلك قد تعرض لى الحاجة إليها فلا أبلغها ولا أجد لى عليها سبيلا ، وإنما هى طوع أيدى هؤلاء الذين يتصرفون فينا وفى أمتعتنا حين نسلم أنفسنا وأمتعتنا إلى الأسفار .

وقد كانت رحلتى إلى باريس طويلة جميلة لم تخل من مشقة وجهد ولم تبرأ من ثقل وعنف . وكانت مع ذلك مختلفة متنوعة لا مستقيمة مضطردة : فقد مضيت أنحدر من الجبل وأصعد فيه ، وأرقى من السهل وأهبط إليه ، وتدور بى سفينة فى البحيرة تلم بهذه القرية من قرى فرنسا وبتلك المدينة من مدن سويسرا ، وتكثر حولى الأحاديث فى مظاهر الطبيعة ومناظرها وفى شؤون الناس وأطوارهم ، وفى أنباء الحرب التى كانت تتراءى والسلم التى كانت تتناءى . ثم أتهيأ فى آخر النهار وأول الليل

لركوب القطار من غد إلى باريس ؛ فأشترى لهذه الرحلة كتاباً سخيفاً فيه قصص سخيف، أريد أن أستعينه على هذا اليوم الطويل: يوم القطار .

ويمضى بنا القطار منَ الغد ، ومَا أدْرى أيهما كان أسرع من صَاحبه : أهُوَ القطارُ الذى كان يَنهبُ الأرْض نَهباً أمْ هو صاحبي الذى كان ينهب الكتاب نهباً . ولكن الشيء الذى لا شك فيه هو أنى منذ ودّعت الشيخ وطويت كتبه وأسلمت نفسى إلى الرحيل وَخيلت إلى نفسى أنى سأفارقه وَمَنَّيت نفسى بلقائه ، والعودة إليه ، لم أفارقه ولم أنصرف عنه ، أو قل لم تفارقنى ذكراه ولم تنصرف عنى ، على كثرة ما بذلت من الجهد لأخلص لنفسى وأسرتى أياماً . وإنما لزمتنى ذكرى الشيخ لزوماً متصلا ملحاً صرفنى عن نفسى وَعَنْ أسْرَتى واضطرنى إلى أنْ أكونَ طليقاً سجيناً ، وَحُرًّا مُقيداً أتنقلُ فى الجبال والسهول ولكنى مع ذلك لا أفارق هذا السجن الذى أقام فيه أبو العلاء نصف قرن يفكر ويقدر وينظم وينثر ويملى ويعلّم .

وأنا ألحظ نفسه وهى تفكر وأسمع صوته وهو يملى وينشد ؛ وأسأل نفسى عما تحصّل من هذا كله فلا أظفر منها إلا بهذا الجواب الغريب ، وهو أنها لا تحصل شيئاً ولا تريد أن تحصل شيئاً ؛ وإنما قصاراها أن تشهد وتسمع وتجد اللذة فى أن تشهد وتسمع ،

ولا عليها أن تعود آخر الأمر وكأنها لم تشهد ولم تسمع شيئًا ؛ فإن هذه اللذة التى تجدها خليقة أن تغنيها عن كل تحصيل ، وأن تدفعها إلى أن تلح فى الاستماع للشيخ حين يقول ، وفى الاستماع لنفسه حين تجيل فى ضميرها ما تجيل من الخواطر والآراء .

وما أدرى ! أكانت المصادفة هى التى تسمعنى إنشاد الشيخ قصائد بعينها من اللزوميات لأنى أحببتها وكلفتُ بها ، أم كان هناك تدبير خفى لا أعرف كنهه ولا أبلغ سره ، أراد أن ينصف الشيخ منى ، وأن يضطرنى إلى الوفاء بما قدمت من وعد ، وإلى الاعتراف بأن الشيخ إن أذعن للقافية وخضع لسلطانها وأطاعها فى تفكيره وتقديره وتدبيره لشعر اللزوميات فقد يسيطر على القافية أحيانًا ويقهرها ويرتفع بفنه وفكره على ضروراتها وقيودها دون أن يخرجه ذلك عما رسم لنفسه من خطة ، وما فرض على نفسه من شرط . فهو يلتزم ما لا يلزم ، ولكنه لا يجد فى ذلك شدة ولا جهداً ، ولا يحس فى ذلك قسوة ولا عُنفًا ، ولا يُضطر فى ذلك إلى أن ينحرف بلفظه أو معناه عن الطريق الطبيعية الواضحة المستقيمة التى ينبغى أنْ يَسلكها بهما سواء أفرَضَ عَلى نفسه قُيود اللزُوميات أمْ لم يفرضها .

وقد ترددت فى نفسى هذه الفكرة التى أومن بها وأترك لغيرى أو لنفسى فى غير هذا الوقت وفى غير هذا الموضع تحقيقها ، وبسط

القول فيها . وهي أن الفن الرفيع قيد حر ، إن صح هذا التعبير . فهو يفرض على صاحبه أثقالا وأغلالاً لا يستطيع أن يخلص منها دون أن يفسد فنه إفساداً وينحرف به عن طريقه المستقيمة المقسومة له . ولكنه مع ذلك لا يكاد ينهض بأثقال هذا الفن وأعبائه ، إن كان ميسراً له غير متكلف فيه ، حتى تستقيم له الأمور وتمتد له الأسباب وتُرْخَى له الأعنة ، وإذا هو يمضى بفنه حيث يشاء ، أو يمضى فى فنه حيثُ يشاء ، لا يُثقله قيد ولا يُرهقهُ غلٌ ولا يضيق به سجن . وإنما هوَ مطلق كأعْظم الناس حظاً من الحريّة سَمْح النفس فى كل ما يأتى وما يدع . يخيل إلى من يَرْقُبه ، وهو يصطنع فنه ويتصرف فيه أنه قَدْ أرْسل نفسه على سَجيتها وأمضاها على طَبعها فهو لا يتكلف مشقة ولا يلقى جهداً . قُلْ إنّ مصدر ذلك هى العادة وكثْرة المران ، أو قل إنّ مصدر ذلك هى الفطرة وخصب الطبيعة واعتدال المزاج . قل ما شئت من ذلك ومن غير ذلك ، ولكن ثق بأن أباالعلاء يظفر بحريته المطلقة فى اللزوميات على ثِقَل ما فرض على نفسه من قيد ، وتعقُّد ما سلكها فيه من غُلّ . يظفر بحريته فى اللفظ ويظفر بحريته فى المعنى ويظفر بحريته فى الأسلوب ، والغريب أنه يشركك معه فى هذه الحرية ويلغى من نفسك الشعور بالضيق الذى كنت تجده حين تلتزم معه ما التزم من الشروط والقيود .

فأنت ضيق الصدر من غير شك بهذه القيود التى يأخذ الشاعر بها لأنه أخذ بها نفسه ، وأى غرابة فى ذلك ، إنه يصحبك ويهديك فى هذه الطريق التى يسلكها والتى فرض على نفسه ما يكون فيها من عوج والتواء ، وما يقوم فيها من صعاب وعقاب ، فأنت واجد من الجهد مثل ما يجد ، وأنت لاق من العنف مثل ما يلقى ، وأنت محتمل من الضيق مثل ما يحتمل . فإذا نفّس عن صدره فقد نفس عن صدرك ، وإذا رفّه على نفسه فقد رفه على نفسك ، وإذا تخفف من قيوده وأغلاله دون أن يضعها عن نفسه فقد خفف عنك هذه القيود والأغلال دون أن يضعها عنك .

أنت إذن شريكه فيما يجد من مشقة ، وأنت شريكه فيما يجد من لين ، أنت مقيد إن كان هو مـُقيداً ، وأنت مـُطلق إن كان هو مـُطلقـًا .

وعلى هذا النحو وحده ، فيما أظن يـُفهـَم الأثر الفنى ويذاق ، فاعجـَبْ لأبى العلاء الذى يضيق أحيانـًا بنظم اللزوميات فإذا ألفاظه مستعصية ، وإذا أساليبه ملتوية ؛ وإذا أنت تشقى معه بهذا الالتواء وذلك الاستعصاء : والذى ينهض أحيانـًا أخرى بقيوده وأغلاله وبأعبائه وأثقاله ، فيضطرب فى جو الفن رشيقـًا خفيفـًا كأنه لا يحمل شيئـًا ولا يشقى بشيء ، وإذا أنت تنهض معه رشيقـًا خفيفـًا كأنك لا تحمل شيئـًا ولا تشقى بشيء .

واقرأ معى هذه القصيدة التى حقق فيها أبو العلاء هذه الحرية تحقيقاً حسناً ، فلم يضق بلفظ ، ولم يضق بمعنى ، ولم يضق بأسلوب ، وإنما فرغ لفنه وفرغ فنه له ، وفرغ لفلسفته وفرغت فلسفته له ، وفرغت أنت له وللفلسفة وللفن ، تسمع وتنظر وتستمتع وتذوق لا تجد فى ذلك عنفاً ولا عسراً .

اقرأ معى هذه القصيدة فستجد هذه اللذة الفنية الممتازة التى تأتى من هذه الملاءمة الرائعة بين الحرية والتقييد وبين السجن والإطلاق . فأنت لن تخلص من التزام حرفين بل ثلاثة أحرف ؛ فالقيد ملحوظ دائماً ولكنه قيد خفيف لا يعوقك عن الخطو ، بل لا يعوقك عن السعى ؛ بل لا يعوقك عن العدو ، لا يعوقك عن شىء من هذا ، ولكنه يُشعرك بنفسه ويشعرك بهذه اللذة التى يجدها من يجرى وهو مقيد برغم القيد ، ومن ينهض وهو مثقل برغم العبء الذى يحمله .

اقرأ معى هـــذه القصيدة فسترى أن الفن قد واتى فيها أبا العلاء مواتاة حسنة حقاً لم يشغله قيده عن العناية بما عداه مما يجمل به اللفظ ، ويصح به المعنى ، ويعتدل به الأسلوب . وإلام أراد أبوالعلاء فى هذه القصيدة ؟ إلى ما تعوّد أن يريد إليه فى أكثر قصائد اللزوميات ومقطوعاتها ، إلى ما قرأته ألف مرة ومرة منذ بدأت فى قراءة اللزوميات إلى أن انتهيت إلى هذه القصيدة فى آخر الديوان ، فنحن فى النون المفتوحة إلى هذه الفلسفة المظلمة المضيئة ،

القاتمة الباسمة التى ينعى فيها الشباب وتقطع أسبابه ، وتقطُّع أسباب اللذة والأمل مع أسباب الشباب والقوة ، والتى يأمر فيها بالإذعان والاستسلام لحكم الأيام ما دامت الآمال لا تواتى وأسباب الأمانى لا تتصل ، والتى يأمر فيها بالاحتياط للمستقبل الذى يكون بعد الموت أو الذى لا يكون لأنه مجهول ، فالخير أن يحتاط له الرجل العاقل ، وأن يدخر له ما وَسعه الادخار من صالح الأعمال أو مما يرى أنه من صالح الأعمال .

فأبو العلاء ينهى عن طائفة من الآثام ويأمر بطائفة من الحسنات ، حتى إذا فرغ من النهى والأمر عاد إلى ما بدأ به من الشك الذى ينتهى بصاحبه إلى اليأس والقنوط ، ولكنه يأس حلو وقنوط سائغ لا تجد فيه مرارة لاذعة ، ولا ينتهى بك إلى جزع مهلك ، وإنما هو منته بك إلى الأناة التى يمازجها الرّضا ، وإلى الهدوء الذى يشيع فيه الإذعان ، وإلى هذه الحال النفسية الممتازة التى ينظر فيها الفيلسوف إلى الحياة وأحداثها وأهْوَائها وآمالها نظرة فاترة شاحبة تصحبها ابتسامة ساخرة فيها كثير من الازدراء الحلو المريح .

اقرأ معى هذه الأبيات وَحَدّثنى عن هذه الجَزَالة التى تشيع فيها وفى القصيدة كلها . والتى تأتى من التزام ما لا يلزم قبل أنْ تَأتى من أىّ شىء آخر . فهاء السكت هذه التى التزمها

أبوالعلاء فى آخر كلّ بيت بعد هذه النون المفتوحة ، وبعد هذه الضاد الساكنة ، تمنح البيت قوة معتدلة هى الجزَالة بنفسها ، ضَخامَة فى الضّاد ثم خفة فى النون ثمّ حَلاوة فى هذه الهَاء الساكنة التى قلما يلجأ إليها الشعراء ، والتى تشيع فى الشعر وفى النثر حَلاوَة وَظَرْفًا حيثما وُجدت . وما أُبْعِدُ أنّ أبا العلاء قد ذكرَ ظَرْف عبيد الله بن قَيْس الرّقيات فى قصيدتيه المشهورتين :

بَكَرَتْ عَلى عَوَاذلى
يَلحينَنى وَألُومهنّهْ

و :

ذَهَبَ الصبا وَتَرَكتُ غيّتَيهَ
وَرأى الغوَانى شيبَ لِمّتَيهَ

ومعروف أن ابن قيس الرقيات إنما نزع إلى هذه الهاء متأثراً للقرآن الكريم فى مثل قول الله عَزّ وَجَلّ : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤمُ اقرءوا كتابيهْ ، إنى ظننت أنى ملاق حسابيهْ » وفى مثل قوله : « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيهْ . ولم أدر ما حسابيهْ . يا ليتها كانت القاضيَة . ما أغنى عنى ماليهْ . هلك عنى سلطانيهْ » .

قال أبو العلاء :

لأمواه الشبيبة كيفَ غِضْنَهْ

ورَوْضَاتِ الصِّبا فى اليبس إضْنَهْ

فانظر إلى هذا التصريع بين « غضنه » و « إضنه » ، كيف يرتفع بالبيت ، أو قل يشب به إلى هذه الجزالة الشائعة فى شطريه ! ثم انظر إلى قوله : لأمواه الشبيبة كيف غضنه ، وإلى هذا المعنى المجمل المفصل والموجز المطنب الذى يذهب الشاعر فيه إلى حسرات لا تنقضى ، وإلى تعجب حزين لا ينتهى ، يشعرك بهذا الإيجاز فى اللفظ ويشعرك بهذا الإطناب فى المعنى فأنت واجد ألفاظاً قليلة وأنت شاعر بالحذف والاختصار ، ولكنك فى الوقت نفسه واجد معانى واسعة لا تكاد تنقضى ، وأنت تلحظ الألفاظ التى تستطيع أن تؤدى بها هذه المعانى لولا أن الشاعر قد حذفها واجتزأ عنها بالحذف والاستفهام .

ثم انظر إلى الشاعر كيف أشرف بك على كل هذه الحسرات والغمرات ، فأشعر نفسك الحزن وأشاع فى قلبك الأسى ، وأظهر عقلك على شىء لا سبيل إلى استدراكه ، ثم أقبل بك بعد هذا على الحقيقة الناصعة القاطعة التى نؤمن بها جميعاً ونلهو عنها جميعاً ، فإذا لهونا عنها تورطنا فى الحسرات والغمرات ، وإذا ذكرنا إيماننا بها وجدنا فيها السلوة والعزاء :

وآمالُ النفوس مُعَلَّلات
ولكنّ الحوَادثَ يعترضْنَهْ

وهل حياة الناس إلا هذا ، تعلل متصل بالأمل ويأس بين حين وحين تضطرنا إليه هذه الحوادث الواقعة التى تكذب الآمال وتخيّب الرجاء .

ثم انظر كيف يفصل أبوالعلاء هذا المعنى نفسه تفصيلا ، ويعيد عرضه فى صورة ليست أقل روعة من الصورة التى عرضها فى البيت السابق . فإذا هو يصور الحياة على أنها صراع بين الأيام التى لا تمل من إيذاء الناس بحوادثها الواقعة التى لا تلائم أهواءهم وأغراضهم ، والنفوس التى لا تمل من الاستسلام للآمال والاسترسال مع الأمانى .

فلا الأيام تَغْرَضُ من أذاة
ولا المُهَجاتُ من عيش غَرِضْنَهْ

ثم انظر إليه كيف ينتهى من هذا كله إلى هذا البيت الذى يصور مذهبين من مذاهبه . أحدهما مذهبه فى الجبر ، والآخر مذهبه فى الفن ، هذا الذى يستعير فيه من علوم العربية اصطلاحاتها ليؤدى بها آراءه الفلسفية العليا .

فهو يشبه أسباب المنى بأسباب الشعر ، وهو يشبه ما يعرض للمنى منَ الخَيبة واليأس والقنوط والحرمان بما يعرض لأسباب

الشعر من الكف والقبض اللذين ينقصانها ويَنحرفان بها عَن وجُوهها المألوفة :

وَأسبابُ المنى أسبابُ شعرٍ
كُفِفنَ بعلم ربِّكَ أو قُبضنه

ولكن الشاعر هو الذى يكف أسبابه أو يقبضها ، تدفعه إلى ذلك صناعته ويدفعه إلى ذلك فنه وتدفعه إلى ذلكَ ضرورات الوزن . ونحن نعلم أصول الصناعة وأصول الفن ودقائق الضرورات التى تدعو الشاعر إلى أن يكف أسبابه أو يقبضها . فأما أسباب المنى فليس الناس هم الذين يكفّونها أو يقبضونها ؛ لأنهم ليسوا هم الذين ينظمون قصيدة الحياة ، وإنما تُكفُّ أسباب المنى وتقبض بعلم الله الذى خلق الحياة والأحياء ودبّر أمور هؤلاء وتلك بحكمة لا يعرفها أبو العلاء ولا يعرفها غيره ، وإذن فلا بد من الإذعان للقضاء والرضا بالحوادث الواقعة والاحتياط من القضاء ومن الحوادث الواقعة ، ولا بد من أن يكف الإنسان أذاه عن غيره ويصرف شره عما عداه وعمن عداه . وقد فعل أبو العلاء ذلك فهو لا يروع آمنًا ولا يثير ساكنًا .

وما الظَّبيات مِنى خائفات
وردْنَ على الأصائل أو رَبَضْنه

وهو ينصح لك ويرأف بك ويود لو تذهب مذهبه وتسير

سيرته فلا تفجع الطير فى بيضها فإنه لها لا لك ، وما ينبغى لك أن تعتدى عليها ما دمت تكره أن يُعتدَى عليك .

فلا تأخذْ ودائعَ ذات ريش
فمَا لَكَ أيها الإنسانُ بِضْنه

ثم هو لا يكفيه من نفسه ولا يكفيه منك الإعراض عن ترويع الآمن وإثارة الساكن وتفجيع الطير فى ودائعها ولكنه يريدك كما أراد نفسه على أكثر من هذا ! يريدك على أن تروع نفسك بحرمانها طائفة من اللذات لتجنبها طائفة من الآلام . يريد أن يصرفك عن الغانيات وعما تثير حياتهن وزينتهن فى نفسك من لهو وشهوة وفتنة ، لأن هذا كله ينتهى إلى آلام لا تحصى وحسرات لا تنقضى ، وفيم تحمل الآلام وتجشم الحسرات ما دامت كلها منتهية إلى هذه الآخرة المنكرة التى تعرفها ، ولكنك تجهل ما بعدها وهى الموت ، إنما يحتمل الألم حين ينتهى إلى لذة فيجب أن تترك اللذة حين تنتهى إلى ألم .

وشاعرنا فى تأدية هذا المعنى الذى يكلَف بترديده معتمد دائمًا على حفظه وعلى ما ورث من الألفاظ والأخبار والأساطير ، يصرف هذا كله فى شعره تصريفًا جميلا رائعًا يشعرك بهذه البداوة الحلوة المرة ، ويصور لك حكمته ، هذا التصوير الجزل الذى لا يلين كل اللين ولا يعنف كل العنف وإنما يتخذ بين ذلك سبيلا .

فراع اللهَ وآلهَ عن الغــواني

يَرُحنَ ليمتشطن ويَرتحضنه

وطُنَ السابرىّ وخُضن بحر الـ

نعيم وهنّ فى ذَهَب يَخُضْنه

وللسَّمرات فى الأشجار عيبٌ

إذا ما قال مخبرُهن حِضْنه

نجائبُ لامرئ القيس بن حُجْر

وقَصْنَ أخا البطالة إذ يرضْنــه

وانظر إلى قوله :

نَجائبُ لامرئ القيس بن حُجر

وقَصْنَ أخا البطالة إذ يُرْضَنه

كيف يشير فيه إشارة ظريفة إلى عبث امرئ القيس . وإلى قوله :

وخيــل اللهو جامحة علينـــا

يساقِطْن الفوارسَ إن رُكِضْنه

كيف يشير فيه إلى أفراس الصبا التى عراها زهير !

ثم انظر إلى قوله :

فيا غضًّا من الفتيان خــيرٌ

من اللحظاتِ أبصارٌ غُضِضْنه

كيف أشار فيه إلى قول الله عز وجل : « وقل للمؤمنين

يغضوا من أبصارهم » ، وكيف جانس فيه بين وصف الغض الذى يكون للفتى وللغصن ، وبين فعل الغض الذى يقع على الأبصار .

فإذا فرغ أبو العلاء من هذا النهى أو من هذه الفلسفة السلبية أقبل على الأمر أو على فلسفة إيجابية يتم بها ما ينبغى للرجل العاقل الحازم من الاحتياط ، وهو يأخذ فلسفته الإيجابية هذه من الدين ، فهو يأمر بإيتاء الزكاة ؛ وما يمنعك من إيتاء الزكاة ، ومن أن تَـحـُلَّ مالك عن نفسك مريداً لذلك قبل أن ينحل المال عنك برغمك ! ويأمر بإقامة الصلاة ، وأى شىء أعجز من أن تقصر فى إقامتها ورياضة نفسك بها وهى أيسر من أن تلقاها بالإعراض أو أن يصرفك عنها الكسل ! وهو يأمر بصوم رمضان ولا سيما حين يشتد القيظ لأن فى ذلك رياضة للنفس على الشدة وأخذاً لها بالعنف وتهويناً للمشقة عليها . ولكنه يقف عند ذلك من أركان الإسلام ؛ فهو لا يأمر بأداء الحج وأكبر الظن أن رأيه فى الحج سيئ تثبت ذلك نصوص فى اللزوميات قد مر بعضها وقد نعرض لبعضها بعد حين ، وهو لا يأمر صراحة بالركن الأول من أركان الإسلام وهو أن تشهد بأن لا إله إلا الله وبأن محمداً رسول الله . لا يأمر بذلك صراحة ، إما لأن فى نفسه من النبوات شيئاً كما قدمت ، وإما لأن هذا الأمر مفهوم ضمناً من أمره بالزكاة والصلاة والصوم ، وإن كان شكه فى النبوات يفهم أيضاً من سكوته عن الحج فى هذه القصيدة ومن

تصريحه فى مواضع أخرى من اللزوميات ، فهو يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض :

فَفُضَّ زكاةَ مالكَ غير آب
فكلُّ جُموع مالك يَنْفَضِضْنَهْ

وأعجزُ أهلِ هذى الأرض غاوٍ
أبانَ العجزَ عن خمس فُرِضْنَهْ

وَصُمْ رمضانَ مُختاراً مُطيعاً
إذ الأقدام من قيظ رَمِضْنَهْ

على أن الشيخ لا يلبث بعد هذا النهى والأمر أن يعود إلى بؤسه ويأسه ، وأن يشركنا معه فى البؤس واليأس ، لأنه يؤديهما إلى قلوبنا فى لفظ هين وادع رقيق رفيق ، جزل مع ذلك متين ، فهو ينبئنا بأن الفناء مصير كل شيء ، إليه يصير الناس وإليه تصير النجوم . وإليه يصير حتى هذا الذكر الذى يعلل به الناس أنفسهم إذا عرض لهم ما يؤذيهم فى الحياة وما يثبط هممهم ويفلّ عزائمهم ويصرفهم إذا إستجابوا له عما هم مقدمون عليه من جلائل الأعمال . إنهم يعزون أنفسهم حينئذ بأن التاريخ سيعرف لهم من البلاء ما ينكره عليهم المعاصرون . ولعلهم يضللون أنفسهم حين يؤمنون بوفاء التاريخ وبما سيذكرون به من خير إن أقدموا على فعل الخير أو أحجموا عن فعل الشر ؛ فإذا هم يقدمون أو يحجمون

زاهدين فى رضا الناس معرضين عن سخطهم راغبين مع ذلك فى رضا التاريخ مشفقين من سخطه ، كأنهم سيذوقون لذة ذلك الرضا ويحسون لذع هذا السخط بعد أن يشتملهم الفناء . فأبو العلاء يرد من غرورهم هذا ، ويكف من غلوائهم ، وينبئهم بأن هذه الأحاديث نفسها صائرة إلى الفناء وإن ظنوا بها البقاء . ليس هناك شىءٌ يستطيع أن يخلد ، لن يخلد الناس ولن تخلد الكواكب ولن تخلد أحاديث التاريخ . فالسرور بالسير والأحاديث غرور ، والإيمان بأحكام الأيام لغو ، والتعزى بإنصاف التاريخ باطل ، والأمر كله صائر إلى الفناء . فمن أقدم على خير فليقدم عليه لأنه الخير لا لأنه سيعقب مكافأة من الناس أو إنصافاً من التاريخ ، ومن أحجم عن شر فليحجم عنه لأنه الشر لا لأنه سيعقب سخطاً من الناس ولوماً من التاريخ .

وليس من هذا الفناء مَخرج ، وليس عن هذا الفناء منصرف ؛ فإن استطعت أن تتخذ سلماً فى السماء أو نفقاً فى الأرض فافعل ؛ فإن ذلك لن يغنى عنك شيئاً ولن يصرفك عن هذا الفناء الذى أنت صائر إليه . وإذا استطعت أن تتخذ لنفسك جناحين تطير بهما فى الجو تُبْعِد بهما فى الطيران فافعل ، فلن يغنى ذلك عنك شيئاً ، فسيهاض جناحاكَ رَضيتَ ذلكَ أمْ كرهته ، وستقع مهما تصعد فى السماء ، وسترد إلى ذلك الفناء الذى خَرَجتَ منه ،

ولست تدرى كيف خرجت ، والذى تعود إليه ولست تدرى ماذا ينتظرك فيه .

أهذا اليأس القاتم شر ؟ أهذا البؤس الحالك مثبط للهمم ؟ مفتّر للعزائم ؟ أما بالقياس إلى ضعاف النفوس الذين لا يعملون إلا ليلقوا جزاء ما عملوا ، ولا يعرضون إلا ليتقوا شر ما أعرضوا عنه ، فنعم . وأما بالقياس إلى أقوياء النفوس الذين يعملون ويُعرضون لا راغبين ولا راهبين ، بل لأن طبائعهم تدفعهم إلى العمل أو تدفعهم عنه ، فلا .

ومن هنا أنتجت هذه الفلسفة الحالكة المشرقة المثبطة المنشطة فى حياة الناس ، نتيجتين مختلفتين أشد الاختلاف ، دعا إليها أبيقور قبل أبى العلاء بقرون طوال ، فاستجاب لها فريقان من الناس كلاهما فهمها على وجهها ولكن كليهما ذهب بهذا الفهم فى طريق مضاد لطريق صاحبه .

فأما أول هذين الفريقين فقد استيأس من جزاء الخير والشر فارتفع بنفسه عن انتظار الجزاء ونزهها عن البيع والشراء ، وطهرها من اللذة وآثامها وآثارها ، وراضها على الألم حتى ألغى شعورها بالألم ، وصرفها عن النعيم حتى ألغى تقديرها للنعيم .

وقد سلك أبيقور نفسه هذه الطريق ، ولكن كثيراً من معاصريه والذين قرءوا فلسفته سلكوا تلك الطريق . وسلكَ أبو العلاء

طريق أبيقور ولكن كثيراً من الذين قرءوا فلسفة أبى العلاء ، سلكوا تلك الطريق . فأى الفريقين أخطأ وأى الفريقين أصاب ؟ كلاهما مخطئ فى أكبر الظن ، لسبب يسير ، وهو أن هذه الفلسفة تقوم على الإسراف فى الإيمان بالعقل والاطمئنان المطلق إلى أحكامه وأقضيته وقياس الأشياء بمقاييسه القاصرة الضيقة . فمن يدرى ! لعل للأشياء مقاييس أخرى أبعد وأوسع من هذه المقاييس التى نقيس بها الخير والشر ونقدر بها الثواب والعقاب .

ومن يدرى ! لعل من الإسراف فى الغرور والكبرياء أن نتخذ أنفسنا وعقولنا مقاييس للأشياء ، وألا نلحظ حين نُقْدِم أو نحجم إلا ما يعود علينا من نفع أو ضر ، ومن خير أو شر ، ومن مثوبة أو عقوبة . أليس من الممكن ، بل أليس من الحق ، أن نخفف من هذه الأثرة . وأن نلحظ ما قد يكون لإقدامنا أو إحجامنا من أثر فى الجماعة التى نعيش فيها وفى النوع الذى نتأثر به ونؤثر فيه ؟ أليس من الممكن بل من الحق علينا أن نتساءل : ألا يجوز أن تكون لأعمالنا آثار تتجاوزنا وتتجاوز الجماعة وتتجاوز النوع نفسه إلى كائنات أخرى نعرفها أو لا نعرفها ونحن نجهل على كل حال آثار أعمالنا فيها وفى مصيرها ؟

الأمر كله يرجع إلى ما رددت إليه بؤس أبى العلاء ويأسه ، وهو هذه الكبرياء العقلية التى تلغى ما سوى العقل وتقف الثقة كلها

على العقل . فهل من الحق أن العقل جدير بكل هذه الثقة ، وأن أحكامه جديرة بهذه الطمأنينة التى تدفعنا إلى اليأس المسرف فى الطغيان أو إلى الأمل المسرف فى التهالك على اللذات والآلام ؟ ومع ذلك فأبو العلاء نفسه يعترف بقصور العقل وحيرته وعجزه عن القضاء فى كبار المشكلات .

فاقرأ قبل كل شيء هذه الأبيات التى يصور فيها الشيخ بؤسه ويأسه تصويراً هادئاً ولكنه مؤثر لطيف المدخل إلى النفس :

عيونُ العالمينَ إلى اغتماض
وأبصارُ النجوم سيَغتمِضْنَهْ

وقدْ سرّ المعاشرَ باقياتٌ
منَ الأنباء سرنَ ليَستفِضْنَهْ

أرى الأزمانَ أوعيةً لذكر
إذا بُسطَ الأوانُ له نُفِضْنَهْ

قد انقرضتْ ممالكُ آل كسرى
سوى سِيَرٍ لهنّ سينقرضْنَهْ

فطِرْ إن كنتَ يوماً ذا جناح
فإنّ قوادمَ البازى يُهضْنَهْ

وكم طيرٍ قُصِصْنَ لغير ذنب
وأزمن السجونَ فما نهضْنَهْ !

ثم انظر إلى هذا البيت الذى يعترف فيه أبو العلاء اعترافًا صريحًا قاطعًا بعجز العقل وقصوره فيقول :

متى عَرضَ الحجا لله ضاقَتْ
مذاهبهُ عليه وإنْ عَرُضْنَهْ

فهذا العقل الجبَّار الذى يُقبل ويدبر ، ويكرّ ويفرّ ، وتتسع له المذاهب حين يعرض لكثير من المشكلات ، فإذا هو يبنى ويهدم ، وإذا هو ينقض ويُبرم ، لا يكاد يعرض لله حتى تضيق عليه المذاهب وتؤخذ عليه من أقطار ، فإذا هو عاجز قاصر لا يستطيع أن يصول ولا أن يجول .

وليس الغريب أن يعترف أبو العلاء بقصور العقل وعجزه حين يعرض لله ، وإنما الغريب أن يقف أبو العلاء بهذا الاعتراف عند هذا الحد ، وألا يستقصى نتائجه المنطقية ، فإن العقل إذا عجز عن فهم الله وتعرُّف كنهه كان خليقًا أن يعجز عن فهم كثير من الأشياء التى تصدر عن الله . وهو إذا اعترف بهذا العجز كان خليقًا أن يتواضع فلا يعنِّى نفسه ولا يمنيها ولا يجشّمها هذه الأهوال التى تتجشمها فى سبيل التحليل والتعليل والتأويل . وإنما قصارى العقل أن يجدّ ما وسعه الجدّ ، وأن يفهم ما استقام له الفهم ، وأن يدبر أموره فى هذه الحياة كما تستقيم له الظروف ، فإذا انتهى إلى حيث لا يطيق أن يُبْعِد فى سبيله وقف وقفة المتواضع الذى لا يطغى ولا يتكبر ولا يتجبر ولا يتورط فى هذا الإنكار

العنيف الذى يثير اليأس والبؤس والقنوط . إنما تفهم الكبرياء الجامحة من عقل الملحد الذى لا يؤمن بالله ولا يعترف بوجوده ولا بحكمته .

فأما العقل الذى يؤمن بالله ويثبت له العدل والحكمة فهو ظالم لنفسه إن تمرد ، وباغ عليها إن ورّطها فى الإنكار والجحود .

ولكن أبا العلاء معذور بعض العذر فيما تورط فيه ودفع إليه . فقد كان مضطرًا إلى أن يعيش فى بيئته التى عاش فيها ، وإلى أن يشارك هذه البيئة فيما كانت قد دفعت إليه من ألوان الجدل فى الدين والفلسفة . فهو إذن مضطر إلى أن يثبت وينفى . وإلى أن يعرف وينكر ، وإلى أن يقبل ويرفض . وليس هو الذى ابتكر هذه المشكلات التى عرضت له أو عرض لها ، وإنما أقبل إلى الحياة وبلغ الشباب فوجد هذه المشكلات قد وضعت موضع البحث منذ أقدم العصور وكثر فيها الاختلاف واشتدّ فيها الأخذ والرد ، ونشأ عن ذلك شر عظيم فى حياة الناس وفساد منكر فى أمورهم ، فلم يكنْ لهُ بدّ منْ أنْ يستعرض ما استعرض الناس من قَبله ويَستقبل ما استقبلوا ويقول فيه مثل ما قالوا أو غير ما قالوا . وقد فعل ؛ وانتهى به هذا كله إلى هذه الحيرة المؤلمة المهلكة . ومَنْ يدرى ! إلى أى حال كان يصير أبوالعلاء لو أنه نَشأ فى بيئة بريئة لم تعرض لها هذه المشكلات ولم تدفع إلى ما دفعت إليه

بيئة أبي العلاء من ألوان الجدل !

ولكن هذا سؤال لا يغني ولا يفيد ، فأنت تستطيع أن تلقيه بالقياس إلى كل مفكر تأثر بما وجد فى بيئته من المشكلات القديمة أو الطارئة ، وبالقياس إلى كل إنسان من رجال التفكير أو من رجال العمل دفعته بيئته إلى أن يفكر أو إلى أن يعمل . وهذا السؤال ظريف حله يتيح لمن يلقيه أن يذهب فى الفرض مذاهب لا تحصى ولكنه لا ينتهى آخر الأمر إلى شيء .

فلنأخذ أبا العلاء كما هو ، كما أرادت فطرته وبيئته وظروفه أن يكون ، ولنرثِ له من هذا البؤس الملح وهذه الحيرة المضنية ، ولنستمتع بهذه اللذة الحلوة المرّة التى نجدها عندما نسمع صوته المشرق الحزين ينشر هذا الشعر الذى إن صور شيئًا فإنما يصور رجولة قوية ومروءة صادقة وقلبًا رحيمًا وعقلا ذكيًّا نافذاً وشكًّا مهما يعنف فهو لا ينتهى بصاحبه إلى هذا التمرد الوقح الذى نجده عند كثير من الذين أسرفوا فى الثقة بعقولهم . وإنما ينتهى به إلى الخوف والإشفاق والغلو فى الحذر والاحتياط للنفس والاجتهاد فى الخير ، ولا ينتهى به إلى هذه السخرية اللاذعة التى تقطع الأمل على كل آمل والقول على كل قائل ، وإنما تنتهى به أحياناً إلى سخرية رفيقة باسمة لا تقطع على مخالفيه أسباب التفكير بل لا تقطع عليهم أسباب محاورته والرد عليه .

نعم ! يجب أن نعذر أبا العلاء ، فنلاحظ ما أغرق فيه الفلاسفة والمتكلمون والفقهاء والمتصوفون والمجادلون عن الفرق السياسية باللسان أحيانًا وبالسيف أحيانًا أخرى من ألوان التأويل والتعليل والتضليل ، وأن نلاحظ أنه ، وقد فطر كما فطر ذكى القلب ، قوى العقل ، مرهف الحس ، دقيق الشعور ، لم يكن يستطيع أن يلقى هذا كله غير حافل به ولا ملتفت إليه ، أو أن يمرّ بهذا كله ساخراً منه وعابثًا به كما فعل بشار وأبو نواس ، وإنما فكّر الرجل فشقى بتفكيره . وحسبه أن شقاءه بالتفكير لم يدفعه إلى كثير من أن يشتدّ على نفسه ويأخذها بما أخذها به من العنف ، ويدفعها إلى ما دفعها إليه من النسك ، ويصرف شرها عن الناس ، ولا يمنح الناس من آثارها إلا ما يدعوهم إلى الروية والتفكير ، ويثير فى نفوسهم اللذة والمتاع .

واقرأ هذه الأبيات التى تصور يأسه من إسراف المؤولين فيما أوّلوا ومن إسراف المعلمين فيما عللوا ومن إسراف الفقهاء وأصحاب الكلام فيما حاولوا من ألوان التوفيق والتفريق ، ثم انظر إلى البيت الأخير منها فسترى يأسًا مهلكًا ولكنه لا يثير فى النفس ثورة ولا يدفعها إلى جموح وإنما هو منته بها إلى الرضا والإذعان :

وقد كذَب الذى يغـدو بعقل

لتصحيح الشروع إذا مَرِضْنَهْ

هى الأشباح كالأسماء يجرى الـ
قضاءُ فَيَرْتَفِعن ويَنخفضْنَهْ
وتلك غمائم الدّنيا اللواتى
يُسفّهن الحليم إذا ومضْنَهْ
غدتْ حُججُ الكلام حجا غدير
وَشيكًا ينعقدْنَ وينتقضْنَهْ
لعل الظاعنات عَن البرايا
منَ الأرواح فُزْنَ بما استعضْنَهْ
وللأشياء علاّت ولولاَ
خطوبٌ للجسوم لما رُفِضْنَهْ
وَغَارتْ لانصرام حَيًا مياهٌ
وَكُنّ على ترادفه يفضْنَهْ

أرأيت إلى هذه القصيدة التى لم تسرف فى الطول ولم تسرف فى شيء من الأشياء كيف ألمّت بألوان مختلفة من هذه الفلسفة المظلمة التى أنفق فيها الشيخ حياته ؟ بدأت بالأسف والحزن وانتهت باليأس والقنوط ، وافتنّ الشيخ بين ذلك فى ألوان من التفكير ، منها ما يصوّر الحذر والاحتياط ويحاول تطهير النفس مما يراه العقل والدين إثمًا ، ومنها ما يصور التواضع والاعتراف بالقصور ، ومنها ما يصور الثورة على الناس لا على الله ، وهى

على كل حال وفى كل فن من الفنون التى ألمت بها لا تخلو من هذه الشخصية القوية الضعيفة ،الثائرة الهادئة ، المتكبرة المتواضعة ، شخصية أبى العلاء .

ثم أرأيت إلى فنه اللفظى فى هذه القصيدة كيف استقام له واستجاب لدعائه فلم يمتنع ولم يتمنع ، ولم يلتو ولم يعوج ، وإنما استجاب مُسْتَسمِحاً طيِّعاً فأشاع فى القصيدة هذه الجزالة الحلوة ، وأشعرك مع ذلك بنفسه وأنبأك بأنه ليس من الطاعة والاستسلام بحيث تظن أو بحيث يظن الشيخ نفسه ، وإنما هو على كل حال فنٌّ عزيز منيع لا يُبْلَغُ إلا بعد الجهد ، وكل ما فى الأمر أن هذا الجهد قد يكون عنيفاً شاقاً أحياناً وقد يكون رفيقاً هيناً أحياناً أخرى .

أما أنا فقد استعذبت نغمة هذه القصيدة واسترحت إلى صوت الشيخ وهو ينشدها ، وأردت أن أستزيد من هذه المتعة فأقمت مع الشيخ وصحبته ذات مساء ، حتى إذا تقدم الليل خاوت إلى نفسى فخلوت إلى ذكرى الشيخ وسمعته ينشد قصيدة أخرى ليست أقل جمالاً وروعة من هذه القصيدة ، ولكنها أطول منها وأسرع سعياً إلى النفس وأعذب موقعاً فيها ، ولا بد من أن أحمل إليك صدى إنشاد الشيخ لهذه القصيدة الرائعة .

وأيسر ما أحمله إليك من هذا الصدى ترديد لمقطوعات من هذه القصيدة وتصوير لبعض الآراء التى نثرها الشيخ فى هذه الأبيات .

وقد التزم الشيخ فى القصيدة هاء السكت والتزم معها النون والسين ، وظهر لالتزامه هذا أثر واضح فى الفن اللفظى ، فقد تحكمت القافية أحيانًا ولكنها تحكمت فى سماحة وعذوبة وفى شيء من الدل والتيه ، واستجابت بعد هذا التحكم فكانت استجابتها حلوة شائقة مرضية لحاجات النفس ونزعات العقل جميعًا . ومطلع القصيدة قول أبى العلاء :

تهاون بالظنون وما حدسنه
ولا تخش الظباء متى كنسنه

ولكن لنمر مسرعين بهذا البيت وبالأبيات التى تأتى بعده والتى يصور فيها أبو العلاء عبث الزمان بالناس والأحداث على نحو ما يفعل فى كثير من شعره ونثره ، وينهى فيها عن الكلف بالغانيات ، ويفتن فى وصفهن وصفًا يصد عنهن ، ولنقف عند هذه الأبيات .

تشابهت الخلائق والبرايا
وإن ما زتهم صور ركسنه

وجرم فى الحقيقة مثل جمر
ولكن الحروف به عكسنه

غنى زيد يكون لفقر عمرو
وأحكام الحوادث لا يقسنه

وما أريد أن أقف عند فنها اللفظى فهو أظهر وأدنى من أن يحتاج إلى الحديث عنه أو إلى تقريبه إلى القارئ . ومما أريد أن أقف عند القيمة الفلسفية لمعانى هذه الأبيات ، فقد يدفعنى ذلك إلى ألوان من القول وإلى فنون من الإطالة لستُ فى حاجة إليها . وإنما أريد أن أقف عند شيئين اثنين تصورهما هذه الأبيات تصويراً قويًّا واضحًا ويحتاجان إلى كثير من التعمق والاستقصاء .

الأول أن هذه الفكرة التى يصورها الشيخ فى البيت الأول ويُقيم الدليل عليها فى البيت الثانى مشتركة بينه وبين أصحاب أبيقور ، لا فى جوهرها فحسب بل فى طريقة عرضها أيضًا . فأى الناس قرأ ديوان الشاعر اللاتينى لوكريس ، الذى يعرف بطبيعة الأشياء ، يعلم أن هذه الفكرة شائعة فى هذا الديوان كله وأن الشاعر اللاتيني يعرضها غير مرة على نفس النحو الذى يعرضها عليه أبو العلاء .

فهو يتحدث عن تشابه الاشياء وإن اختلفت صورها الظاهرة ، وهو يتمثل لذلك بألفاظ لاتينية يعبث بها نفس العبث الذى يعبثه أبو العلاء بـ « جرم » و « جمر » فى البيت الثانى .

ومن المحقق أن أبا العلاء لم يقرأ لوكريس ولم يظهر عليه ، وأكبر الظن أنه لم يسمع بديوانه بل لم يسمع باسم الشاعر نفسه ؛

ولو قد قرأه لقرأه بالعربية وليس من سبيل إلى ترجمة هذا العبث اللفظى من اللاتينية إلى اللغة العربية ، وقد ظهر عجز التراجمة الفرنسيين عن نقله من اللاتينية إلى الفرنسية .

ليس من شك إذن فى أنّ أبا العلاء لم يتأثر بالشاعر اللاتينى من قريب ولا من بعيد . وكل ما يمكن أن يُفترض هو أنّ فلسفة أبيقور قد عُرفت عند المسلمين على نحو ما ، واتصلت أصولها بأبى العلاء فصادفت من مزاجه استعداداً وقبولا ؛ ففكر فيها واستقصى مذاهبها مجتهداً مستنبطاً من نفسه ، وانتهى إلى مثل ما انتهى إليه القدماء من أصحاب أبيقور ، وإلى مثل ما انتهى إليه الشاعر اللاتينى من مذاهب التفكير والتعبير ومن مذاهبهم فى السيرة أيضاً .

والشىء الآخر هذا البيت :

غنى زيْدٍ يكونُ لفقر عمرو
وأحكامُ الحوادث لا يُقَسْنَهْ

فإلى أى فكرة ذهب أبو العلاء فى هذا البيت إذا لم يكنْ قد ذهب إلى تصوير عجز العقل عن فهم الحوادث التى تعرض للناس والأشياء وتعليلها وتحليلها من جهة ، وإلى إثبات أن هذه الحوادث التى لا تعلل ولا تحلل ولا تؤول تنتج فى حياة الناس أشياء يراها العقل ظلماً وجوراً فينكرها وينبو عنها ! فالخيرات

التي تنتجها الأرض وتنتجها الحضارة كلها محصورة لا يمكن أن تتفاوت حظوظ الناس منها إلا إذا كان الظلم مصدر هذا التفاوت ، فإذا ظفر زيد بالغنى فلا بد من أن يضطر عمرو إلى الفقر . وليسَ منَ الميسّور ولا من المعقول أن يكونَ الناس كلهمْ أغنياء . وإذن فلم يستأثر زيد بالغنى ويضطر عمرو إلى الفقر ؟ وكيف السبيل إلى رفع هذا الظلم ووضع العدل مكانه وتحقيق الإنصاف بين هذين الرجلين اللذين يظفر أحدهما بأكثر من حاجاته ويحرم الآخر أيسر هذه الحاجات ؟

سبيل ذلك تحقيق المساواة من غير شك . سبيل ذلك أن يؤخذ من الغنى وأن يردّ على الفقير ، حتى لا تكون بينهما هذه الفروق التي تبيح لأحدهما أن يظلم الآخر ويستعلى عليه ، وتكره أحدهما الآخر على أن يبغض صاحبه ويضمر له الضغينة والموجدة . ولكن أبا العلاء ليس صاحب إصلاح عملى ، وإنما هو مفكر شاعر ناقد يرى الشر فيدل عليه ، وما أكثر ما يرى الشر ! ويرى الخير فيدعو إليه ، وما أندر ما يرى الخير ! وهو فى الوقت نفسه لا يقطع بأن الشر الذى يراه شر مطلق ، وبأن الخير الذى يراه خير مطلق ، هو لا يقطع ، وهو من أجل ذلك ومن أجل أشياء أخرى لا يعمل ، وإنما يعتزل الناس وينفرد عنهم ويؤثر نفسه بالعافية ، يرفض الثروة فيبرأ من ظلم المعدمين والاستعلاء عليهم ،

ويبرأ في الوقت نفسه من حقدهم عليه وبغضهم له ، ويطمئن إلى الفقر وتستريح نفسه إليه فلا يشعر بألم الحرمان ولا يتعرض لهذه العواطف المؤلمة التي يثيرها الحرمان في النفوس ؛ فهو قانع مطمئن إلى قناعته ، لا يظلم الناس ولا يرى أن الناس يظلمونه ، أو هو عاف لهم عما قد ينزلون به من الظلم .

هو اشتراكي لولا أنه صاحب قناعة وزهد واعتزال للناس وإعراض عن الحياة العاملة وما يكون فيها من جهاد . هو اشتراكي الرأي فلسفي السيرة ، ولنقتصد مع ذلك في اللفظ وفي الحكم أيضاً ، فلا ينبغي أن يفهم من اشتراكية أبي العلاء ما يفهم من اشتراكية كارل ماركس ، وإنما ينبغي أن يفهم من اشتراكية أبي العلاء ما يفهم من اشتراكية العصور القديمة ومن اشتراكية الثائرين والساخطين في القرن الثالث والرابع للهجرة بنوع خاص .

فأبو العلاء قد عرف ثورة صاحب الزنج ، وعرف ثورة القرامطة . ولامَ صاحب الزنج كما لامَ زعماء القرامطة ونعى عليهم آمالهم ، ونعى عليهم فلسفتهم ولكنه استبقى من هذه الفلسفة شيئاً واحداً لعله أن يكون هو الذي أنشأ هذه الفلسفة : وهو الشعور بالظلم في توزيع الثروة والإنكار لما يكون من انقسام الناس إلى طبقات الأغنياء والفقراء .

وتستطيع أن تنظر إلى هذه الأبيات التي ردّ فيها أبو العلاء

على الشيعة وعلى صاحب الزنج وعلى القرامطة فسترى أنه أنكر عليهم جميعًا ما كانوا يطلبون أو يحاولون أو ينتظرون من تحقيق العدل فى الأرض . أنكر عليهم الإمام الذى كانوا ينتظرونه ، ولكنه اعترف بأن الجور شيء واقع ولا سبيل إلى الإفلات منه ، وصرح بأن ليس للناس إمام يستطيعون أن يثقوا به ويطمئنوا إليه إلا العقل . ولكن العقل يستطيع أن يكشف الظلمة وأن يجلب الرحمة بشرط أن يطاع وليس إلى طاعته سبيل ، لأن فى طبيعة الناس وفى طبيعة الحياة ما يجعل طاعة العقل عسيرة إلا على أمثال أبى العلاء .

وهذه الأبيات هى قوله :

يرتجى الناسُ أن يقوم إمامٌ
ناطقٌ فى الكتيبة الخرْساءِ

كذبَ الظنّ لا إمامَ سوى العقـ
ـل مشيراً فى صُبحه والمساءِ

فإذا ما أطعتــهُ جلب الرحـ
ـمةَ عنــد المسير والإرساءِ

إنما هــذه المــذاهبُ أســبا
بٌ لجذب الدنيا إلى الرؤســاءِ

غرضُ القوم متعةٌ لا يرقّو
ن لــدمع الشمّاء والخنســاءِ

كالذى قام يجمع الزنج بالبصـ
رة والقـــرمطىّ بالأحســـاء
فانفرِدْ ما استطعت فالقائلُ الصا
دقُ يـُضحى ثِـقْلا على الجلســـاءِ

أترى إلى اشتراكية أبى العلاء ! إنه يستمدها من الحياة المادية والعقلية لعصره ، يستمدها من الثورات التى اضطرب لها النظام الاجتماعى والسياسى أيام العباسيين ، ولكنه لا يحكم فيها شهوته ، فليست له شهوة ، ولا يحكم فيها هواه فليس له هوى ، وإنما يحكم فيها عقله فينتهى به العقل إلى هذا اليأس المريح المؤلم الذى يكون للفلاسفة والشعراء .

ينتهى به العقل إلى أن الجور واقع لا شك فيه ، وإلى أن العدل أمل لا سبيل إليه ، وإلى أن اليأس المريح على ما يثيرُ من الآلام الممضة خير منَ الجهاد الذى لا يغنى والمغامرة التى لا تجدى . هو يلتقى مع المتنبي فى الشعور بالجور ، وفى أخذها هذا الشعور من المذاهب الاقتصادية والسياسية التى كانت شائعة فى ذلك العصر ، ولكنهما لا يكادان يلتقيان حتى يفترقا . فأما المتنبى فيغامر ويخاطر حتى ينتهى إلى ما ينتهى إليه المغامرون المخاطرون ، وأما أبو العلاء فيشرب كاس اليأس هذه التى تريحه وتريح منه .

وهنا نبلغ المسألة التى أثارها الأستاذ ماسينيون والتى أشـَرْتُ

إليها فى أول هذا الحديث، والتى قرأت اللزوميات من أجلها ، وهى تأثر أبى العلاء بالإسماعيلية . وأظن أن الجواب على هذه المسألة يسير جدًّا ، فأبو العلاء قد عرف كل ما أثاره المسلمون من خصومة عقلية أو سياسية أو اقتصادية ، وأبو العلاء قد روى فى هذا كله تروية الرجل الذى يصطنع الجد ولا يحب الهزل ، وأبو العلاء قد تأثر من غير شك بهذه المذاهب المختلفة تأثراً عقليًّا فدرسها وجادل فيها ولكنه لم يستبق منها لنفسه إلا خلاصتها وأدناها إلى مزاجه . فمن قال إن أبا العلاء قد تأثر بالشيعة وبصاحب الزنج وبالقرامطة خاصة فشعر بأن الأرض قد ملئت جوراً وصوّر هذا الجور ورده إلى مصادره الاقتصادية والسياسية المختلفة فقد قال حقًّا . ومن قال إن أبا العلاء قد تجاوز هذا الحد فى تأثره بأصحاب المذاهب الثائرة الساخطة فرسم خطة عملية لرفع الجور وانتظر إمامًا سيأتى أو استجاب لإمام قائم فقد أخطأ .

فليس أبو العلاء إسماعيليًّا ولا قرمطيًّا ولا شيعة بوجه عام . هو يؤمن بأن الأرض قد ملئت جوراً ولكنه يائس من أن يرفع هذا الجور صاحبُ الزنج فى البصرة ، وزعيم القرامطة فى الأحساء ، والأئمة القائمون من الفاطميين فى القاهرة ، والإمام الذى ينتظره أولئك أو هؤلاء من الذين كانوا ينتظرون الأئمة المغيبين .

إمامه مستقر فى نفسه يهديه حينًا ويجور به حينًا آخر ، ويسلك

به الطرق المعوجة الملتوية التى نراها فى اللزوميات ، ويحمّله ألوان الجهد ويكلفه ضروب العناء . ولكن أبا العلاء يحبه ويأنس إليه ولا يرضى به بديلا .

وامض بعد ذلك فى قراءة ما يأتى بعد هذه الأبيات فسترى أبا العلاء، يعرض عليك تشاؤمه مطمئنًّا له مستريحًا إليه حتى يقول :

وليتَ نفوسنا والحقّ آت
ذَهَبْنَ كما أتينْ وما أحسنْه
قَدِمْنَا والقوابلُ ضاحكات
وَسِرْنَا وَالمدامعُ ينبجسنَه

فهو يكره الحياة كما ترى ويود لو أننا لم ندفع إليها . والغريب أنه يعلل هذا التعليل نفسه ، أو قل يصور هذا التصوير نفسه الذى ذهب إليه لوكريس من استبشار الناس حين يتلقون المولود وابتئاسهم حين يشيعون الموتى . فأبو العلاء أبيقورى فى تشاؤمه هذا ، ثم هو يذهب مذهب أبيقور ولوكريس فيثبت للعناصر التى ائتلفت منها أجسامنا طهراً ونقاء فى حالها الأولى ، ويثبت لها دنسًا وكدراً طرأ عليها بعد أن تألفت منها الأجسام .

وامض بعد ذلك فى القراءة حتى تبلغ إلى حيث ينبئنا أبو العلاء بتكتمه وتحفظه واحتياطه فى إعلان ما يضطرب فى نفسه منَ

الخواطر وما يثور فيها من العواطف وما يعرض لها من الآراء . وذلك حيث يقول :

ألم ترنى حميتُ بنات صدرى
فما زَوَّجتهن وقدْ عنسنه ؟
ولا أبرزتُهنّ إلى أنيس
إذا نُورُ الوحوش به أنِسْنه ؟

فى نفس أبى العلاء إذن أسرار مكتومة قد طال ضنه بها وكتمانه لها . فما عسى أن تكون هذه الأسرار ؟ ما أظن إلا أنها هذه المذاهب التى ينثرها أبو العلاء فى اللزوميات مصرّحًا مرة وملمحًا ومحتاطًا دائمًا . وهو على كل حال يصطنع فيها التقية . فقل إنه يذهب فى هذا مذهب الشيعة ، أو قل إنه يذهب فى ذلك مذاهب كثير من الفلاسفة القدماء الذين كانوا يرون من العلم ما يباح للناس جميعًا ويرون منه ما لا يجوز الإفضاء به إلا إلى الأكفاء على تلقيه وتحمله .

وانظر بعد ذلك إلى تصريح أبى العلاء باصطناعه لمذهب أبيقور وتصويره لهذا الزهد الذى اضطر إليه لا راغبًا فيه بل مكرهًا عليه إكراهًا . وذلك قوله :

وقال الفارسونَ : حليفُ زهد
وأخطأت الظنونُ بما فَرسْنه

وَرُضْتُ صعاب آمالى فكانتْ
خيُولاً في مراتعها شَمَسْنه
ولم أعرضْ عَنِ اللذات إلا
لأنَّ خيارَها عنى خَنَسْنه
ولم أرَ في جلاس الناس خيراً
فَمَنْ لى بالنوافر إن كَنَسْنه ؟

فالذين يظنون به الزهد مخطئون ، فليس هو زاهداً ولكنه رجل عاجز عن تحقيق آماله ، قد راض هذه الآمال فامتنعت عليه ولم تذعن له وأدركه اليأس من انقيادها فخلى بينها وبين الشموس ، وأعرض عن لذاته لا رغبة عنها بل قصوراً وعجزاً ، هى التى أفلتت منه فلم يستطع أن يلحق بها فآثر القعود على سعى لا غناء فيه .

وهو حين آثر القعود لم يطق أن يقعد مع الناس ولا أنْ يرى فى مجالستهم خيراً ، فهم يرضون بما لا يرضى به ، ويطمحون إلى ما لا يطمح إليه ، ويقنعون بما لا يرى فيه مقنعاً ، ويختصمون فيما لا يرى فيه موضعاً للخصام . فليعرض عنهم كما أعرض عن آمالهم ولذاتهم ، ولينفر نفور الظباء حين يلزمن الكناس .

فهو إذن ساخط على الدنيا لأنها أعجزته لا لأنه زهد فيها . وفلسفته إذن كما قلت فى أول هذا الحديث فلسفة المحنق المغيظ

لا فلسفة المرتفع عن نعيم الحياة ولذاتها . أو قل إنها فلسفة المرتفع عن نعيم الحياة ولذاتها لا لأنه أراد أن يرتفع بل لأنه أكره نفسه على هذا الارتفاع . طمعه أكثر من طاقته فهو يؤثر أن يفقد كل شيء على أن يقنع ببعض الشيء .

أترحم هذا الرجل وترثى له ، أم تضيق به وتسخط عليه ؟ أما أنا فأختصه بالرحمة والعطف ، لأنه أحب الدنيا وأعرض عنها ، ورغب فى اللذات ثم صدف عنها ، ولأنه حين أعرض عن الدنيا وصدف عن اللذات لم يضمر لأحد شرًّا ولم يحسد الناس على ما أصابوا منها ، وإنما رضى عن الحرمان واطمأنت نفسه إليه وعاش وادعًا هادئًا لا يؤذى أحداً ولا يكاد أحد يؤذيه .

وامض بعد ذلكَ فى القراءة حتى تصل إلى حيث يعود أبو العلاء إلى نوع من إنكار هذه المصادفات التى تسيطر على الأحياء والأشياء فتقسم الحظوظ فى غير حكمة ظاهرة ولا عدل بين للعقل حين يُريد أنْ يُعلل أو يتأول . فالمساواة ليست ملغاة بالقياس إلى الناس وحدهم فيما يكون من تقسيم الثروة بينهم ، ولكنها ملغاة أيضًا بالقياس إلى الأشياء التى لا تعقل ولا تحس . فما بالُ بعض الأماكن يُؤثرُ بالتجلة والتكرمة وبعضها الآخر يُهمل إهمالا دونَ أن يكونَ هناكَ فرْق ظاهر يلحظه العقل بين هذه وتلك ؟ أمصدر هذا مصادفة لا نستطيع لها تأويلا ؟

وإذن فليس على أبي العلاء بأس وإنما الأمر فى هذا كالأمر فى غيره من الأشياء التى يعجز العقل عن فهمها . أم مصدر هذا ما يكون من حمق الناس وخرقهم واندفاعهم إلى ما يدعون إليه فى غير روية ولا تبصر ولا تفكير ؟ وإذن فهو الانحراف عن الإسلام والازورار عن الدين . فالأماكن التى يذكرها أبوالعلاء فى هذه الأبيات ، كما سترى ، هى صخرة بيت المقلس وركنا قريش ، ومقام إبراهيم .

وقد قدمت أن أبا العلاء لا يطمئن إلى الحج ، ينكره صراحةً بالقياس إلى النساء فى قوله :

أقيمى ، لا أعدُّ الحجّ فرضًا
عـلى عُـجُـز النساء ولا العذارَى

ويهمله إهمالاً حين يذكر أركان الإسلام فى القصيدة السابقة فيأمر بالصلاة والصوم والزكاة ولا يذكر الحج . وهو هنا يقول هذه الأبيات :

وقد غابتْ نجوم النّهـَدى عنـَّا
فماج الناسُ فى ظـَلـَم ٍ دَمَسـَنه ْ
وقـَد تـَغشى السعادة غيرَ نـَدْب ٍ
فـَيشرقُ بالسعود إذا ودَسَنه ْ

وتُقسَم حُظوَةٌ حتى صخورٌ
يـزُرنَ فيُستلَمنَ ويُلتمسنه

كذات القدس أو ركنا قريش
وأسرتهن أحجارٌ لُطسنه

بحجٌ مقامَ إبراهيمَ وفدٌ
وكم أمثال موقفه وطِسنَه ؟

وأكبر الظن أنّ أبا العلاء هنا إنما يذهب مذهب أبيقور في إنكاره حمق الناس وخرقهم واستجابتهم للأوهام . وآية ذلك ما قدّمت من إعراض أبي العلاء عن الحج وإنكاره له في غير موضع من اللزوميات . وآية ذلك هذا البيت الذى يأتى مُباشرة بعد هذه الأبيات وهو قوله :

تشاءم بالعواطس أهلُ جهل
وأهون إن خفَتنَ وإن عطسنه !

فذكره بما يكون من تشاؤم الناس وتفاؤلهم فى هذه السخرية اللاذعة بعد ذكر ركنى قريش ومقام إبراهيم وإقبال الناس عليها دُون غيرها من الأماكن ، مصورٌ لمذهبه أوضح تصوير وأجلاه ، هو مذهب يخالف جو الاستسلام وطبيعته مخالفة لا تحتمل شكًّا ولا تأويلا .

على أنه يمضى فى هذه السخرية بأوهام الناس واستجابتهم لما

يكون من دعوة الداعين وتصديقهم لما يقال لهم من الأقوال وما يقص عليهم من الحديث فيقول :

وأعمارُ الذين مَضَوْا صغاراً
كأثواب بَلِينَ وَمَا لُبِسْنَهْ

فالأطفال الذين يدركهم الموت قبل أن يرشدوا لا ينشرون ولا يحشرون ولا يلقون عقاباً ولا ثواباً . أقبلوا على الحياة ولم يريدوها ، وأخرجوا من الحياة ولم يستمتعوا بها . أقبلوا من العدم وصاروا إلى العدم ؛ وليس لذلكَ حكمة معروفة أو علة ظاهرة ، هم كالثياب التى تبلى دون أن تلبس ، ففيم وجدت وفيم بليت ؟ !

ثم يقول :

وَهانَ على الفراقد والثريَّا
شخوصٌ فى مضاجعها دَرَسْنَهْ
وَما حَفَلتْ حضارِ ولا سُهَيْلٌ
بأبشارٍ يمانيةٍ يُدَسْنَهْ

سخف إذن كل ما يذاع فى الناس فيصدقونه ويطمئنون إليه من أخبار الكواكب والنجوم فيما بينها ، ومن عناية الكواكب والنجوم بالناس ورعايتها لهم وتأثيرها فيهم بالخير مرة وبالشر مرة أخرى . فالكواكب والنجوم لا تحفل بنا ولا بما يعرض لنا من الحوادث والخطوب . ومن يدرى : لعلها لا تحفل بنفسها أو لعلها

لا تشعر بنفسها ! وإذن فالنـــاس يستجيبون للأوهام ويؤمنون بالسخف حين يصدِّقُونَ مَا يُقَصّ عَليهم ويُذاع فيهم من أمر الكواكب والنجوم . مصدر ذلك ضعف عقولهم من جهة وتعلقهم بالكبرياء والغرور من جهة أخرى . يرون أنفسهم شيئًا وليسوا فى حقيقة الأمر شيئًا .

وكذلك صور أبو العلاء فى هذه القصيدة الرائعة تشاؤمه المظلم القاتم فى ألفاظ رقيقة شفَّافة ، ولكنها تشف عن هذا الحزن المؤلم المظلم .

والغريب أنى شغلت بهاتين القصيدتين وبقصائد أخرى تشبههما فى اللزوميات وتركت صاحبى يمضى فى قراءة ذلك الكتاب السخيف الذى اشتريناه لنستعينه على القطار ، يظن أنى أسمع له وأصغى إليه والله يشهد أنى ما كنت أسمع إلا للشيخ ينشد شعره هذا الرائع الحزين !

والقطار ينهب الأرض بنا نهبًا ، يجن حينًا ويعقل حينًا آخر ، وأنا عن هذا كله لاه ولهذا كله ناس ، لا أحفل إلا بهذا السجن المظلم الذى أقام فيه الشيخ واقتحمته أنا على الشيخ . وما أزال كذلك حتى نبلغ باريس . والمقبلون على باريس حين يبلغونها يعنون بأشياء كثيرة مختلفة ، ولكن أقلّ ما يعنون به لأول قدومهم الكتب والنظر فيها .

والله يشهد ما بلغت الفندق حتى طلبت إلى صاحبه أن يضيف

إلى الغرفات التى نحتاج إليها غرفة أخلو فيها إلى أبى العلاء . وما كان الغد حتى كانت كتب أبى العلاء قد خرجت من مكامنها ، وحتى كنت مقبلا على الشيخ فى سجنه أسمع منه وأتحدث إليه ولكن لا من طريق اللزوميات بل من طريق الفصول والغايات .

٩

وكان القدماء يظنون بهذا الكتاب الظنون ويقولون فيه عن علم وعن غير علم ، منهم من لم يقرأه وإنما سمع عنه ، ومنهم من قرأه ولم يفهم عن أبي العلاء فيه . منهم من أساء الظن بالشيخ فقضى فى الكتاب بما استقر فى نفسه من سوء الظن ، ومنهم من أحسن الظن بالشيخ فأحسن الظن بالكتاب . فرأى بعضهم أن الكتاب معارضة للقرآن ورأى فيه لونًا من ألوان الكفر ، ورأى بعضهم أن الكتاب تمجيد لله وثناء عليه فرأى فيه لونًا من ألوان الدين والتقوى .

وأقبلت أنا على الشيخ وهو يملي هذا الكتاب، لا أحفل برأى الناس فيه وإنما أحفل بما سيتركه فى نفسى من أثر ، وأحفل بهذه النغمات التى يترنم بها الشيخ حين يتحدث إلى نفسه بما ألَّف من هذه الفصول حين تستأثر به الخلوة فيردد ما ألَّف ، يجرى به لسانه ليسمعه وليحقق أمستقيم هو أو معوج ، وحين كان يملي هذا الذى ألَّفه على طلابه راضياً عنه معجباً به ، ثم يملي عليهم تفسير ما وقع فيه من غريب .

لقد تصورت الشيخ فى حالين مختلفتين . كان فى إحداهما

فيلسوفاً مفكراً وفى الأخرى أستاذاً معلماً . وكان فى إحداهما ساخطاً على نفسه مصغراً لها ، وكان فى الأخرى راضياً عن علمه معجباً به .

كان فيلسوفاً ساخطاً فى الليل حين يخلو إلى نفسه ، فتضاف ظلمة الليل إلى ظلمة بصره وإلى ظلمة يأسه وبؤسه ، ويتردد فى هذه الظلمات المتكاثفة المتراكبة ضوء ضئيل ولكنه غزير ، هو ضوء عقله وقلبه يهديه من ضلال ويرشده حين تشتبه عليه الطرق . يهديه إلى هذه المعانى الكثيرة المختلفة المختلطة التى حفظها منْ علم الأولينَ . وإذا هو يميز منها ما يلائمه ويهديه إلى هذه الألفاظ الكثيرة المختلفة التى حفظها من لغة الأوّلين ، وإذا هو يميز منها ما يلائم معناه ويهديه فى طريقه الفنية ، فإذا هو يصبّ معناه فى ألفاظه صبّاً ، ثم يتناول بالتقريب والترتيب ، وبالحذف والزيادة ، حتى تستقيم له فصلا ممتعاً يسيراً أو عسيراً ، منتهياً إلى غايته التى أرادها له على كل حال . فإذا بلغ من ذلك ما أراد أجرى هذا الفصل على لسانه فسمعته أذنه ، وطابتْ عنهُ نفسه ، واستأنف السير فى طريقه يلتمس معنى آخر وألفاظاً أخرى ليضيف فصلا إلى فصل وغاية إلى غاية ، وما يزال كذلك حتى يبلغ منه الجهد ويدركه الإعياء ويضمه النوم فى رفق بين ذراعيه . وما أرى إلا أن نفسه كانت تعمل نائمة كما كانت تعمل مستيقظة ، وما أرى إلا أن لسانه كان يدور فى فه

ببعض الأسجاع ، حتى إذا استيقظ وجد فى ضميره آثار هذا الجهد النائم فادّخره إلى أن يأتى المساء .

وكان أستاذاً معلماً حين يقبل عليه طلابه مع الضحى فيملى عليهم ما أعدّ لهم من ليلته فيبسمون ويرضون ويعجبون ويكتبون ويستفسرون ويستوضحون . ويملى عليهم الشيخ تفسير ما عُمِّىَ عليهم من الألفاظ مكتفياً بالبيان حيناً مستشهداً على ما يقولُ حيناً آخر . وما أدرى إلا أنه كان يرضى عن نفسه حين كانَ يفسر فيرضى العقول ويشفى الصدور وينقع غُلَّة طلاب المعرفة .

ولكن لمَ ألّف أبو العلاء كتاب الفصول والغايات ؟ إنه هو ينبئنا بهذا حين يقول : « علم ربنا ما علم . أنى ألفتُ الكلم ، آملُ رضاه المسلّم وأتقى سخطه المؤلم ، فهب لى ما أبلغ به رضاك من الكلم والمعانى الغراب . . . . » .

وأبو العلاء صادق فيما يقول فهو إنما ألّفَ الكلم يبتغى بها رضا الله ويتقى سخطه . كتابه إذن نوع من أنواع التقرب إلى الله ، ولون من ألوان العبادة لَه والإمعان فى تسبيحه والثناء عليه . ولكن أبا العلاء يعبد الله ويتقرب إليه كما يريد هو ويختارُ ، لا كما يريد الناس ويختارون . فهو يثنى على الله ما فى ذلك شك ؛ ومَا أعرف أنّ أحداً أثنى على الله كما أثنى عليه أبو العلاء . ولكنهُ يُثنى عليه ثناء الرجل الحرّ الذى جمع بين خصلتين

متناقضتين : هو حر فلا يمنعه شيء من أن يتحدث إلى ربه حديث المؤمن به المطمئن إليه يصارحه بما فهم وبما لم يفهم ، ويجاهره بما رضى وبما لم يرض ، ويظهره على ما يعرف وما ينكر ، فى هدوء واطمئنان وثقة ، وفى خوف وفزع وهلع أيضاً . هو مؤمن بالله ولكنه مؤمن بعقله أيضاً ، فإيمانه بالله يدفعه إلى الحب والأمن والثقة حيناً ، ويدفعه إلى الخوف والإشفاق والقنوط حيناً آخر . وإيمانه بالعقل يدفعه إلى الشك والإنكار مرة ، ويدفعه إلى الإيمان واليقين مرة أخرى . وهو إذن متردد فى الفصول كما هو متردد فى اللزوميات .

يقطع بشيئين : أحدهما وجود الله وحكمته ، والآخر انقطاع الصلة بين الله والناس إلا من طريق العقل ومن طريق العقل وحده . وإذن فهو فى حاجة إلى أن يفهم حكمة الله وهو عاجز عن فهم هذه الحكمة ، وإذن فهو غير مطمئن إلى النبوات وهو محتاط إلى إعلان شكه فى النبوات .

وأنت تقرأ هذا الجزء الذى نشر من الفصول والغايات فترى أنه قد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فيه أكثر من عشرين مرة لكنه لم يذكره إلا عرضاً ليستشهد بكلمة قالها أو قيلت له ، أو لينستدل بحديث من الأحاديث استدلالاً لغوياً ليس غير . وهو إذا ذكر النبي مجده وصلّى عليه ولكنه لا يزيد على ذلك . وهو ينكر فى الفصول والغايات ما أنكر فى اللزوميات من أمر الحج ، ويثبت

فى الفصول والغـــايات ما أثبت فى اللزوميات منْ وُجوب الطاعة والتقوى وإقامة الصلاة والبر بالفقراء ، ورياضة النفس وأخذها بما تكره من الشدائد .

وهنا تعرض مسألة لا بدّ من التفكير فيها : ما عسى أن تكون الصلة بين اللزوميات والفصول والغايات من ناحية الفلسفة العلائية أولا ، ومن ناحية الفن اللفظى ثانياً ؟ فأما أنا فرأيي فى ذلكَ صريح واضح لا لبسَ فيه ولا غموض : وهو أن أحد الكتابين صورة صادقة للآخر ، صورة تطابق الأصل كل المطابقة بحيث يجب أنْ يُفسر أحدهما بصاحبه ، وأكبر الظن أنّ الفصول والغايات هو الذى أنشأ اللزوميات من الناحية اللفظية على أقل تَقْدِير .

أكبر الظن أنّ أبا العلاء تصور كتاب الفصول والغايات أولا ، فلما استقامت له طائفة من هذه الفصول خطر له أن ينظمها أو أن ينظم شيئاً قريباً منها ، وأن يلتزم فى الشعر مثل ما التزم فى النثر أو بعض ما التزم فى النثر .

وواضح جداً أن الشعر يكلف صاحبه من المشقة أكثر مما يكلفه النثر . فنى النثر حرية لا تستقيم للشاعر ، يستطيع الكاتب أن يلتزم هذه القيود أو تلك ، فإذا ضاق بها أو سئمها تحول عنها إلى الحرية إن شاء ، وإلى قيود أخرى إن أراد ، دون أن يفسد ذلك عليه نثره . ولكن الشاعر لا يستطيع أن يمنح نفسه هذه

الحرية فى الشعر لأنه لا يكاد يعدل عن هذه القيود التى التزمها حتى يضطرب نظام القصيدة ، وإذا هو مضطر إلى أن يستأنف قصيدة أخرى يصطنع فيها الحرية أو يلتزم ما شاء فيها من قيد .

ومهما يكن من شيء فإن الآراء الفلسفية التى صورها أبو العلاء فى اللزوميات هى بعينها الآراء الفلسفية التى صورها فى الفصول والغايات ، وإن قارئ الكتابين يخرج من قراءته بصورة واحدة لأبى العلاء : هى صورة الرجل المؤمن بإله حكيم ، المضطرب المتردد فيما عدا ذلك من الأمر .

ومهما يكن من شىء أيضًا فإن القيود الفنية التى فرضها أبو العلاء على نفسه فى اللزوميات قد فرضها على نفسه فى الفصول والغايات . ولعله أن يكون قد عذب نفسه فى هذا الكتاب المنثور أكثر مما عذبها فى ذلك الديوان المنظوم . فقد افتن فى القيود التى فرضها على نفسه فى هذا الكتاب ، وافتن فى تنويعها والاستزادة منها حتى لم يكن مصدر ضيق لنفسه فحسب بل كان مصدر ضيق لقارئيه وسامعيه أيضًا . كان مصدر ضيق وكان مصدر إعجاب لا حد له ، فما أعرف أن أحداً وعى اللغة العربية كما وعاها أبو العلاء . وما أعرف أن أحداً راض اللغة العربية كما راضها أبو العلاء . وما أعرف أن أحداً صرف هذه اللغة فى أغراضه وحاجاته الفنية كما صرفها أبو العلاء .

ليت آماله فى الحياة استقامت له كما استنامت له اللغة العربية ! وليت أمانيه انقادت له كما انقادت له ألفاظ هذه اللغة وأساليبها ! إذن لكان أحسن الناس حظًّا وأبعدهم عن التشاؤم وأشدّهم إغْرَاقًا فى التفاؤل والرضا . ولكن أبا العلاء حُرم تحقيق الأمانى ورُدّ عَن إدراك الآمال ، وَعُزّى عن هذا كله بهذه الألفاظ وبهذه المعانى يعبث بها كما يعبث الطفل بلُعبه ، حتى يدركه الملل وحتى يدرك الملل قارئيه وسامعيه ، وحتى تستحيل هذه التعزية همًّا ثقيلا وعناء لا يطاق .

وأول ما التزم أبوالعلاء فى الفصول والغايات هذه الغاية التى يختم بها فصوله ، فقد أراد — ويا لعبث الأطفال الكبار ! — أن يختم كل فصل من فصوله بكلمة يلتزم آخرها فى جملة من الفصول ، وأراد — ويا لعبث الأطفال الكبار ! — أن يرتب هذه الكلمات على حروف المعجم كلها فيلتزم الهمزة فى بعض غاياته ، حتى إذا بلغ منها حاجته انتقل إلى الباء ثم إلى التاء ثم إلى الثاء حتى يبلغ آخر الحروف والجزء الذى بين أيدينا ينتهى بالخاء .

وقد أراد — ويا لعبث الأطفال الكبار ! — أن تكون غايته ساكنة ؛ لأنه يقف عندها فى آخر الفصل فلا بد له من أن يستريح ، ومن أن يريح قارئه وسامعه . والسكون الذى هو علامة الوقف أدنى إلى الراحة وأجدر أن ينتهى إليه المسافر بعد شدة النشاط

وكثرة الحركة والاضطراب . وقد أراد – ويا لعبث الأطفال الكبار ! – أن يكون هذا السكون مريحًا حقًّا فاشترط أن يُسْبق الحرف الساكن بألف ساكنة . فهوَ يلتزم فى الغاية حرفين يتغير أحدهما بتغير حرُوف المعجم ولَاَ يتغير ثانيهما بحال من الأحوَال وهوَ هذه الألف الساكنة .

وهو من هذه الجهة يشقّ على نفسه فى الفصول والغايات أكثر مما يشقّ عليها فى اللزوميات . وما رأيك فى رجل يلتزم الألف فى غايات الكتاب كله وقد رتبت هذه الغايات على الحروف كلها ونظمت كتابًا يقع فى أربعة مجلدات ضخام ؟ ! ولكن أبا العلاء لا يكتفى بهذين القيدين الثقيلين ، وإنما يضيف إليهما قيوداً أخرى ينوّعها ويفتنّ فى تنويعها ، فقد لا يكتفى بالتزام الألف فى غاياته وإنما يلتزم قبلها حرفًا آخر فى طائفة من الغايات ، حتى إذا ضاق بهذا الحرف أو ضاق الحرف به تركه إلى حرف غيره فالتزمه وقتًا طويلا أو قصيراً .

هذه هى القيود التى فرضها أبوالعلاء على نفسه فى غاياته . ولكن أبا العلاء ينكر نفسه ويجحد فنه وبراعته إن اكتفى بهذه القيود ؛ فلا بدّ لهُ منْ قيود أخرى يفرضها على نفسه فى الفصول نفسها . وأنت هنا ترى الأعاجيب ، فأبو العلاء يلتزم السجع أحيانًا ، ولكنه لا يسجع كغيره منَ الكتاب وإنما

يلتزم فى السجع ما يلتزمه فى قافية اللزوميات فيفرض على نفسه حرفين وقد يفرض على نفسه أكثر من حرفين ، وهو قد يتجاوز هذا السجع الذى التزمه إلى نوع آخر من القيد فى الفصل نفسه . فإذا فـَرَضَ على نفسه سجعات بعينها انتهى إلى الهمزة وَاستأنف سجعات أخرى ، ثم انتهى إلى الباء ومضى كذلك حتى يتم حروف المعجم قبل أن يبلغ الغاية .

وقد لا تعجبه هـذه القيود كلها فيفرض على نفسه قيوداً أخرى يلتزمها لا فى فصل واحد بل فى فصول مختلفة : يجعل غايته الحاء أو الخاء ويلتزم فى الفصول من أمام هذه الغايات ومن ورائها حرفًا بعينه بحيث يكون الالتزام مؤتلفًا ومختلفًا . التزام فى الغايات ، والتزام فى الفصول على تباعدها وتباينها . وفصول أبى العلاء تقصر وتطول ، تقصر حتى تتألف من جمل ، وتطول حتى تصبح وكأنها فصل طويل من كتاب .

وفصول أبى العلاء تستقل أحيانًا ويتبع بعضها بعضًا أحيانًا أخرى . تستقل فلا تكون بينها صلة ، وترتبط فإذا طائفة منها تؤلف قصة واحدة ، كلما انتهى جزء من القصة ختم الفصل بغاية واستؤنف جزء آخر من القصة فى فصل آخر ينتهى بغاية أخرى ، ويستأنف بعده جزء ثالث فى فصل ثالث . وما يزال الأمر كذلك حتى تتم القصة فى عدد من الفصول والغايات كثير أو قليل .

وقد ذكرتُ القصة ، وما أكثرها فيما بين أيدينا من الفصول والغايات ! ما أكثرها وما أروعها وما أشدّ اختلافها وتنوعها ! منها ما يقصر حتى يؤدى فى جمل ، ومنها ما يطول حتى يؤدى فى فصول ، والخيال فيها رائع ومتواضع معًا . رائع لطرافته ولغرابة الملاءمة بينه وبين ما قصد إليه أبو العلاء من تمجيد الله ، ومتواضع لأن أبا العلاء لا يبتكره ولا يستأنفه استئنافًا وإنما يستمد عناصره من الشعر العربى القديم ، ومن الأساطير العربية القديمة ، ومن أخبار التاريخ ، ومن أصول العلوم اللغوية وقواعدها . فكل ما صور الشعر العربى القديم من وصف الصيد قد سلكه أبو العلاء فى الفصول والغايات قصصًا جميلاً رائعًا يدور حول الوعظ والإرشاد ، وحول تمجيد الله والثناء عليه .

وكثير مما صور أصحاب النحو والصرف من أصولهم وقواعدهم قد سلكه أبو العلاء فى كتابه قصصًا جميلا رائعًا أو حوارًا بديعًا ممتعًا يدور حول تمجيد الله والثناء عليه . وقل مثل ذلك فى العروض والقافية . بل قل مثل ذلك فى الموسيقى نفسها .

وليس تفسير أبى العلاء لفصوله وغاياته بأقل طرافة وغناء من الفصول والغايات نفسها . فما أكثر ما يشتمل هذا التفسير على كنوز لا تقوّم فى تاريخ اللغة العربية وعلومها وآدابها ، بل فى تاريخ الحياة الفنية للمسلمين بنوْع خاص . ولَو أنّى ذَهبتُ أفصل

خصائص هذا الكتاب وما يمكن أنْ يَستكشف فيه الباحثون من حقائق التاريخ الأدبي العربي لما فرغت من هذا الحديث ، وما أشدّ حاجتي إلى أن أفرغ منه !

فَلأقف عند طائفة من الفصول لا بد من الوقوف عندها ؛ لأنها تصور نفس أبي العلاء كما نعرفها من اللزوميات ، ومن الحق عليّ ومن الحق لي أيضًا أن أثبت هذا وأسجله ، بل لعل بعض هذه الفصول يصوّر لنا نفس أبي العلاء خيراً مما صورتها اللزوميات .

وأوّلُ مَا أثْبته منْ ذَلكَ هذا الفصل الذى يُؤَرّخ لنا فيه أبو العلاء بدْء حياته الفلسفية . وأظنك تُوافقني على أنّ لهذا التاريخ خطره ، فسترى أن أبا العلاء لم يجلب حياته الفلسفية من بغداد ، وإنما بدأها وأقام عليها فى المعرّة دهراً ، ثم ارتحل إلى بغداد وعاد إلى المعرّة وقد أتمها وأكملها بالعزلة . وما أكاد أشكّ فى أنه حين ارتحل إلى بغداد حمل معه طائفة من لزومياته ومنْ فصوله وغاياته .

فلنقرأ هذا الفصل قبل كل شيء : « منكراتي كمعارف الجياد وكعوب المُرّان ، فليت شعرى هل أنا مع الخطأ مصيب ؟ سهمى فى المعصية معلّى الأسهم ، وفرسى فى حلبتها لا حق أو الوجيه ، وناقتى فى مراحلها وجناء الجُمحىّ ، ونجمى فى ليلها الفرقد وأذنا فى مضالّها رافع بن عميرة وحنيف الحناتم ! فهل لى فى الخير

نصيب ؛ ربَّ عَجل حدَث عن خجل . ألا أنتظر غراب الليل ينهض وبازى الصبح يقع وشرْقه تطلَّع من وراء الخباء ! لكلّ ثمر إدراك ، وليس بكل واد أراك . اصْبرْ إنّ الصّريف سيرُوبُ ؛ إنّ الله -- وله علوّ المكان — جعل الشرّ غريزة فى الحيوان ، فأبعدهمْ من الشرور أقلهم حظًّا فى المعقول . ألا ترى الحجر الموضوعَ مرّ به العاثر فأدمى الإبهام ! ولا ذنب للحجر لكن للواضع والعاثرين ؟ يا خُدعة لمن تخدعين ؟ لو كنت امرأة طلقتك أبين طلاق ، أو أمَة سرَّحتك سراح الكريم ، أو ضائنة عبطتك لأول الطارقين ! قد أخلقت الجسد فما تريدين ؟ اظعنى عنه لا يحمدك فى الحامدينَ ! وانزلى بالجدب أو الخصيب ! ما زلتُ آمل الخير وأرقبه حتى نضوت كَمَلاً ثلاثين ، كأنى ذبحت بكلّ عام حملا أبرق ، بياضه الأيام وسواده لياليه . وهيهات ؛ كأننى قتلت بالسنة حيَّة عرماء ؛ إن الزمن كثير الشرور . فلما تَقَضّت الثلاثونَ وأنَا كوَاضع مِرْجلهُ على نار الحُباحب ، علمت أن الخير منى غير قريب . الرجل كلّ الرجل من آتى الزكاة ورحم المسكين وتبرع بما لا يجب عليه وكره الحِنْث وكفَّر عن اليدين . لَوْلا خَشية المنقلب لكنت أحد الفائزين ، يأتينى الرزقُ ما سعيت فيه القدم ولا عرق الجبين ، وأصيب من الطيب غير حسيب . إدّ إلى التقوى كما يئدُّ البعير ، وَبدّ الكافر

فإنه عند الله دحير ، واتئِدْ فى أمرك فإنّ التؤدة من ربّ العالمين وإذا كانت اللحى الشيب لا تكفّ عنْ قبيح ، فكنْ ثدّا ما حييت . واعلم أنّ الجدث جُدٌّ ليس موضعهُ منَ الكلأ بحميد . وحاسبْ نفسك على ما أصبت فإنك بالمحاسبة جدير ، والخدّ المتصعّر سيوضع من الأرض فى أخدود . فذد الخطايا عنك كما تُذاد الزُّرق المترنمات فإنّ ذيادها يسير ، وأردّ على آمرك بغير الجميل ، وزدْ عملكَ عن الخير إن وجدت المزيد . وإياك وسُدًّا لا ضياء فيه ، وشدّ الحسنة وثاق الطائر ، ولا تأمنن أن تبين ، وصِدْ أفعال الخير ، فإن صادتها ليسوا بكثير . ومت وإناؤك من الصدقة ضديد ، وطِدْ بناءك على أسّ ، حسنُك معدود ، وسيئك ليس بعديد . أغد على ذكر الله وأمس إليه ، فنعم الصّاحب والضّجيع . وفدّ ناهيك عن المنكر مع المفدين ، وقُدْ نفسك إلى الواجب ولو بجرير ، وكدْ معاديك بأن تجتنب أفعال الكائدين . ودُلّ السائل إذا لم تُعط لتكون نعم الدليل ، ودم على ما قرّبك من الأبرار الطيبين ، ودِن من فعل خيراً معك فإنّك مدين ، وفى خالقك ودّ إن كنت من الوادين ، وضع الأيدى عند من ذمّ وشكر فإنّ الله رزق الشاكر والكنود ، واعلم أنّ الحياة أخبرت عن الموت كما دلّ على الكلمة بالحروف هاج »[1] .

---

(١) الفصول والغايات صفحة ٢٧٩ .

ولست أفسر غريب هذا الفصل فقد فسره أبو العلاء فى الفصول والغايات فارجع إليه ، ومن الخير أن تفعل ، بل لعلى أكتب هذا الحديث إلا لأرغبك فى الإلمام بهذا السجن الذى يزار فيه الشيخ . ولست أفصِّل ما فى هذا الفصل من خصال فنية مختلفة رائعة ، فقد يطول ذلك وقد لا يتسع له وقت المعجل الذى يتهيأ لسفر قريب .

وإنما أقف عند ثلاثة أشياء سجلها أبو العلاء فى هذا الفصل ، ومن الخير أن تسجل فى هذا الحديث للأسباب التى قد أشرت إليها آنفاً .

وأول هذه الأشياء رأى أبى العلاء فى أنّ الشرّ غريزَة فى الحيوان قد برئ منها الجماد . فالشر يدور مع الحياة وجوداً وعدماً ، وُهو يـُقوّى كلما قوى حظ الكائن منَ الحياة ، ويَبلغ أقصاه حين يبلغ حظ الكائن من الحياة غايته ، فيجمع الحس والشعور والإرادة والعقل . وهذه الفكرة هى التى فصلتها فى أول هذا الحديث ، هى شائعة فى اللزوميات وفى الفصول والغايات جميعاً . والمثل الذى ضربه أبو العلاء فى هذا الفصل لا يخلو من دلالة ، فهذا عاثر قد عثر بحجر فى طريقه فدميت إصبعه فأيهما المسؤول عن هذا الشر ؟ ليس هو الحجر من غير شك ولكنه واضع الحجر فى موضعه . هذا الذى جعله عرضة لأن يؤذى من قد يمر فيعثر به ، والعاثر نفسه لأنه لم يتبين موضع قدمه ولم يقدّر لرجله موضعها قبل الخطو كما يقول الشاعر القديم .

وما ينبغى أن نقف عند المعنى القريب لهذه الجملة من حديث أبى العلاء ، فأبو العلاء أذكى وأعمق فلسفة من أن يقف عند هذا المعنى فى تفكيره ، فكن أنت من الذكاء ونفاذ البصيرة بحيث تستطيع أن تسمو معه إلى ما أراد . وأكبر الظن أنّ هذه الصورة المادية رمز لصور معنوية كثيرة . فما يكون فى حياة الناس من شر يتصل بأجسامهم وأعمالهم وإرادتهم وسيرتهم بوجه عام ، إنما ينحلّ فى حقيقة الأمر إلى نوعين من أنواع التبعة : أحدهما تبعة الذى هيأ أسباب هذا الشر وجعلها فى مواضعها من حياة الناس بحيث يعثرون بها ويتورطون فيها . فلو لم تتهيأ هذه الأسباب لما عثر الناس ولا تورطوا ، فهذه تبعة إيجابية هى تبعة خلق العالم كما هو وفيه ما فيه من أسباب الشر .

والنوع الثانى تبعة الناس الذينَ يَرونَ أسباب الشرّ فلَا يتجنبونها ولا يعدلون بأنفسهم عنها ؛ وإنما يقبلون عليها ويسرعونَ إليها : فهذه تبعة سلبية . وأيسر ما يستخلص من تحقيق هاتين التبعتين أن الإنسان ليس مسؤولا كل السؤال عن سيئاته ، لأنهُ لم يبتكر أسبابها ولم يخلق دواعيها ولم ينصب أشراكها فى طريقه . ولكنه فى الوقت نفسه ليس معفى كل الإعفاء من هذه السيئات لأن له عقلا يهديه فى هذه الطريق ويدله على مواضع هذه الأشراك ، فمن الحق عليه أن يهتدى وهو ملوم إذا لم يفعل . وإذن فهو الجبر

الملطف ، إن صح هذا التعبير ، الجبر الذى يعذر الإنسان بعض العذر ولكنه لا يعفيه من التبعات كلها .

الجبر الذى يبيح لأبى العلاء أنْ يَلوم الناسَ علىّ آثامهم وَيَأمرهم بالخير ، ويفرض عليه أن يحتاط لنفسه فيصطنع الخير ما وجد إلى ذلك سبيلا ويكف أذاه عن الأحياء ما وسعه أنْ يكف أذاه عنهم .

وهذا الرأى من آراء أبى العلاء شائع فى اللزوميات شيوعاً شديداً على تفاوت فى ذلك ، فهو مرّة يُسرف فى الجبر ، وَمرّة يقتصد فيه ، وهو على كل حال يؤمنُ بمقدار منه يُتيح لَهُ أن يطمع فى العفو مهما تعظم السيئات إذا كانت التوبة النصوح . على أنه قد يسوء ظنه ويشتدّ خوفه ويعظم يأسه فيكاد يقنط من رَوْح الله قنوطاً .

هذا كله حين يُفكر فى نَفسه وَفى الناس وفى حياتهم العاملة ، وفيما قدْ يصيبهم أو لا يصيبهم من التبعات . أما إذا فكر فى الأمر تفكيراً فلسفياً مطلقاً فَهو يَمضى فى الجبر إلى أبعد حدوده ، وَلعله يتجاوز الجبر إلى ما هو أعظم منه خطراً ، فلا ينكر التكليف ولا يجادل فى أن الثواب والعقاب عدل ، وإنما ينكر البعث إنكاراً ويصبح مادياً أبيقوريّاً بأوسع معانى هذه الكلمة وأدقها فى وقت واحد . . .

والشيء الثاني الذي أريد تسجيله من هذا الفصل هو رأي أبي العلاء في النفس ، وهو رأي يثبته في اللزوميات كما يثبته هنا ، وهو متصل بالرأي الذي صورته آنفاً . فالحياة مصدر الشر لأن النفس مصدر الحياة ، والجسم من غير النفس جماد لا يحسن ولا يسيء ، وإنما يبدأ إحسانه وإساءته حين تنبعث منه النفس فيحيا . وأبو العلاء يلوم نفسه ويزجرها ، ويرى أنها تحاول أن تخدعه وتغشه ، ويأبى عليها هذا الغش وذلك الخداع ، ويعلن إليها أنه لو استطاع فراقها لفعل فطلقها كما تطلق الزوج ، أو أعتقها كما تعتق الأمة ، أو ذبحها كما تذبح الشاة ، وهو على كل حال يدعوها إلى فراقه وإلى أن تزل بعد هذا الفراق حيث تشاء .

ورأي أبي العلاء هذا في النفس مثبت في اللزوميات كما قدمت .

واقرأ قوله :

أعاتبةٌ جسدي روحُهُ
ومَا زَالَ يَخدُمُ حتى وني

وقد كلفَتْهُ أعاجيبها
فطوراً فرادى وطوراً ثُنا ؟

والمهم هو أن نعرف من الذي يتحدث إلى نفس أبي العلاء بهذا الحديث . ليس هو جسم أبي العلاء من غير شك ، فالجسم وحده جامد هامد لا يرسل حديثاً ولا يرجع صدى . وليست

هي نفس أبي العلاء من غير شك ، فالنفس لا تتحدث إلى نفسها بهذا الحديث ولا تنذر نفسها هذا النذير ولا تأمر نفسها بفراق نفسها . وإذن فهو العقل الذى ينظر إلى النفس والجسم جميعاً ، ويفكر فيهما وفيما بينهما من صلة ، ويمتاز منهما ويصرفهما إن استطاع تصريفهما فيما يريد . فالشخص الإنسانى عند أبي العلاء مثلث لا مزدوج . جسم لا يحسن ولا يسيء ، وإنما هو خادم مسير لسيده أو قل لسيدته ، ونفس تسيء بطبعها ولا تحسن إلا أن تهدى فتهتدى ، وعقل يحاول أن يدبر أمر النفس والجسم جميعاً . وهذا التثليث فى شخص الإنسان أبيقورى أيضاً . فأبيقور يصور الفرد الإنسانى ويصور بعده لوكريس على أنه جسم تشيع فيه نفس ، هى مصدر الحركة والشعور والحس وهى مصدر الحياة ، وعقل مستقر فى الصدر هو الذى يأمر النفس فتعمل وينهاها فتكف .

ولكن الأبيقوريين لا يرون خلود النفس ولا يرون خلود العقل، وإنما يرون أن الموت يحل الجسم والنفس والعقل جميعاً ، وأن مادة هذه الكائنات الثلاثة تنحل بعد الموت إلى أصولها وتستأنف وجودها وتطورها المادى على نحو ما كانت قبل وجود الفرد .

أما أبو العلاء فقد اضطرب فى هذا أشد الاضطراب ، لأنه قرأ فلسفة الفلاسفة الذين يرون خلود النفس ولم يقو على جحدها

كما جحدها الأبيقوريون ، وعرف الديانات السماوية وفيها ما فيها من أمر البعث والنشور فلم يزده هذا إلا اضطرابًا إلى اضطراب . وإذا هو ينكر البعث حينًا ويثبته حينًا ، ويرى خلود النفس مرة وفناءها مرة أخرى ، ويقتطع من مذهب الأبيقوريين بفناء الجسم وتفرّقه بعد الموت وخضوعه لكل ما تخضع له المادة من ألوان التطور والانتقال .

وقد فكر أبو العلاء فى هذا كله وفى غير هذا كله من الأمور الفلسفية منذ عهد الشباب ولم يبلغ الثلاثين ، حتى كان رأيه فى أمر سيرته على الأقل قد استقر .

وهذا هو الشيء الثالث الذى أريد تسجيله من هذا الفصل ، والذى أراه عظيم الخطر جدًّا فى تاريخ الحياة الفلسفية لأبى العلاء . ويكفى أن تقرأ هذه القطعة لترى أن أبا العلاء لم يبلغ الثلاثين حتى غير حياته التى كان يشارك الناس فيها واستأنف حياة جديدة هى التى أنتجت لنا اللزوميات والفصول والغايات .

« ما زلتُ آمل الخيّر وأرْقُبه حتى نضوت كَملاً ثلاثين ، كأنى ذبحت بكل عام حَملا أبرق ، بياضه الأيام وسواده لياليه . وهيهات ! كأننى قتلت بالسنة حية عرماء ! إن الزمن كثير الشرور . فلما تقضّت الثلاثون وأنا كواضع مرجله على نار الحُباحب ، علمتُ أن الخير منى غير قريب ! »

ثم يمضى أبو العلاء بعد ذلك فى ألوان من الوعظ إن صورت شيئاً فإنما تصور أخص ما أخذ نفسه به من خصال الخير .

فلندع هذا الفصل وإن كنت أود إطالة الوقوف عنده : لننتقل إلى فصل آخر ليس أقل منه خطراً .

فاقرأ هذا الفصل :

« أنا كسير الجناح فمتى نهضتُ أُنهِضْتُ ، ولو صلحتُ للبِذْلة لكنت السعيد ، ولكن حال الحرير دون البرير . إنما أنا حى كالميت أو ميت كالحى ؛ وما اعتزلت إلا بعدما جدَّدت وهزَلت ، فوجدتنى لا أنفذ فى جد ولا هزل ، ولا أخصب فى التسريح ولا الأزْل ، فعلىَّ بالصبر ، لا بد للمبهمة من انفراج »[١] .

فأبو العلاء يعلل لنا فى هذا الفصل إيثاره للعزلة بعد أن علل فى الفصل الذى فرغنا من الحديث عنه إيثاره للحياة الفلسفية . وهو فى ذلك الفصل ينبئنا بأنه ظل ثلاثين سنة يأمل الخير ويرقبه ويعانى مع ذلك ألوان الشدة والسهولة ، يعد فى هذا الانتظار أعوامه بل أيامه ولياليه ، فلما بلغ الثلاثين ولم يبلغ الخير استيأس منه واستأنف حياة جديدة .

وهو فى هذا الفصلُ يُنبئنا بأنه كسير الجناح لا يستطيع أن يَنهض وحده وإنما هو مستطيع بغيره ، كما قال فى هذا الموضع ،

---

(١) الفصول والغايات صفحة ٢٩٧

ولو استطاع بنفسه لكان سعيداً . وفَقْدُ بصره هو الذى اضطره إلى هذا العجز . وهو ينبئنا بأنه قد شارك الناس فى جدهم وهزلهم ، فرأى أنَّهُ لا ينفذ فى جدّ ولا فى هَزْل . وليس فقد بصره وحْدَهُ هو الذى أعجزه عن أن ينفذ فى الجد والهزل ، فقد جدّ قبلهُ بشار وهزل . وإنما أعجزه عن ذلك فقد بصره ، وأعجزته عن ذلك طبيعته التى كانت إنسية الولادة وحشية الغريزة ، وأعجزته عن ذلكَ فلسفته التى اضطر إليها ، بعد أن ارتقب الخير ثلاثين عامًا فلم يظفر به . وإذن فلم يكن له بُدّ من أن يتمّ حياته الفلسفية الجديدة بهذه العزلة التى ينقطع بها عن الناس وعمَّا يكونونَ فيه من هزْل وجدّ . والعزلة شاقَّة عسيرة الاحتمال فليستعن عليها بالصبر فلا بُدّ للمبهمة من أن تنفرج حين يأتى الموت فيريحه ويريح منه .

وما أعرف أروع من هذين الفصلين فى تصوير الناحية الإنسانية من شخص أبى العلاء على أن الصبر لم يكن هينًا عليه دائمًا ، وإنما كان يعوزه أحيانًا فيكاد يخرج عن طوره لولا فضل من قوة الإرادة وحزم الأمر وضبط النفس . فاقرأ هذا الفصل الذى يصوره ضيقه بالعزلة ويأسه مما كان قدر أنه قد يظفر به فيها من الأمن وراحة الضمير والعزاء عن تركه بغداد .

فإذا هو لا يظفر من هذا كله بشىء ، وإذا هو يندم على ترك

العراق بعد أن انقطعت الأسباب بينه وبين العراق . كالراهب يفرض على نفسه لزوم الدير ، ثم يتبين له بعد فوات الوقت أنه قد حاول مالا يطيق فيندم حين لا يغني الندم عنه شيئًا .

وقد كان أبو العلاء يرى ترك العراق ولزوم بيته لونًا من ألوان الطاعة والبر والتواضع والإعراض عن غرور النفس وكذب الشهرة والصيت . فلما تم له من ذلك ما أراد رأى أنه قد حُرم خيراً لا تطيب عنه نفسه ، فما عسى أن يكون هذا الخير ؟ ليس خيراً ماديًّا فلم يكن أبو العلاء ناعم البال فى العراق ولا مُستمتعًا بطيبات الحياة ، وإنما هو خير عقلى ، هو هذه الحياة العلمية الفلسفية التى كان يحياها بين إخوانه وأصفيائه من العلماء والأدباء والمفكرين .

« لا عُتيبة بقى ولا قُتيبة . كم فتى من هذيل ، يضرب بالذيل ، كان العُذَيق والجُذيل ، غودر برمل أو رُميل ، ما خلَّفه النضر بن شُمَيل ، خير من خلف أبى مُليل ، والفرخ أبى العديل . عَيْلا عيلا ! قد ورث كعبٌ جُعَيْلاً ، وترك عنترٌ فيلا ، وسار فى توبة رثاء ليلى ، ثم أضحوا بالترب هَيْلا ، لم يصيدوا جُمَيْلا . طويت المنازل عن العراق كأننى فى الطاعة وأظن ذاك بعض المعصية ، وأحسبنى لو وفقتُ لانقلبت عائداً على أدراج ! »(١) .

وقد يبلغ الضيق بأبى العلاء أقصاه وينتهى الحرج به إلى أبعد

---

(١) الفصول والغايات صفحة ٣٠٨ .

آماده ، فيفكر فى أن يصوم عن الطعام والشراب حتى يدركه الموت . ولكنه خائف دائماً ، خائف مما بعد الموت فهو مضطر إلى أن يصبر وإلى أن يحتمل ، يؤثر ذلك على أن يسرع إلى الموت فيلقى من ورائه ما يكره . فاقرأ أول هذا الفصل .

« لو أمنتُ التَّبِعة لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب حتى أخلص من ضَنْك الحياة ، ولكن أرهب غوائل السَّبيل ! »[1] .

هو إذن فى الفصول والغايات كما هو فى اللزوميات يائس من الخير لنفسه وللناس ، مضطر إلى الفلسفة والعزلة ، يأخذ بذلك نفسه لأنه يقدر عليها ولا يأخذ بذلك الناس لأنه لا يقدر عليهم ، فهو ينصح لهم حين يأمرهم باصطناع الخير واجتناب الشر وإيثار العافية ما وجدوا إلى ذلك سبيلا . والآلام الكبار التى يَشكو منها أبو العلاء فى اللزوميات وفى الفصول والغايات ، والتى دعته إلى هذه الفلسفة وإلى هذه السيرة العنيفة الشاقة قليلة إن أردنا إحصاءها ، ولكن آثارَها ونتائجها لا تُحْصَى . فأبو العلاء يَشكو فَقد بصره وفقد أبويه واضطراره إلى ترك بغداد . وكلّ ما يكون فى حياته من ألم يمس شخصه إنما يتصل بهذه الألوان من الحرمان فُرضت عليه فكوّنت له هذا المزاج الحاد ، يحسّ كل شىء كأدق ما يكون الحس ، ويشعر بكل شىء كأقوى ما يكون الشعور المظلم الذى

(١) الفصول والغايات صفحة ٣٦٠ .

لا يكاد يتصل بشيء حتى يسبغ عليه ظلمته القاتمة مهما يكن مشرقًا مضيئًا .

وليس كتاب الفصول والغايات أنينًا وشكاة على هذا النحو الذى رأيته فيما رويت لك من الفصول ، وإن كان من العسير أن تجد فى كتاب الفصول والغايات فصلا لا شكاة فيه ولا حزن ؛ فقد كان أبو العلاء كله شكاة وحزنًا ، ولكن أبو العلاء يخرج أحيانًا عن حزن نفسه ومللها إلى جمال الفن الخالص وروعته . يأخذ فى القصة فتعجبه فيمضى فى تصويرها ، ولعله يجد فى هذا التصوير تسلية وعزاء فيبسط ويطيل ، ويأخذ فى التفسير بعد ذلك ، فيعجبه العلم ويروقه فيطنب فيه ويطيل ، ويظهرنا كما قلت على كنوز لا تحصى كهذا التفسير الذى عرض فيه لأضرب الغناء ففسرها لنا تفسيراً واضحًا جليًّا أرجو أن يعنى به أصحاب الموسيقى والغناء ، فسيجدون فيه حلا لرموز الأغانى[1].

وما أكثر ما يطرفنا به أبو العلاء فى تفسيره مما يمس تاريخ العروض وتاريخ ما يعرف الجاهليون وما لم يعرفوا من أوزان الشعر . وقد تغلبه الطبيعة الفنية على نفسه فإذا هو يتكلف الوعظ تكلفًا ، يتخذه وسيلة إلى عرض ما يريد أن يعرضه من الصور . وربما كان من الظريف أن تقرأ هذا الفصل الغريب الذى أسجله لغرابته ولأنه يوشك

(١) الفصول والغايات صفحة ٨٨ .

أن يكون لغزاً ، وأمثاله فى الفصول والغايات كثير ، فاقرأه وسل نفسك عما أراد به أبو العلاء .

« عجبتُ وفى القدرة عجب ، فوَحـِّد الله فيمن وحّد ، لدابـَّة لا رجل لها ولا يد ، إذا غفل عن الجسد من كان له يتعهـَّد ، نشأتْ من الإرهاب ، فإذا ظفر بها البائس ُ جـَعلها بين ظـُفرَيه ، فأسمع أذنه لها صوتـًا ، أفٌّ لها عقيرة وأفٌّ له طالبَ ثأر ! إن الله لصفوح وهـَّاب .

لو تركها البائس لنشأ لها أخواتٌ ، فكثرن كثرة النبات ، فأوقعن البشرة فى التهاب .

سبحانَ خالق النسمة ، الباكية والمبتسمة . ما تقول غبراءُ مُترنـّمة ، هيَ بالتسبيح مهيمنة ، تستتر فى الأوقاف الشَّبـِمة ، وتبرز أوان العتـَمَة ، القسمةُ بها موسـَّمة ، تـُنقذها بموملة ، أحدٌ من غروب السـَّلمة ، توقظ المؤمنَ إلى الحسنات الجمة ، والكافرَ لغير مكرُمة ، أمجوسية هى أم مسلمة ! أما القراءة فـزَمزمة ، ليست عن الدّم بملجمة ، بل من الأمم المتقدّمة ، لا ترى اجتناب النـَّشمة ، وتقنع بفصيد السـَّنمة ، قينةٌ غير مـُعلـَّمة ، تجيبها ألف رنـَّمة ، لا يفهم عنهن الفهـَمة ، لو جاءت كل واحدة بكلمة ، أوفينَ على نظام النـَّظمة ، تقع على الخادر بالأجمة ، بين القصَرة والجمجمة ، إنها لمتهجمة ، كأنها فى القصب تراسل القـُصـَّاب »[1] .

---

(١) الفصول والغايات صفحة ٧٠ .

فواضح جداً أن الناحية الفنية هى التى غلبت أبا العلاء على هذه الفصول، وإن استطاع أن يجعل بينها وبين الحكمة والموعظة سبباً .

وهناك فن يكثر منه أبو العلاء فى الفصول والغايات كما أكثر منه فى اللزوميات ، وهو الملاءمة بين أسماء النجوم والكواكب ، وأسماء الناس والحيوان ، والعبث بهذه الملاءمة فى شيء من السخرية بالناس وما سمّوا ، وبالأوهام وما خيلت لأصحابها . وهو فى ذلك يذهب المذهب الذى أشرنا إليه أثناء الحديث عن بعض قصائد اللزوميات مذهب لوكريس فى إنكار أوهام الناس ، والعبث بما يكون بين الألفاظ من تشابه يضربه مثلا لما يكون بين الصور من تشابه ، وربما كان بعض هذا الفصل مغنياً فى الدلالة على هذا الفن الذى يستغله أبو العلاء فيستخرج منه كثيراً من الحكم والمواعظ ، وكثيراً من روائع الفن أيضاً .

قال أبو العلاء :

« هل مازنُ وهوازن القبيلتان فى مُلْك الله إلا كمازن النملة ، والهوازن من الطير النافرة ! وكذلك كلاب بن ربيعة وكلب بن وبْرة ، إنما هما كلب مفرد وكلاب مستنبحة . وقضاعة بن مالك كالدابة الخارجة من خُضارة ، وقريش كذلك . وفرقد السماوة كفرقد السماء ، والجرباء ذات النجوم بمنزلة الناقة الجرباء »[1].

(١) الفصول والغايات صفحة ٤ .

وفى أثناء هذا اللعب الفنى الكثير بالألفاظ والمعانى على اختلافها وتباينها يلقى أبو العلاء هنا وهناك هذا الفصل أو ذاك ، فيضطرك إلى أن تقف حائراً مبهوتـًا تسأل ماذا أراد ، وإلام قصد ، وفيم فكر؟! ولا تكاد تطيل النظر فى هذا الفصل أو ذاك حتى تستكشف أن أبـَا العلاء قد عرَض لمشكلة من أشد المشكلات الفلسفية خطراً فأمضى فيها رأيه الذى خطر له فى اللحظة التى كان يكتب فيها ، وأمضاه مسرعـًا لبقـًا كأنما يسترقه منك استراقـًا ، أو كأنما يسترق طريقه إلى نفسك فيـُلقى فيها هذا الرأى الخطير مسرعـًا ، ثم يمضى فى طريقه فيستأنف فصلا من هذه الفصول المألوفة التى يكثر فيها العبث اللفظى والمعانى القريبة .

ولأضرب لذلك مثلا هذا الفصل الذى تقرأه فتبتسم وقد تضحك ، ولكنك لا تكاد تمضى فى قراءته حتى يأخذك شىء من الدهش يعظم قليلا قليلا ، فإذا فرغت من قراءة الفصل وقفت حائراً مبهوتـًا ، ثم لا تكاد تفكر حتى ترى أنك بإزاء مشكلة من أخطر المشكلات ، فاقرأ هذا الفصل أولا :

« يـَقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه ، ويسمع الأصوات بيده ، وتكون بنانه مجارى دمعه ، ويجد الطعم بأذنه ، ويشمّ الروائح بمنكبه ، ويمشى إلى الغرض على هامته ، وأن يقرن بين النير وسنير ، حتـّى يـُرَيا كفرسى رهان ، ويـُنزل الوَعِل الزّعِل من النّيق ،

ومُجاوره السوذنيق ، حتى يُشدّ فيه الغرض ، وتُكرب عليه الأرض ، وذلك منَ القــدرة يسير . سبحانك ملك الملوك عظيم العظماء ! »[١].

أترى إلى هذا الإنسان الذى صوّرَهُ أبو العلاء بخياله هذا الغريب ناظراً بقدميه ماشياً على رأسه سامعاً بيديه باكياً بأصابعه ذائقاً بأذنيه ! أترى إلى هذين الجبلين قد استقرّ أحدهما فى الشام والآخر فى نجد وقد جمع بينهما فى قرَن فهما يستبقان ! أترى إلى الوحش التى ألفتْ أعالى الجبال وقد تغيرَ إلفها فاطمأنت فى السهول المنخفضة ! أترَى على الجُملة إلى هذه المفارقات التى تكثر فى الفصول والغايات كثرة تثيرُ الدّهش حقاً ! ماذا أراد بها أبو العلاء ؟ أما ظاهر هذا الفصل فواضح لا غُموضَ فيه ، فأبو العلاء ينبئنا بأنّ قدرة الله شاملة تسع كلّ شىء ممكن فى رأى العقل ، وأنّ هذا العالمَ كما هو ليس إلاّ صورة ممكنة من صور أخرى ممكنة أيضاً ، وأن الذى أوْجدَ هذه الصورة الممكنة قادر على أن يوجد غيرها من الصور . وهذا كما ترى لون من ألوان التمجيد لله والإشادة بقدرته الشاملة . ولكن أمن الحق أنّ أبا العلاء لم يقصد إلا إلى هذا ؟ أمن الحق أننا نستطيع أن نكتفى منه بظاهر القول وهو الذى يقول :

---

(١) الفصول والغايات صفحة ٣١ .

لا تقيِّدْ علىَّ لفظي فإني
مثلُ غيري تكلُّمي بالمجاز

وهوَ الذى يُنبئنا فى غير مَوْضع وفى غير كتاب بأنه يؤثر الرمز ويصطنع الألغاز ولا يكره التحرز بالتقية . وإذن فماذا أراد بهذا الفصل وأمثاله ، وماذا أراد بهذه المفارقات التى بثها فيما ترك من شعر ونثر ؟

أمَّا أنا فَما أشكّ فى أنّ أبا العلاء قد قصد بهذا الفصل خاصة إلى رَأى منْ أشَدّ الآرَاء الفلسفية الأبيقورية خطراً ، وهُوَ إنكار العلة الغائية وإثبات أن العالم كما هو لم يخلق لغاية معينة من هذه الغايات التى نعرفها نحن ونزعم أن الأشياء قد خُلقتْ لتحقيقها .

وقد صور أبيقور وصور لوكريس من بعده هذا الرأى تصويراً قويًّا رائعًا ، فليس من الحق عند الأبيقوريين أن العين خلقت ليبصر بها الناس ثم ليحققوا بهذا الإبصار ما تعودوا أن يحققوا من أغْرَاضهم ومَآربهمْ ، ولَيس منَ الحقّ أن القدمين قدْ خُلقتا ليمشى عليهما الناس، وإنما أبصر الناس بالأعين لأنها وجدت كذلك ، ومشى الناس على الأقدام لأنها وجدت كذلك . أو قل كما يقول لوكريس إن الأعضاء قد أوجدت غايتها ، ولم توجد هى لتحقيق هذه الغايات . وإذن فمن الكبرياء المسرفة أن يظن الإنسان أنه

قد اهتدى إلى أسرار الكون ، ومن الكبرياء المسرفة أيضًا أن يَظنّ الإنسانُ أنّهُ الغاية من وُجود العالم ، وأن الطبيعة قد خلقت له وسخرت لمنافعه وأغراضه . والحق على الإنسان أن يقتصد ويتواضع فى حياته العقلية والعملية أيضًا فى حياته العقلية فلا يزعم أنه قد عرف الحقائق كلها واستكشف الأسرار كلها ، ولا يزعم أن بارئ هذا الكون قد فكر كما يفكر الإنسان وقدّر كما يقدر الإنسان ، وأنشأ الأشياء لأغراض يسيرة ضئيلة كهذه الأغراض التى يتصورها الإنسان .

وفى حياته العملية فلا يغلو فى إكبار نفسه وفى انتحال ما ينتحل لها من السلطان على الكائنات ، ولا يزعم أنه خلق ليسود الطبيعة فيجب أن تستذل له الطبيعة كلما أراد لها إذلالا .

وليس الذى يعنينى أن يكون هذا الرأى الذى يراه الأبيقوريون مُلائمًا أو غير ملائم لأصول الديانات السماوية، وإنما الذى يعنينى هو أن أبا العلاء قد أخذ بهذا الرأى الأبيقورى كما أخذ بغيره من آراء أبيقور . فإذا كانت قدرة الله تستطيع أن توجد العالم على غَير صورَته التى نعرفها ، وأنْ تَضع ملكة الإبصار فى القدمين ، وملكة الشم فى المنكبين وملكة السمع فى اليدين ، وملكة الذوق فى الأذنين ، وتستطيع أن تجعل سهول الأرْض وَجبالها فى غَير الأماكن التى قُسمت لها ، وأنْ تَقرّ فى السّهل ما ألف

الجبل ، وفى الجبل ما ألف السهل ، فلماذا اختارت قدرة الله هذه الصورة الواقعة دون غيرها من الصور الممكنة ؟

أما أبو العلاء فجوابه يسير لا غبار عليه وهو يوافق الأبيقوريين من ناحية ويخالفهم من ناحية أخرى . جوابه يسير وهو أن لله حكمة لا يفهمها الإنسان ولا يستطيع العقل أن يبلغ كنهها .

وإذن فكل ما يصل الإنسان إليه من التحليل والتعليل فى أقضية العقل ، وكل ما يصل الإنسان إليه من الغرور والتسلط على الأحياء والأشياء باطل لا أصل له . ليس من حق الإنسان أن يأكل الشاة لأنها لم تخلق ليأكلها ، ولا يشرب اللبن لأنه لم يخلق ليشربه ، ولا أن يختلس ضرب النحل لأن النحل لم تجمع ضربها له وإنما جمعته لأنفسها . وقصيدة أبى العلاء فى اللزوميات صريحة واضحة فى هذا كله :

غَدَوْتَ مريضَ العقل والدين فالقنى
لتسمع أنباءَ الأمور الصحائح

فأبو العلاء هنا موافق ومخالف للأبيقوريين . يوافقهم فى إنكار العلة الغائية ، ويخالفهم فى اعترافه بحكمة الله هذه التى لا يفهمها العقل . فالأبيقوريون كما هو معروف ماديون لا يعترفون بقدرة الإله على شيء من الخلق . وأبو العلاء ليس مؤمناً بالله كما قلنا غير مرة فحسب ، ولكنه مع هذا شديد الحرص على تنزيهه . يبلغ به حرصه على هذا التنزيه

أن يشارك المعتزلة فى الارتفاع بالله عن الصفات فيقول :

« لا أعلم كيف أعبِّر عن صفات الله وكلام الناس عادة واصطلاح . وإنْ فعلت ذلك خشيتُ التشبيه ، وأشركت الضَّعَفَةَ العاجزينَ مَعَ القويّ القادر فى بعض المقال ، إذا قلت فعل الأوّلُ وَفعل النعمان . وَهيهات ! ما أبْعد بينَ الفعلين ! لولا اجتهاد الناطق لفضّلت السكوت . كيف يُوصَف بشيء خالق الصفات ! »[1].

ومع أنه ينكر الصفات كالمعتزلة وينكرها للأسباب نفسها التى حملت المعتزلة على إنكارها ، وهى خشية التشبيه ، وأن خالق الصفات لا يمكن أن يوصف بها ، فهو يخالف المعتزلة أشدّ الخلاف فى أهم أصل من أصولهم الأولى وهو تخليد صاحب الكبيرة فى النار . فأبو العلاء يثبت العفو ويثبته فى غير تحفظ ولا اقتصاد . فاسمع له كيف يصور ما يمكن أن يقترف من الذنوب وما يمكن أنْ يمحو هذه الذنوب من عفو الله فى كلام رائع لا ينقصه من الشعر إلا الوزن .

« لا أيأس من رحمة الله ، ولو نظمتُ ذنوباً مثل الجبال سوداً كأنهن بنات جَمير ، ووضعتهن فى عنق الضعيفة كما ينظم صغار اللؤلؤ فيما طال من العقود ، ولو سفكت دم الأبرار حتى أستنّ

---

(١) الفصول والغايات صفحة ٨٨ .

فيه كاستنان الحوت فى معظم البحر ، وثوباى من النجيع كالشقيقتين ، والتربة منه مثل الصَّرَبة ، لرجوت المغفرة إنْ أدركنى وقت للتوبة قصير ، ما لم يحل الغَصَصُ دونَ القصصُ ، والجريضُ دونَ التعريض ، ولو بنيت بيتاً من الجرائم أسود كبيت الشّعر يلحق بأعنان السماء ، ويستقلّ عمودُه كاستقلال عمود الوَضَح ، وتمتد أطنابه فى السهل والجبل كامتداد حبال الشمس ، لهدمه عفو الله حتى لا يُوجَد له ظلّ من غير لَبَاث ! » (١) .

وأين يقع من هذا الجد الرائع هذا الشعر العابث لأبى نواس حين يقول فى ظرفه المعروف :

فقل لمن يدّعى فى العلم فلسفةً
حفظتَ شيئاً وغابتْ عنكَ أشياءُ

لا تحظر العفوَ إنْ كُنتَ امرءاً فَطناً
فإنّ حَظرَكهُ بالدّين إزراءُ

ولا بد من أن أصور لك تردد أبى العلاء بإزاء البعث فى كتاب الفصول والغايات كما تردد بإزائه فى اللزوميات . فهو فى هذا الفصل القصير يقطع بوجود الأرواح متعالية عند ربها بعد أن تبلى الأجسام فى القبور ، ولكنه لا يعرف أمنعمة هى أم معذبة ، فيقول : « الديار خالية ، والأجساد فى الحُفر بالية ، والأرواح عند ربنا متعالية ،

---

(١) الفصول والغايات صفحة ١٧١ .

لا يُعلم أنعيم هى فيه أم عذاب »[١] .

ومن قبل هذا صور شكه فى البعث تصويراً مؤلماً ، فذكر أنَّه يَرَى الموتى فيما يرى النائم فيسمع منهم ويَتحدّثُ إليهمْ ، ويكاد يصدّق ما يسمع لولا أنه يتهم خواطر الأحلام بالكذب ، وذلك حيث يقول :

« سبحانك مؤبِّدَ الآباد ، هل للمنية نسب إلى الرّقاد ؟ لا أتخيل إذا انتبهت أحداً من الأموات، وإذا هجعت لقينى قَريبُ عَهد بالمنية، ومن قد فُقد منذ أزمان ، أسألهم فيجيبون ، وأحاورهم فيتكلمون ، كأنهم بحبل الحياة متعلقون . لو صدق الرقاد لسكنت إلى ما يُخبر عن سكّان القبور ، ولكن الهجعة كثيرة الكِذاب ! »[٢].

وما أحب أن أدع حديث البعث دون أن أروى هذا الفصل المؤثر الممتع الذى يذكر فيه أباه فيصلى عليه ويهدى إليه التحية ويعلن اليأس من لقائه . ولكن لماذا يُعلن هذَا اليأس ؟ ألأنه يائس من البعث جملة ؟ أمْ لأنـَّه واثق بأنّ أباهُ يستمتع بنعيم الله ومشفق منْ أنْ تضطرّه سَيِّئات أعماله إلى الجحيم ؟ قال أبو العلاء :

« أدعوك وعملى سيءٌ ليحسن ، وقلبى مُظلم لكى يُنير ، وقد

(١) الفصول والغايات صفحة ٨٠ .
(٢) الفصول والغايات صفحة ٨٠ .

عَدلت عن المحجة إلى بُنيات الطريق . وأنت العَدْل ومن عدلك أخاف ! يا من سبَّح له زرقة الأفق وزرقة الماء وحمرة الفجر وحمرة شفق الغروب ! وإنْ كانَ الدّمعُ يطفئُ غَضبكَ فهبْ لى عينين كأنهما غمامتا شتّى تبلان الصباح والمساء ، واجعلنى فى الدنيا منك وجلا لأفوز فى الآخرة بالأمان ، وارزقنى فى خوفك برّ والدى وقد فاد ، برُّه إهداء الدعوة له بالغدو والآصال ، فأهد اللهمّ له تحية أبقى من عُروة الجدْب ، وأذكى من ورد الرّبيع ، وأحسنَ من بَوارق الغمام ، تسفر لها ظلمة الجدَث ، ويخصرّ أغبر السَّفاة ، ويأرج ثرى الأرض ، تحية رجل لِلّقيا ليس برا ! » (١) .

وبعد ، فهل أراد أبو العلاء إلى معارضة القرآن فى الفصول والغايات كما ظن بعض القدماء ؟ نعم ولا . نعم إن فهمنا منَ المعارضة مجرد التأثر ومحاولة المحاكاة ، إن فهمنا من المعارضة أن أبا العلاء قد نظر إلى القرآن على أنه مثل أعلى فى الفن الأدبى فتأثرهُ وجدّ فى تقليده ، كما يتأثر كل أديب ما يُعجب به من المثل الفنية العليا .

ذلك شىء لا شكّ فيه ، فأيسر النظر فى كتاب الفصول والغايات يشعرك بأن أبا العلاء حاول أن يقلد قصار السور وطوالها . وليس المهم أنه وفق فى هذا التقليد أو لم يوفق ، بل المحقق أن التوفيق

(١) الفصول والغايات صفحة ٢٥٩ .

لم يُقْدَرْ له كما لم يُقدر لغيره ، بل المحقق أنه لم يظفر إلا بمثل سجع الكهان . ولكن المهم أن هذه المحاولة ظاهرة ملموسة فى الكتاب ، وهى لا تضير الشيخ ولا تلزمه إثمًا ولا حوبًا .

وأنا لا أفهم من المعارضة الاستجابة للتحدى ومحاولة الإتيان بسورة أو سور مثل سور القرآن . فهذا خاطر ما أحسه خطر لأبى العلاء ، فقد كان أشدّ تواضعًا من أن تبلغ به الكبرياء إلى هذا الحد ، وقد كان أعقل من أن يطاول ما لا سبيل إلى مطاولته ، وقد كان أحرص على الاحتياط والتحفظ من أن يعرّض نفسه لمثل هذا الخطر العظيم .

أرأيت إلى كتاب الفصول والغايات كيف يشبه اللزوميات من كل ناحية ولا يخالفها إلا من ناحية واحدة ، وهو أنه منثور وديوان اللزوميات منظوم ! الموضوعات واحدة . والمذاهب الفلسفية واحدة ، وطريقة عرضها مفرقة مختلطة طريقة واحدة ، واضطراب الشيخ فيها وتردده بين متناقضاتها هو بعينه الذى تلحظهُ فى الكتابين ، والتقيد بهذه القيود العسيرة الثقيلة هو بعينه الذى تلحظه فى الكتابين أيضًا .

الفصول والغايات لا يناقض اللزوميات فى شىء ، وحسبك أن بعضه يناقض بعضًا ، كما أن بعض اللزوميات يناقض بعضًا . ليس بين الكتابين تناقض ولكن أحدهما متمم لصاحبه ومفسر لما غمض

فيه . وإذا كنت آسف لشيء فإنما آسف لأن هذا الكتاب قد ذهب عنا أكثره ولم يبق لنا إلا أقله ، ومع ذلك ففي هذا الجزء الذى بقى منه غناء عظيم .

وما أشدّ حاجتنا إلى أن يدرس هذا الجزء درسًا مفصلا دقيقًا ، وَمَنْ يَدرى ! لعلى أفرغ لذلك أو يفرغ له غيرى من الباحثينَ ذات يوم !

١٠

ويزعجني السفر عن باريس وعن غرفة أبي العلاء ، فتطوى كتب الشيخ مرة أخرى وتسلم إلى شياطين السفر فتصاحبني إلى بروكسل حيث أشهد مؤتمر المستشرقين ، فأشغل به عن الشيخ وعن حديثه الحلو المر . ومن ذا الذى لا يشغل بمؤتمر المستشرقين وحياة أعضائه حديث فى العلم إذا كان النهار وحديث عن العلم إذا أقبل الليل !

ولكنى أعود إلى باريس فلا أفرغ للشيخ ولا أخلو إليه على كثرة ما كانت نفسى تنازعنى إلى ذلك، وإنما هو الاضطراب العنيف الذى لا بد منه لمن يريد أن يهيئ العودة إلى مصر .

ثم تكون هذه العودة فلا أكاد أبلغ القاهرة حتى ألقى نفسى فى العمل الجامعى إلقاء ، وإذا أنا أشغل عن كل شىء غير هذا العمل الجامعى ، وإذا حديثى إلى الشيخ أو حديثى عن الشيخ ينقطع إلا فى تلك اللحظات الحلوة التى كنت أنفقها مع الطلاب فى قراءة أطراف من الفصول والغايات ساعة فى كل أسبوع . . .

ساعة كانت تكلفنى الخلوة إلى الشيخ بين حين وحين لأعد الدرس قبل أن ألقى به الطلاب ، ولكنى لم أكن أجد فى هذه

الحلوة إلى الشيخ من اللذة الفنية والمتاع العقلى ما كنت أجد حين كنت أخلو إليه فى غرفة من غرفات هذا الفندق أو ذاك من فنادق فرنسا لسبب يسير ، وهو أنى فى فرنسا كنت أخلو إلى الشيخ حبًّا له وإيثاراً لنفسى بلذة حديثه ، فأما فى مصر فقد أزوره لألتمس عنده ما أقول للطلاب ، كان غاية فى فرنسا وكان وسيلة فى مصر . وشتان بين الغاية والوسيلة !

ثم أفرغ من شؤون الجامعة وأخلو إلى نفسى . يشهد الله لقد كان سجن أبى العلاء أول ما خطر لى ، لقد كان حديث أبى العلاء أول ما ملأ قلبى ونفسى وعقلى معاً !

وإذا أنا أملى فى أيام هذه الفصول التى أتم بها الحديث كما أمليت فى أيام تلك الفصول التى بدأت بها الحديث .

ولشدّ ما وَدِدْت لو طالت تلك الأيام فطال مقامى مع الشيخ فى فرنسا ، ولشد ما وَدِدْت لو طالت هذه الأيام فاتصل مقامى مع الشيخ فى مصر ! ولكن السفر أزعجنى عن الشيخ فى العام الماضى وهو يزعجنى عن الشيخ فى هذا العام ، وإذا أنا أودع الشيخ كارهاً فى هذه الليلة من ليالى القاهرة كما ودعت الشيخ كارهاً فى تلك الليلة من ليالى مورزين .
وإذا أنا أتمثل قول الشيخ :

وإذا أضاعتنى الخطـــوب فلن أرى

لودادِ إخوان الصـــفاء مضيعـــا

خاللتُ توديع الأصـــادق للنوى

فمتى أودِّع خِلِّيَ التوديعــا ؟

نعم ! متى أودع خلى التوديع ، وأفرغ لأبى العلاء عامين أو أعوامًا فأؤدى للزوميات وللفصول والغايات ولأدب الشيخ كله ، وعلمه كله ما هى أهل له من العناية ، وما تستحقه من الدرس والبحث والاستقصاء ؟

علم هذا كله عند الله .

القاهرة فى ١١ يونيو سنة ١٩٣٩

رقم الإيداع		١٩٨١/٣٥٤٢
الترقيم الدولى	٩٧٧-٧٣٤٩-٣٥-١	ISBN

١/٨١/١٧٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)